لوكيوس أبوليوس

تحولات الجحش الذهبي

ترجمة

د. علي فهمي خشيم



تحولات الجحش الذهبي

روايـــة

تأليف : **لوكيوس أبوليوس**

ترجمة : **د. علي فهمي خشيم**

لوحة الغـلاف والرسوم الداخلية للفنان : **عمران القيسي**

الطبعة العربية الثالثة : ابريل ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٧/١٣٦٣٧

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-043-8



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

لوكيوس أبوليوس المدوري

تحولات الجحش الذهبي

روايـــــة

ترجمة

د. علي فهمي خشيم



تقديم

كلما ذكر اسم «أبوليوس» فى مصدر من المصادر ، أو مجلس من المجالس ، قفزت إلى الأذهان مباشرة صورة ذلك «الجحش الذهبى» العجيب وهو يمرح هنا وهناك ، يمر بمغامرة ليدخل أخرى وينتقل من مكان إلى آخر ، يختزن فى ذاكرته المدهشة ما صادفه من قصص وأحداث ، ليرويها فيما بعد للأجيال ويسجلها أثراً من أخلد الآثار الأدبية فى العالم ، وتنفرج الشفاه عن ابتسامة ، وترتفع الأكف لتخفى ضحكة تغالب صاحبها حين يذكر فقرات هذه الرواية التى تطالعها بعد قليل .

أبوليوس - واسمة الكامل تقديراً : لوكيوس أبوليوس المدور ، نسبة إلى بلدة Madaura على أعالى نهر مجردة ما بين الجزائر وتونس - ولد حوالى سنة 125 وتوفى بعد سنة 180 للميلاد . وهو ينتسب إلى قبيلة الغايتولى الليبية القديمة (والتى صارت تعرف فيما بعد باسم «جديلة» بعد الفتح الاسلامى) ، تلقى علومه فى قرطاجنة ، وأثينا ، وروما . وعرف عنه اهتمامه بالفلسفة والأدب والطب وعلوم ما وراء الطبيعة ، وعنايته بما يعرف باسم السحر عناية خاصة . ونال شهرة واسعة فى هذه المجالات كلها ، وصارت مؤلفاته تعد من أهمّ ما أنتجته حضارة اللغة اللاتينية فى العصور القديمة . ومن أهم آثاره التى وصلتنا : الأزاهير (Florida) - هى مجموعة محاضرات ومقالات فى الفلسفة والأدب ، ثم الدفاع (Apologia) وهو مرافعة بليغة ألقاها فى مدينة صبراته الليبية حين اتهم باستعمال السحر ليتزوج من أرملة ثرية فى مدينة أويا (طرابلس الآن) ويستحوذ على ثروتها، ثم : قرين سقراط (de Deo Socratis) وهو كتاب فى الفلسفة

السقراطيـة (*) وأخيراً هذه الرواية التى بين يديك .

تعـــرف هذه الرواية فـى المصـــادر الـقـــديمة بـاسم Metamorphoses التحـول ، أو التحولات، أو المسخ - إن شـئت .. لكنها عـرفت أيضاً باسم «الجـحش الذهبى Assinus Aureus ذلك لأن أبوليـوس اتّبع فى كـتـابتهـا أسلوب القصّاصين الذين ينتـحى أحدهم جانباً من السوق ويصـيح ليجمع المستـمـعين : «إعطنى قطعة من النـحاس وسـأقص عليك حكاية ذهبيـة !» فكلمة «الذهبى» أو «الـذهبية» إذن كانت وصـفاً للقصـة - فصارت وصـفاً لجحش أبوليوس .

فى الأصل اللاتينى تميزت هذه الرواية بثلاثة أشياء : لـغتها ، وأحداثها ، وأفكارها . وهى نقلت إلى أغلب اللغات الحية ، ومن أهمها الانكليزية التى نقلت عنها إلى العربيـة . أما فى اللاتينية فقد كانت مبـعث اهتمام الأقدمين والمحـدثين ، لغـرابة ألفاظهـا وتركـيب عبـاراتها وجـملها ، وكـان الكاتب مـغــرماً بالحـوشى من الـكلمـات واللعب بـالمعـانى عن طريق الـتـلاعب بالألفـاظ حتى صـارت بعض عبـاراتها أمـثالاً مـشهـورة فى أدب اللاتين . وعندما ترجمت إلى الانكليزية على يد Adlington كان حرصه بالغاً على نقل هذا الاسلوب ، فكانت أثراً معقداً شديد التعقـيد . ثم ترجمها مجهول نشرها فى Bohn Classical Library سنة 1881م ، ولم يتخلص من سطوة اسلوب أبـوليـوس الأصلى إلا قليلاً . فلما جـاء الشاعـر المعروف روبرت غريـز R. Graves وترجمـهـا من جـديد استطاع بشـاعريتـه وإدراكه لروح المؤلف والنص أن يكسبها طلاوة مدهشة نالت استحسان القراء حتى طبعت أكثر من عشر مرات ما بين سنتى 1950 - 1976م . وعنه نقلت إلى العربية ،

* لمزيد من التفصيل عن حياة أبوليوس وأعماله وأسلوبه وما يتعلق به يمكن للقارئ العودة إلى :

(1) دفاع صبراته ـ الشركة العامة للنشر والإعلان والتوزيع - طرابلس .

(2) الأزاهير : سلسلة كتاب الشعب . العدد ٤ من السنة الثانية . الناشر نفسه - للمترجم .

وحاولت قدر الإمكان الاهتمام بالجمع بين الحفاظ على روح النص وتقريب الاسلوب ، ومتابعة المؤلف فى ما عرف عنه من مزج بين الفكاهة والجد ، والدعابة والفكر ، والتشويق وإمعان النظر فى تسلسل منطقى رائق، رغم ما يبدو من غياب المنطق أحياناً يفسره أبوليوس تفسيراً منطقياً مقبولاً .

وأما الأحداث فإنى لا أريد أن أسبق القارئ وأخبره بما جرى وكان . وهذا أبوليوس أمامه أقدر على حكاية ما رأى وسمع وما حدث له من البداية حتى النهاية . لكن تبقى ضرورة الإشارة إلى أثر هذه الرواية فى كثير من عيون الأدب العالمى وتأثيرها فى أسماء لامعة فى هذا المجال ، فهى بقدمها وسبقها وانتشارها فى أوروبا كانت مصدر إلهام لا ينكر فى «دون كيشوت» للأسبانى سرفانتس و «حكايات كانتربري» للانكليزى شوسر و «دى كاميرون» للإيطالى بوكاشيو . وتكفى هذه الإشارة لإدراك أهميتها وعمق تأثيرها .

وأما الأفكار فهى مبثوثة فى ثنايا الرواية من أولها إلى آخرها ، أفكار فى الفلسفة ، وما وراء الطبيعة ، والفن ، والعلم ، والاجتماع ، والدين ، وفى أغلب مجالات الحياة – كل ذلك بمقاييس العصر ومفهوماته بل وتعبيراته أيضاً . إن أبوليوس (الجحش) يرصد كل حركة مما يصادفه ويترصد كل ظاهرة من الظواهر تقابله ، ويصف بأسلوبه البارع كل شئ تقع عليه عينه – أو لا تقع ، وهذه ميزة مؤلفنا الخارقة ، تلك الدقة العجيبة فى الوصول إلى أعماق الحدث أو الشئ ، وذلك التفصيل الممتع للجزئيات والقدرة على أن يجعل قارئه «يعيش» معه كأنه يرى ما يصف . يتساوى الأمر لديه حين يصف مرجاً خصيباً ، أو يقدم نموذجاً نفسيّاً أو موقفاً عاطفياً ، أو يحلل دوافع السلوك البشرى فى أمر من الأمور ، متخذاً من تحوله السحرى ستاراً يعرض من ورائه أفكاره وآراءه فى ما حوله آنذاك .

هذه الأفكار والآراء ، فى جملتها هى ما كانت تروج بين الناس يومئذ ، وعلى هذا الأساس ينبغى النظر إليها ، بتحديد عصرها وظروفها التاريخية المعروفة ، فالحديث عن آلهة متعددين مثلاً وتصوير تصرفاتهم دون حرج ، بل والسخرية من بعضهم ، كان أمراً عادياً جداً . كما أن تبجيل بعضهم الآخر - مثل الربة إيزيس عند مؤلفنا - على أساس العبادة لهم كان مسألة لا غبار عليها يومها ، وعلى كل حال فإنه لا ينتظر من رجل عاش قبل ألف وثمانمائة من السنين أن يفكر فى القضايا الدينية خاصة بالطريقة ذاتها التى نفكر نحن بها اليوم . لكن يلاحظ فيما عدا هذا ، أن أبوليوس كان إنساناً ربما سبق عصره فى التعبير عن المآسى البشرية وآلامها ، حين يصف عمال الطاحونة مثلاً أو بؤس الزوج الفقير المخدوع ، وما شابهها مما ستقرأه بعد .

كان عرض أبوليوس للأحداث صريحاً فى بعض المواقف صراحة تخدش الحياء ، لا يتحرج أن يبلغ فى عرضه مبلغ ما يسمى «الأدب المكشوف» فتجاوزت عن بعض الفقرات يلحظها القارئ فى موطنها ، وتصرفت فى بعض الجمل بما لا يؤثر فى سياق الرواية ، وهى قليلة جداً ، وأزلت عنها بعض الشوائب التى لا تتفق مع تقاليد الكتاب العربى .

وبعد ..

فهذه رواية «الجحش الذهبى» أقدمها لك باللغة العربية بعد أن استمتعت بها مرات فى نصها الانكليزى ، أردت أن أشركك معى فى متعة القراءة والنظر ، وأرجو أن أكون وفقت .

فلتمض الآن فى قراءتك .. ولك أن تستمتع كما شئت !

هاى غيت - لندن
يونيو 1979م

د. على فهمى خشيم

الفصل الأول

حكاية أريستومنيس

فى يوم من الأيام أخذنى داعى العمل إلى ثساليا ، منشأ أهل والدتى ، فأنا بالمناسبة أمتاز بصلة النسب ، عن طريق أمى ، إلى بلوتارخ الشهير . وبعد أن اجتزت ذات صباح سلسلة تلال مرتفعة على صهوة جوادى ، هابطاً سبيلاً منحدراً ، مخترقاً المراعى الندية والأرض المحروثة الريانة ، أخذ جوادى الثسالى الأبيض الأصيل يلهث ويبطئ من خطواته . كنت أنا أيضاً أحس بالتعب بعد جلوسى الطويل مشدوداً إلى السرج ، فترجلت من فوق ظهره وشرعت أمسح جبهته الناضحة بالعرق بحفنة من أوراق الشجر ، ثم ربت على أذنيه وارخيت له العنان وطفقت احاذيه راجلاً لكى يرتاح ويسترجع انفاسه . وبينما بدأ جوادى فى تناول إفطاره ، ملتهماً ملء فمه عشباً من أحد جانبى الطريق عبر المروج ، لمحت رجلين يدبان متحاذيين على مسافة قريبة قدامى وهما مستغرقان فى الحديث . حثثت خطاى يدفعنى الفضول لمعرفة ما كانا يتحدثان عنه ، وما أن قاربتهما حتى انفجر احدهما فى ضحكة عالية قائلاً للآخر : «كفى .. كفى ! لاتزد كلمة أخرى! لاقبل لى بسماع كذبة واحدة أخرى من أكاذيبك الفظيعة !» .

كان هذا بشارة بشىء جديد . فخاطبت راوى القصة قائلاً : «أرجو الا تحسبنى فضولياً أو مجرداً من الحياء يا سيدى . لكننى دائم الرغبة فى أن ازداد تعلماً ، وقليل جداً من الموضوعات لا يجذب اهتمامى . سأكون شاكراً لك أكبر الشكر لو تفضلت بالعودة إلى بداية قصتك وسردتها لى

عن آخرها ، إذ يبدو انها ستعينني على صعود التل أمامنا هانئ البال» .

مضى الرجل الذى ضحك من قبل يقول: «لا أريد شيئاً من ذلك الهراء. أتسمع ؟ يمكنك أيضاً أن تقول إن السحر قادر على أن يجعل الأنهار تجرى القهقرى ، أو يجمد المحيط ، أو يوقف الرياح ، أو يسمّر الشمس فى كبد السماء ، أو يجعل القمر يقطر ندى ساماً ، أو يحيد الأنجم عن مداراتها. بل لعله يمكنك القول إن النهار قد يُمحق بالسحر ويستبدل بليل سرمدى ! » .

فأصررت على موقفى قائلاً : «كلا يا سيدى .. لا يصدنك هذا . أكمل قصتك . أرجوك أن تكملها - اللهم إلا إذا كنت أطلب منك أكثر مما ينبغى» ثم التفت إلى الرجل الثانى وقلت : «أما أنت يا سيدى .. أواثق أنه ليس الغباء الطبيعى أو العناد الموروث هو الذى يمنعك من إدراك حقيقة ما كان صاحبك يحاول أن ينبئك به ؟ إن الأغبياء من البشر هم الذين لا يصدقون ما يحدث نادراً أو لا تستطيع عقولهم إدراكه . ومع ذلك .. إذا فُحصت هذه الأمور بدقة وجُد فى الغالب أنها ليست محتملة فحسب بل هى مرجحة ايضاً . قل لى مثلاً ، ما هو تفسيرك لما حدث لى ؟ لقد تحدانى البارحة بعضهم عند العشاء على مائدته لأسابقه فى التهام الطعام . وقد حاولت أن ازدراد ملء فمى جبناً . كانت قطعة الجبن من الرخاوة والنعومة بحيث انحشرت فى منتصف حلقى فسدت قصبتى الهوائية وكدت اقضى اختناقاً ، بينما شاهدت قبلها بأيام فى أثينا أحد المشعوذين يبتلع بالفعل سيفاً مرهفاً مبتدئاً من طرفه ، ثم جمع قطعاً قليلة من المال من المتفرجين، وابتلع بعدها رمح صيد بالطريقة ذاتها . وقد راقبناه يميل رأسه إلى الوراء ومقبض الرمح بارز خارج حلقومه . وفى هذه الأثناء ، صدق أو لا تصدق، شرع صبى مليح فى الالتفاف حول ذلك المقبض بحركات بهلوانية حتى لتظننه الافعى الملكية ملتفة حول هراوة الزيتون المنزوعة الأوراق تلك التى يحملها إله الطب . وقد بدأ الصبى وكأن جسده خال تماماً من العظام والعضلات ،

ثم التفت كـرةً أخرى إلى الرجل الأول وأضفت : «هيا يا سيدى .. بادرنى بحكاياتك . عهدٌ عليّ ألا أُصدقها فحسب ، حتى وإن كذبها صاحبك ، بل أن ابدى لك امتنانى للطفك بأن أدعوك إلى وجبة عند اقرب خان» .

قـال الرجل : «اشكرك جـزيل الشكـر على عـرضك الكريم . بيـد انى لست فى حـاجة الى جزاء لأنبـئك بقصـتى وكل كلمة فـيهـا - واقسم لك بالشـمس التى ترى كل شئ - صادقـة كل الصدق ولن تحـتاج أصـيل هذا اليوم حين نبلغ هوباتا ، اهم مدن تساليا ، إلى أن تكون فى ريب من صدقها فـالناس جمـيعـاً هناك يعرفـون قـصة مـا حدث لى ، إذ لم تكن بحـال من الأحوال مسـألة شخصيـة كما ترى . يجب أن أبدأ بتعريـف نفسى ، اسمى ومهنتى ومـا اليهـما . انا من أجينيـا ، اعمل بتجـارة المواد الغذائيـة بالجملة وانتقل باستمرار على طول تساليا وعرضها وكذلك ايتوليا وبويتيا . اشترى العـسل والجبن وما شـاكلهـما من البـضاعـة - اسـمى اريستـومنيس - فى خدمتك ! جـاءتنى الأخبار ذات يوم فى هوباتا بأن كمـية كبيـرة من بواكير الجبن معروضـة هناك بثمن مغرٍ للغـاية ، فأسرعت منطلقاً اليـها فى الحال . لكن - وكما يحدث غـالباً فى ميدان التجارة - جـانب رحلتى التوفيق ، إذ وجدت بمجرد وصولى أن رجلاً أخر يدعى لوبوس ، وهو تاجر كبير ، ابتاع كل ما فى السوق قبل وصـولى بيوم واحد ، فقصدت من فـورى الحمامات العمومية لأجـد ، لدهشتى ، صديقى القديم سقراط . عرفتـه بصعوبة ، فقد بدا شاحباً ونحيفاً بشكل مـزرٍ جالساً على الأرض نصف كاسٍ بعباءة قذرة رثة مندرسة ، كأنه بالضبط شحاذ على قارعة الطريق . وعلى الرغم من اننا كنا ذات يوم صديقين حميمين فقد ترددت قليلاً قبل أن احييه .

«يا سلام .. يا عزيزى سقراط !» قلت له أخيراً «هلا أنبأتنى ما معنى هذا كله ؟ لِمَ انت قـاعد هنا بهذه الحـالة المزرية ؟ هل ارتكبت جرمـاً؟ ألا تعلم انك تعتـبر ، رسمـياً ، فى عداد الأمـوات وأن أهلك بكوك وودعوك الوداعَ

الأخيـر ؟ أطفالك الآن تحت وصاية مـحكمة المقاطعـة ، وزوجتك المسكينة التى كـادت تعـمى من البكاء عليك يحـثـهـا أبواها على الزواج ثانيـة لتلم شتات الأسـرة من جديد، وها أنت الآن تظهر كـالشبح ! حقيـقة .. هذا أمر مزعج» .

فأجاب : «اوه يا اريستومنيس ! لو دريت ما تستطيع ربة الحظ أن تلاعب به إنساناً من خدع بالفة السوء لما خاطبتنى أبداً كـما فعلت» ثم احمر وجهه وجذب الخرق على وجهه مما أدى إلى أن ينكشف نصف جسده الأسفل من السرة فما تحتها .

لم أعد احتمل أكثر مما فعلت ، فأمسكت به وحاولت شده فوق الأرض غيـر انه قـاومنى وغمـغم : «دعنى وشأنى ... دعنى وشـأنى ! دع ربة الحظ تسلك سبيلها وتستمتع بانتصـارها على بقد ما يرضيها» واخيراً وعد ، على كل حـال ، بأن يأتى مـعى . فـأخذت أحـد الثـوبين اللذين كنت ارتديـهمـا وكسـوته اياه ، ثم اسرعت به إلى حمـام خاص حيث دعكته جيداً ونزعت من فوق جسده طبقات عـدة من القذر . ورغم تعبى أنا وإجهادى استطعت آخر الأمر أن أجَره معى إلى الخـان الذى كنت انزله حيث مددته على فراش وقـدمت له طعامـاً وفيـراً وخمـراً كثيـراً وآخر أخـبار الوطن . وبعـد قليل انفرجت أساريره وبـدأنا نضحك ونمرح سوياً فى صخب عـال . فجأة أطلق تنهيده عميـقة وخبط جبينه بقبضتيه وصـرخ : «آه ما أشقانى ! بدأت المسألة كلها برغبتى فى مشاهدة عرض المصارعة الذى كثر عنه الحديث بالقرب من لاريسا . كنت ذهبت إلى مقدونيا فى عمل ، كما قد تعرف ، وكنت آيباً إلى بلدى بعد غـيبـة عشرة شـهور أحمل مـعى مبلغـاً كبيـراً من المال حين قطع اللصوص عليّ الـطريق ، قبيل وصـولى لاريسا ، فى واد مـوحش وسلبونى كل شئ بالفـعل ما عدا حـياتى ، وتمكنت فى النهـاية أن أفلت منهم وبلغت هذه البلدة فى آخر رمق . وهنا قـصدت خاناً تديره امرأة تدعى مـيروى . لم

تكن صغيرة السن لكنها كانت بالغة الجاذبية وحين اخبرتها بقصتى المحزنة وبينت شوقى للعودة إلى وطنى بعد طول غيابى تظاهرت بعطف بالغ ، وطهت لى عشاءً فاخراً رفضت أن تقبض عنه ثمناً ، ثم دفعتنى للنوم معها . ومنذ اللحظة الأولى التى صعدت فيها إلى فراشها تعطل عقلى وانهارت إرادتى .وكنت أعطيها كل ما أحصل عليه من نقود عن طريق حمل الأمتعة ما كنت قادراً على العمل ، فلما اشتد ضعفى قدمت لها الثياب التى تركها لى اللصوص الطيبون لأستر بها عورتى . وها أنت ترى الحال التى قادنى اليها الحظ العاثر وامرأة جميلة» .

«يا الهى !» قلت «تستحق هذا كله وأكثر لوأمكن ، إذ هجرت بيتك وأولادك وجعلت من نفسك عبداً لكلبة عجوز كهذه» .

فصاح «صه .. صه» وسبابته على شفتيه وهو يتلفت من حوله خشية أن يكون سمعنا أحد «لاتقل شيئاً يسئ إلى تلك المرأة الرائعة والا أهلكك لسانك» .

«حقا ؟!» قلت «إذن أى نوع من أصحاب الخانات هى؟ .

من أسلوب كلامك قد يحسبها السامع امبراطورة مطلقة السلطة تمتلك قوى خارقة» .

فأجاب فى نغمة توقير كاملة : «أقول لك يا اريستومنيس ، إن سيدتى ميروى قادرة ، لو شاءت ، أن تنزل السماء أو ترفع الأرض ، أن توقف النهر الجارى أو تفتت الجبل الصخرى ، أن تبعث أجداث الموتى أو تطوح بالأرباب من فوق عروشها ، أن تطفئ الأنجم الساطعة أو تضىء أرض الظلال المظلمة» .

«هيا .. هيا يا سقراط . هذه لغة المسرح ! ارخ الستارة بحق السماء وارو لى القصة بكلمات واضحة» .

أجاب : «هل يقنعك مثلٌ واحد فحسب بما لديها من سلطان ؟ أو لعلك تبغى مثلين أو أكثر ؟ أم أحدثك عن قدرتها على ايقاع الرجال فى حبها اللاهب – ليس اليونانيون فحسب ، بل الهنود والمصريون الشرقيون والغربيون ، بل حتى إن شاءت أهل أنتبوديس الأسطوريون . هذه عينة صغيرة ليس غير عن قواها الخارقة . إن ترد سماع أعاجيب أكبر قدمتها أمام شهود عدول فسوف أذكر بعضاً منها . حسن ..

أولاً : جرؤ أحد عشاقها على معاشرة أمرأة أخرى ، فلم تفعل سوى أن تمتمت بكلمة واحدة فإذ به يتحول إلى قندس» .

«لماذا إلى قندس بالذات؟»

«لأن القندس إذا ما باغته الطراد قضم خصيتيه وألقاهما على ضفة النهر ليبعد عنه كلاب الصيد وقد رمت ميروى إلى أن يحدث لعشيقها هذا الأمر. ثم هناك صاحب الخان العجوز ، جارها ومنافسها ، الذى مسخته إلى ضفدعة . وها هو العجوز التعيس يعوم الآن فى خابية من خوابى خمره ، أو يدفن نفسه فى رواسبه وهو ينق بصوت غليظ موقظاً زبائنه : قوموا ! قوموا! ثم المحامى الذى رغب فى مقاضاتها ، كان عقابه قرنى كبش ، وتستطيع الآن أن تراه أى يوم فى ساحة المحكمة يثغو بقضيته ويلقى بمرافعاته البليغة ، والقرنان الفظيعان يبرزان ملويين من جبهته . وأخيراً .. عندما تحدثت عنها زوجة أحد عشاقها بسوء عاقبتها ميروى بحمل سرمدى بأن القت على بطنها سحراً منع الطفل من أن يولد . كان هذا منذ حوالى ثمانى سنوات ، والمرأة البائسة تنتفخ شهراً بعد شهر حتى لتعتقد بأنها على وشك أن تضع فيلاً صغيراً !» .

«لكن متى عرف الجميع هذه الأشياء ؟» .

«كان هناك اجتماع سخط عام تقرر فيه رجمها بالحجارة فى اليوم التالى

حتى الموت . وكانت فُضلة هذا اليوم الواحد كافية لميروى ، تماماً كما كانت كافية بالنسبة لميديا حين أمرها الملك كريون بمغادرة كورنثه . تذكر أن ميديا اشعلت النار فى تاج عروس من خدعها ، فشبت النار فى القصر حالاً وماتت العروس الجديدة وكريون نفسه احتراقاً . أما ميروى - كما اسرت إلى وهى سكرانة فى صباح اليوم التالى - فقد حفرت خندقاً والقت عليه بعض التعاويذ وعن طريق قوة الأرواح الظلمانية التى استحضرتها طلسمت مداخل وأبواب كل بيت فى هوباتا ، ولمدة ثمان واربعين ساعة لم يستطع أحد أن يخرج إلى الطريق حتى ولو بحفر نفق فى جدار البيت . وفى النهاية كان على أهل المدينة كلها أن يضرعوا اليها من خلال النوافذ آخذين عهداً على أنفسهم ألا يكدروا صفوها مطلقاً إن اطلقت سراحهم ، بل على العكس يدفعون عنها كل اذى . ثم رقت لحالهم وابطلت اثر السحر ، بيد انها انتقمت من زعيم الاجتماع بأن طوحت سكنه فى منتصف الليل الجدران والأرضيات والأسس برمتها وهو نفسه داخل داره - إلى بلدة تبعد مائة ميل ، تقع على تل لا ماء فيه ، يعتمد أهلها على ماء المطر فى كل غرض ، وكانت مبانيها شديدة التلاصق حتى لم يكن ثم موقع لوضع المنزل فيه ، فأمرت بأن يلقى به خارج أسوار البلدة» .

«عزيزى سقراط» قلت «هذه فى الحق حكايات رائعة جداً ، ومفزعة جداً بكل تأكيد ، وقد بدأ الخوف يتسرب إلى نفسى . بل الحقيقة اننى خائف فعلاً . لنفرض أن الأرواح الشريرة اخبرت حيزبونك بكل ما كنا نقوله ؟! ما رأيك فى النوم الآن ؟ إن الليل لايزال فى أوله ولنا أن نرحل مبكرين صباح الغد، ونبتعد عن هذا الجحر الملعون بقدر ما تأخذنا أقدامنا».

وفيما كنت اتكلم استغرق سقراط البائس فى النوم فجأة وبدأ شخيره يعلو ، وكان هذا أثراً طبيعياً لوجبة دسمة وقدر كبير من الخمر فى رجل بمثل حالته المنهكة . فأقفلت باب غرفة النوم واوصدته ، ودفعت برأس

سريرى نحـو المفصل ، ونفضت الفراش ثم تمددت . لم اسـتطع النوم لبرهة بسبـب قصص سقـراط المتهـورة . وحوالى منتـصف الليل ، وكان الـنعاس سيطـر على أجفانى بـراحة ، صحـوت على صوت كـسر مـفاجئ وانفـتاح الباب بقوة اكبر من لو أن مـجموعة لصوص داهمته بأكتـافها . انفتح القفل والرتاج والمعـاليق كلها دفـعة واحـدة وارتفـع سريرى المتآكـل ، والذى كان اقـصر من قـامـتى وذا رجل مكسـورة ، فى الهواء ووقع رأسـاً على عـقب جاثماً على وأنا من تحته .

الانفـعالات حـالات مـتناقـضة ، تعـرف أن المرء يبكى من اثـر الفرحـة الطاغية . حسن .. بعد هذه الصحوة المرعبة وجدتنى اقهقه واضاحك نفسى قائلاً : «يا سلام .. يا اريستومنيس . لقـد مسخت سلحفاة !» ورغم طرحى ارضـاً احسـست بالأمـان تحت السرير ، فـأخـرجت رأسى من جـانبه مـثل سلحفـاة تتلصص من تحت درقتـها لأرى ما سـيحدث بعـدئذ . وفى الحال دخلت عجـوزان فظيعـتان تحمل إحـداهما شـعلة موقدة فـى يدها، وتحمل الأخرى اسفنجة وسيفاً مصلتاً . وقفتا عند رأس سقراط ، الذى كان لا يزال مستغـرقاً فى نومه ، وقالت ذات السيف للأخرى : «انظرى يا اختـى بانثيا ! ها هو الرجل الذى اختـرت أن يكون حبيـبى - تنازلت كما اخـتارت الربة ديانا الراعى اندميون أو كما اختار جوبتير غانوميد الوسيم الصغير . وكم ذا امتعته كذلك ! غير انه لم يرد هواى الطفلى بمثله بل خدعنى بالليل والنهار. وها انذا اضبطـه لا ناشراً الأقاويل عنى فـحسب بل مـخططاً للفرار فـعلاً ! هل يظن نفسـه اوديسيوس ويتوقع منى أن أولول وانتـحب مثل كاليبـسو لما استيقظت والفت نفسها وحـيدة على جزيرتها ؟!» ثم أشارت إليّ وقالت : «وهذا المخلوق المبرز رأسه من تحت السريـر هو اريستومنيس الذى قاده إلى سوء السلوك . إن حسب أنه سينجو منى فقـد اقترف غلطة عمره . سأجعله يندم ، ولات ساعة مندم ، على كل ما قـاله عنى من قبائح وإهانات فى أول

هذه الليلة وعلى تدخله فى ما لا يعنيه» .

نضح من جسدى عرق بارد ، وصرت ارتعد بعنف ، حتى جعلت رعدتى السرير يهتز ويتراقص من فوقى . لكن بانثيا قالت لميروى (لايمكن إلا أن تكون ميروى) : «هل نقطعه إربا فى التو يا اختاه ، أم نعلقه من عقبيه فى السقف ونتركه يتأرجح ونفعل به بعدها ما نشاء؟» .

«كلا .. كلا يا عزيزتى . لا شئ من هذا . دعيه قليلاً إن حبيبى سقراط يحتاج غداً إلى من يحفر له قبراً فى مكان ما» ثم أدارت رأس سقراط على الوسادة ، وهى ماضية فى كلامها ورأيتها تغرز السيف حتى مقبضه فى جانب عنقه الأيسر . تفجر الدم ، وكان لديها وعاء صغير مهيأ احتوى كل قطرة تحدرت من دمه . كانت حنجرة سقراط قد حزت ، بيد أنه أطلق ما يشبه الصرخة ،أو لعلها غرغرة غير واضحة ، ثم همد . ولكى تكمل شعائر القربان بما كان عادتها ، فيما أظن ، دفعت تلك المرأة الساحرة يدها من خلال الجرح عميقاً فى جسد صاحبى المسكين، وجالت بها فيه ، ثم أخرجت قلبه ، غير أن بانثيا أخذت الاسفنجة منها وأوقفت بها الجرح عن النزيف وهى تهمهم :

«اسفنجة .. يا اسنفجة

المأخوذة من ماء البحر ..

لا تمضى أبداً أبداً

من فوق النهر !»

ثم عبرتا الغرفة نحوى ، ورفعتا السرير ، وأوقعتا فوقى وبالتا فى وجهى. بعدها تركتانى ، وما أن عبرتا عتبة الغرفة حتى ارتفع الباب من تلقاء نفسه ، وكذلك الرتاج والقفل والروافد بطريقة عجيبة وثبت كل منها نفسه فى مكانه الأصلى .

تمددت على الأرض عرياناً اصطفق برداً ، يعمنى البول الكريه. «لابد أن الوليد يشعر بما أشعر به الآن !» هكذا قلت لنفسى «ولكن ما أبعد الفرق بيننا ! حياتى كلها من ورائى ، لا من أمامى . نعم .. أنا فى حكم الميت - مثل مجرم فى طريقه إلى الصلب . إذ ماذا سيحدث لى صباح الغد حين يعثرون على جثة سقراط مقطوع الحلق ؟ ما من أحد سيصدق روايتى . سيقولون : كان عليك أن تصيح فى طلب النجدة على الأقل إن لم تكن قادراً على مقارعة النساء . رجل ضخم شديد مثلك يسمح بحز عنق صديقه أمام ناظريه ولا ينبس ببنت شفة ؟! وسيقولون : كيف تفسر بقاءك أنت ذاتك على قيد الحياة ؟ لماذا لم تقتلاك باعتبارك شاهداً على الجريمة للقضاء على كل دليل ضدهما ؟ إن عقابك على بقائك حياً لتروى الحادثة هو الموت !» وكان عقلى يدور حول ما بدا لى آنذاك سلسلة من التعليلات بعد الموت للأفعال . وكان الليل وقتها قارب على نهايته ، فقررت آخر الأمر أن أتسلل من الخان قبل ابنلاح الفجر وألوذ بالفرار . أخذت صرة متاعى وجذبت رتاج الباب وأولجت المفتاح فى القفل ، غير أن الباب العجوز الأمين الذى انفتح منذ قليل من تلقاء نفسه ليسمح لعدوتى بالدخول ، أبى أن يأذن لى بالخروج ، حتى أدرت المفتاح عشرين مرة يمنةً ويسرةً ، وأنا أصارع مقبض الباب . فلما خرجت إلى باحة الخان صحت : «هيه ! أيها البواب .. أين أنت ؟ افتح البوابة - أريد الخروج قبل طلوع النهار» .

كان البواب يتمدد عارياً على الأرض بجانب البوابة فأجابنى والنوم يغالبه : «ألا تدرى - كائناً من كنت - أن الطرق تعج بقطاعها ؟ لعلك متعب من الحياة ، أو لعل ضميرك يؤنبك على جريمة من الجرائم . لكن لا تظنن أننى غبى بليد لأخاطر بحياتى فى سبيلك فأفتح لهم البوابة وأدعهم يدخلون» .

اعترضت قائلاً : «لكن الصبح يكاد أن يظهر . وعلى كل حال ، أى

ضـرر . يمكن للصـوص إلحـاقه بك ؟ أحسـبك غـبياً بالـتأكـيـد إن كنت تخشـاهـم. إن عشـرة من المصارعين المحتـرفين لا يستطيـعون نوال شئ ذى قيمة من رجل عارٍ كما انت» .

فقـبع البواب ، ثم انقلب على جانبـه الأخر وسألنى بصـوت دائخ : «ما أدرانى أنك لم تقتل الرجل الذى جئت به مساء أمس وانت تلوذ بالفرار فى هذه الساعة الجهنمية ؟» .

ولن أنسى أبداً شعـورى عندما قال هذا . رأيت الجـحيم فاغـراً فاهه لى والكلب ذا الرؤس الثلاثة يزوم جـائعاً . كنت مقتنعاً بأن امـتناع ميروى عن حز عنقى إنما كان لنيتها أن ترانى أموت مصلوباً . فقفلت راجعاً إلى غرفتى عازماً على قتل نفسى بطريقتى الخاصة . لكن كيف لى بهذا ؟ كان عليّ أن أطلب العـون من سريرى ، فـشرعت أخـاطبـه متـملقاً : «! إصغ إليّ أيهـا السرير ، أيها السرير الصغـير ، الصديق الحق الوحيد الذى بقى لى فى هذه الدنيا القاسية ، زميل العناء والشاهد الوحيد على براءتى ، اتضرع اليك أيها السـرير أن تمدنى بأداة نظيـفة كـاملة تخلصنى من شـقـائى .. فأنا فى أشـد الشـوق إلى الموت أيها السـرير العزيز !» ثم أخـذت جزءاً من الحـبل الذى يشـد السرير وأنا أتوقع رده عليّ ، وربـطت أحد طرفـيه بخـشبـة بارزة فى السقف فـوق النافذة وعقدت الطرف الآخـر على هيئة مـشنقة . ثم علوت السرير ، ووضعت عنقى فى الحبل المعقود ورفست السرير بقدمى .

كانت محـاولتى الانتحار محاولة فـاشلة ، فقد كان الحبل عـتيقاً ومفـتتاً فانقطع تحت وطأة ثقلى . هويت على الأرض متعثراً وتدحرجت وأنا ألهث متحـشرج الأنفاس نحو جسم سقراط الذى كان مـتمدداً على فراشـه غير بعيـد . وفى تلك اللحظة دخل البواب وهو يصـيح : «هيه .. أنت ! أنت يا من كنت منذ لحظة تعـارك للخروج فى سـرعة خـارقة ، ماذا تفـعل هناك ، تتمرغ كالخنزير وتتقلب على الفراش ؟!» .

قبل أن أتمكن من الجواب قفز سقراط كما لو أنه أوقظ بغته ، وليس واضحاً إن كانت يقظته نتيجة سقوطى أم صوت البواب الغليظ ، وقال بعبوس : «طالما سمعت المسافرين يلعنون البوابين وأساليبهم الفظة ، وأقسم أن لهم كل الحق فى ذلك ، لقد كنت مرهقاً وها هوذا الملعون يدخل الغرفة ويصيح بنا - بنية سرقة شئ ما فى غمرة غفلتنا بالتأكيد - ويفسد أعمق نوم ذقته منذ شهور» .

عند سماعى صوت سقراط قفزت طرباً وارتياحاً وأنا أصيح : «كلا .. كلا ! أنت خير بواب فى الدنيا الواسعة كلها وأنت أمين كالنهار ! لكن .. أنظر ، أنظر ! ها هو الرجل الذى اتهمنى منذ قليل فى غمرة دوخة سكره بأننى اغتلتك - صديقى الذى أحبه حب الوالد أو الأخ الشقيق» . ثم احتضنت سقراط وقبلته ، بيد انه ما لبث أن دفعنى بشدة قائلاً : «أووف ! إنك عفن كقعر كنيف !» وشرع يلقى آراءه غير اللطيفة عن سبب حالتى تلك . وفى غمرة اضطرابى اختلقت له عذراً من الأعذار - نسيت ماذا كان - وغيرت مجرى الحديث بأسرع ما أمكن . ثم قبضت على يده وصرخت : «ماذا تنتظر ؟ لِمَ لا ننطلق حالاً ونستمتع بصفاء جو الصباح الباكر؟» فنفّ سقراط قائلاً : «لم لا ؟» وضعت صرة متاعى على كتفى مرة أخرى ودفعت نفقة مبيتنا للبواب ، وبعد قليل كنت وسقراط فى الطريق .

عندما ابتعدنا عن البلدة بمسافة قصيرة ، وبدت الحقول أمامنا واضحة فى الشمس المشرقة ، ألقيت نظرة طويلة أتملى فيها عنق سقراط لأرى مكان انغراز السيف . لكن شيئاً لم يبد لى ففكرت : «ها هو سقراط فى تمام العافية كما عهدته ولاخدش به . لاجرح ، لا اسفنجة ، ولا حتى نغزة تظهر أين أغمد السيف منذ ساعتين مضتا فحسب . ياله من حلم مدهش كأنه حقيقة ! كان جنوناً منى أن أفرط فى الشراب» . ثم رفعت صوتى : «الأطباء على صواب . إن أنت ملأت معدتك ليلاً وغمرتها بالشراب لابد أن تأتيك

الكوابيس . ذلك سبب نـومى المضطرب البارحة بعـد احتفـالنا ، لقد رأيت حلماً مرعباً لا أزال أشعر معه أننى ملطخ بالدم» .

ضحك سـقراط : «دم .. فعـلاً !! الحقيقـة المجردة أنك غمـرت سريرك ولاتزال الرائحـة تفـوح منك ! لكننى أتفق مـعك فى سـبب الكوابيس . أنا نفسى جـاءنى حلم فظيع الليلة البـارحة أتذكره الآن . حلمـت بأن حلقومى قطع وشـعـرت بكل أحاسـيس عـذاب الجرح ، ثـم استـخـرج شخص مـا فؤادي، وهى تجربة لا يمكن وصفها يجعلنى مـجرد تذكرها مريضاً . قدماى ترتعشان جداً الآن يجب على الجلوس . هل لديك شئ يؤكل ؟»

فـتحـت مزودى وأخـذت منه شـيـئاً مـن الجبن والخبـز : «مـا رأيك فى الإفطار هناك تحت شـجـرة الصنوبر الكبـيرة تلك ؟» هكذا سـألتـه حينمـا اتخذنا مـجلسناً معاً لاحظت أن مظهـر العافيـة عليه قد تلاشي وأن وجـهه رغم أكله بضـراوة ، كان يتـحول إلى لون شـجر البـقس . ولابد أننى كنت أبدو شاحـباً أنا الآخر ، إذ تملكت رؤية تينك الـغولتين الرهيـبـتين عقلى من جديد وعاد إليه رعب الليلة الفائتة كله فجـأة . تناولت قضمة من الخبز غير انها احتبست فى حلقى ولم استطع بلعـها أو إخراجها من فمى . كان قلقى يزداد شيئاً فـشيئاً . هل سيعيش سـقراط ؟ فى تلك الأثناء كان بعض الناس يمرون غير بـعيد ، وحين يسافر رجـلان معاً ويموت إحدهمـا بشكل غامض على قارعـة الطريق فطبيـعى أن يحيق الشك بالآخـر . تناول سقراط وجبة ضخـمة ، كمـية هائلة من الخـبز وقطعة كـاملة تقريبـاً من الجبن ثم ذكر أنه عطشان . على بـعد خطوات ، مجـانباً الطريق ، كـان جدول يجري رقـراقاً ماراً بجذور شجـرة الصنوبر . كان لامعاً كالفضة ، صافـياً كالبلور . ساكناً كالبحيرة الصغيرة . «هلم هنا يا سقراط» قلت : «هذا يبدو أفضل من اللبن. إرتوِ منه» .

ومشى على حـافة الجدول حتى ألفى مكـاناً يناسبه ، فجـثا على ركبتيه

وأحنى رأسه إلى الأمام ثم شرع يكرع الماء بنهم ، بيد انه ما كادت شفتاه تلامسان الماء حتى انفتح جرح عنقه على سعته وسقطت الاسفنجة فى الماء تتبعها شرة صغيرة من الدم . كان سيقع بعدها لو لم أمسك بإحدى قدميه وأجره إلى أعلى الضفة ، وحين وضعته هناك كان قد فارق الحياة .

فى عجلة من أمرى حفرت التربة الرملية وأودعته مثواه الأخير ، هناك عند جانب الجدول . ثم طفقت أعدو عبر الحقول مرتعداً يغمرنى عرق الخوف ، وأنا أغير من اتجاهى باستمرار ، متعثراً مرة بعد مرة ، متجهاً دائماً إلى أكثر المواقع وحشة وخلاء ...

لم أعد أبداً إلى أيجينا . وبضمير مضطرب كضمير أى قاتل هجرت عملى وبيتى وزوجتى وأولادى ، ونفيت نفسى إلى أيتوليا حيث تزوجت مرة أخرى .

كانت تلك نهاية قصة أريستومنيس ، وقد علق صاحبه الذى رفض منذ البداية بعناد أن يصدق كلمة واحدة منها فى الحال قائلاً : «حسن . الحق أننى لم أسمع أبداً طيلة حياتى كلها مثل هذه الأباطيل الخرافية تروى دفعة واحدة . هذه أسوأ حتى من القصص التى يرويها الكهنة ، أحكم من ثيابك ومظهرك العام أنك رجل متعلم، وأنت بالتأكيد لم تصدق كلمة مما حكى .»

أجبته : «أرفض نظرياً ، التسليم بأن أى شئ فى هذه العالم مستحيل . إن يفعل المرء هذا يضع نفسه فوق (القوة) التى تقرر التجربة الإنسانية كلها، أما عملياً فإن أموراً تحدث لك ولى أحياناً ولكل امرئ آخر ، هى من الغرابة بحيث لا نكاد نصدقها نحن أنفسنا ، ويرفضها بالتأكيد أى شخص عادى باعتبارها نسج الخيال ، وفى الحقيقة أنا أصدق فعلاً حكاية أريستومنيس ، وإنى لشاكر له كل الشكر أنه أمتعنى بها تماماً ، حتى أننى لم أحس بوعورة التل وصعوبة ارتقائه . أنظر هناك ، لابد أن تلك هى بوابات المدينة ! يكاد

يبدو لى من المستحيل أننى وصلت هنا بهذه السهولة ، ليس على صهوة جواد بل مشدوداً من أذنى الأثنتين ! إن جوادى ، بالتأكيد ، يثنى على شكرى بامتنان ، فقد خلصه أريستومنيس من خب طويل مرهق » .

وهنا افترق طريقانا . انحرف الرجلان قاصدين مجموعة بيوت على يسار الطريق ، وتابعت أنا طريقى قدماً ♦

الفصل الثانى

فى بيت ميلو

طرقت باب أول خان رأيته ، ففتحته امرأة عجوز بادرتها قائلاً : «يومك سعيد يا أمى ! هل هذه بلدة هوباتا ؟» فهزت رأسها دون كلام . «أتعرفين رجلاً يدعى ميلو ، أحد أعيان البلدة ؟» فأجابت عابسة : «حسن . يمكنك أن تدعوه كذلك ، فيما أظن ، لأن بيته أول بيت تبلغه . مبنى فى الخلاء ، خارج أسوار المدينة حيث تؤخذ العلامات الرسمية» .

«لندع الدعابة جانباً . هل تسمحين بتعريفى أى رجل هو وأن تدلينى كيف الوصول إلى بيته ؟»

«هل ترى ذلك الصف الأخير من النوافذ المطلة على المدينة ، وبوابة على الجانب الآخر تؤدى إلى طريق مسدود ؟ هناك يعيش ميلو - عجوز مفرط الغنى وسبّة فى جبين المدينة - أحقر وأبخل وأقذر رجل رأيته . هو مراب - الربا الفاحش أهم ما يهمه فى الحياة - يعيش داخل ذلك البيت الكبيرِ الخالى من الأثاث مقفلاً عليه يحّدق طيلة اليوم فى أكداس ماله ، لا أحد يعيش معه سوى زوجته السيئة الحظ وجارية واحدة . وإذا ما خرج من بيته يوماً ، ونادراً ما يفعل ، لبس ثياباً كأحد الشحاذين» .

فلما انطلقت من عند العجوز ضحكت لنفسى قائلاً : «لقد زودنى صديقى ديمياس بكتاب تقديم ممتاز بكل تأكيد ، فلن أخشى فى أثناء إقامتى مع ميلو على الأقل من دخان النار أو روائح المطبخ النفاذة !» وسرعان ما بلغت البوابة التى أشارت إليها العجوز ووجدتها محكمة الإغلاق .

فدققتها وأنا أصيح : «يا أهل الدار ! يا أهل الدار !» .

بعد فترة خرجت الجارية وسألت : «هل أنت الذى أصدر هذه الضجة المروعة ؟» .

«أنا الذى طرق» .

«حسن . أين ذهبك وفضتك ؟ لابد أنك الوحيد فى هوباتا الذى لا يعرف شروطنا ، لا نقود مقدماً إلا بتعهد بدفع الوزن ذاته معدناً كريماً» .

«هذه ليست طريقة مخاطبة الزائرين على الإطلاق» قلت بقسوة :

«هل مولاك فى البيت ؟ » .

«بالطبع لكن ما شأنك ؟» .

«أتيت بكتاب تقديم إليه من ديمياس الكورنثى» .

«انتظر هنا حتى أبلغه رسالتك» ، ثم أعادت إغلاق البوابة وآبت إلى داخل البيت ، وما لبثت أن ظهرت من جديد : «سيدى يقول لك : تفضل بالدخول» .

وجدت ميلو فى غرفة طعامه متمدداً على جشّية ضيقة جداً وكان قد بدأ تناول غذائه منذ قليل ، وقد جلست زوجته عند قدميه ، حرك يديه نحو المائدة التى تكاد تكون خالية تماماً من الطعام وقال : «فى الوقت المناسب تماماً لوجبة» .

شكرته وناولته الكتاب الذى قرأه مسرعاً ، ثم قال : «أنا شاكر لديمياس أن أتاح لى فرصة لقاء شاب رائع مثلك» بعدها سأل زوجته أن تغادرنا إذ من الواضح أن الطعام لم يكن يكفى أكثر من شخصين ، وطلب منى الجلوس مكانها . كان طبيعياً أن ترددت ، بيد أنه أمسك بعباءتى وجذبنى إلى المقعد : «اجلس .. اجلس يا سيدى ! أرجو أن تعذرنا فى قلة المقاعد

وغيرها من الفرش . هذا احتياط ضرورى ضد السرقة !» .

جلست .

«لقد حزرت من أناقة ثيابك وصواب سلوكك انك من أسرة كريمة وأرى من كتابِ ديمياس أننى كنت محقاً ، وأرجو ألا تزدرى بيتنا الصغير . إن الغرفة الاحتياطية الملاصقة لهذه الغرفة تحت تصرفك ، إذا ما استطعت تدبير أمر راحتك فيها ستقدم لنا شرفاً عظيماً ، وننال فى الوقت نفسه قرضاً حسناً كما ناله ثيسيوس الشهير - ألاحظ أن اسم والدك ثيسيوس كذلك - حين قبل ضيافة هيكال العجوز الفقير» .

وقبل أن أتناول شيئاً من الطعام نادى الجارية : «فوتيس ! خذى متاع السيد إلى الغرفة الخالية وضعيه بعناية هناك ، ثم احضرى منشفة من الصوان وقنينة زيت صغيرة ، وخذيه حالاً إلى أقرب حمّام . لا ريب أنه يشعر بالحر ومُتعب بعد هذه الرحلة الطويلة» .

رأيت على الفور كم كان ميلو بالغ الدناءة ، غير أننى اعتزمت أن أسخر منه فقلت : «أرجو ألا تهتم بالمنشفة أو الزيت ، فأنا أحمل مثل هذه الأشياء فى متاعى دائماً ، ولا ضرورة لأن تصحبنى فتاتك . همى الوحيد الآن هو حصانى ، إنه يستحق المكافأة إذ حملنى إلى هنا عن طيب خاطر . أرجو يا فوتيس أن تتفضلى بشراء طعام جيد له من العشب والشوفان . ها هى النقود» ثم انطلقت إلى باحة الدار أتجول فيها حتى نال حصانى طعامه ورتبت فوتيس حوائجى فى غرفة النوم أحسن ترتيب ، بعدها مضيت قاصداً الحمامات ، لأقوم أولاً بزيارة سوق المواد الغذائية كى أبتاع شيئاً لعشائى . كان ثم سمك كثير معروض للبيع ، ورغم أنه طُلب منى مائتا درهم ثمن سلة سمك واحدة فى البداية فقد استطعت أن أجعل البائع يهبط بالثمن إلى عشرين درهماً ، دفعتها له ثم مضيت بما اشتريت ، وحالما

غـادرت السوق حـدث أن رجلاً يدعى بوثيـاس - كـان زمـيـل دراسـة فى أثينا - كان يمشى فى اتجاهى ، عرفنى أولاً وعانقنى أحرّ العناق .

«يا سلام ! أليس هذا صـديقى لوكيوس ؟! يا للسمـاوات ! كم مرّ من السنين منذ أن تتلمذنا معاً للشيخ دوسـثيوس ؟ ومن يومها وحتى يومنا هذا لم أسمع عنك خـبراً من الأخبـار . قل لى ، أيها العزيز ، مـا الذى جاء بك إلى هنا ؟» .

«غداً لنا حديث طويل . لكن يا بوثياس - ما هذا الذى أرى ؟ ثوب من ثياب الشرطة وعسس مسلحون يمشون من ورائك ؟ تهانئى القلبية !» .

فـشرح لى : «أنا الآن مـفتش عـام الأسواق ، فلو كـان لى أن أؤدى لك خدمة بمساعدتك فى شراء شئ لعشائك أرجو أن تدعونى لذلك» .

«ما ألطفك ! غير أننى اشتريت لنفسى بضعة أرطال من السمك» .

«دعنى أرها» ثم أخـذ السلة منى وهزّ السمكات فـيهـا حتى يتـمكن من تأملها عن كثب ، ثم سألنى : «هل تسمـح بأن تخبرنى كم دفعت ثمناً لهذه النفاية ؟» .

«لقد استغرق إقناع السماك بأن يهبط إلى عشرين درهماً وقتاً طويلاً» .

«أى سماك ؟ أشر لى إليـه» فأشرت إلى شيخ صغيـر الحجم جالس عند زاوية السوق .

وفى التو بادر بوثياس إلى توبيخه بأقسى كلماته الرسمية :

«هيه .. أنت ! هل هذا أسلوب تعـامل به أصدقاء المفـتش العام ، أو أى زائر مهمـا كان يأتى ليشتـرى شيئاً من سوق المواد الغـذائية ؟ تطلب لا أقل من عشرين درهمـاً .. يا سلام ! عشرين درهمـاً لهذه السميكات الحـقيرة ؟ هوباتا أكثر مدن ثسـاليا رخاءً ، لكننا مع أمثالك ممن يرفعـون أسعار الطعام



إلى هذا الحد غير المعقول قد نرانا نعيش فى برية صخرية ، لا تحسبن أنك ستنجو بالتوبيخ وحده ، إننى بحق السماء لعازم على أن أجعلك عبرة لمن يعتبر ، ما دمت أحتل منصبى هذا» .

ثم أفرغ السلة على الأرض وأمر أحد تابعيه أن ينط فوق السمك ويحيله بقدميه إلى عجين على الرصيف . فلما أشرق وجهه بالرضا عن شدته نصحنى بوثياس بالذهاب إلى البيت : «كل شئ على ما يرام الآن يا لوكيوس» هكذا قال لى بابتهاج : «لا حاجة لك بأن تضيف شيئاً ، أنا راضٍ الأن بأن هذا النذل الضئيل نال ما يكفيه من التحقير» .

يا لزميل دراستى العبقرى !

بعدها قصدت الحمام وأنا مبهوت لفقدى عشائى ومالى بفضل تدخله اللطيف ، حيث قضيت العشية فى الراحة .

عند هبوط الليل عدت إلى بيت ميلو المضياف ، ولم يطل مكثى بغرفتى حتى دخلت فوتيس وقالت : «السيد فى انتظارك على مائدة العشاء» فأرسلت إليه عذراً مهذباً ، وأنا عارف بعاداته الاقتصادية ، راجياً إياه أن يعفينى : «أرجو أن توضحى له أننى منهك للغاية من أثر السفر ، وأن حاجتى إلى النوم أكبر من حاجتى إلى الطعام» .

فنقلت فوتيس رسالتى ، وفى الحال ظهر ميلو ذاته ، وقبض على معصمى وهو يحاول بلطف أن يجرنى معه إلى غرفة الطعام ، فاعترضت : «كلا .. كلا حقيقة أنا غير جائع» فأعلن ، وهو لا يزال قابضاً على معصمى رافعاً يده الأخرى وكأنه يقسم يميناً فى المحكمة «لن أتزحزح من هنا حتى توافق على المجئ معى» فكان عليّ الإذعان ، وقادنى مرة أخرى إلى الحشيّة القديمة الرثة عينها حيث أجلسنى على طرفها قبل أن يجلس هو ، ولم يكن العشاء قُدِّم بعد .

«أخبرنى الآن» قال ميلو «كيف حال صديقنا المشترك ديمياس ؟ هل كل شئ بالنسبة إليه على ما يرام ؟ وكيف حال زوجته ؟ هل صحة أولاده بخير؟ هل من مشاكل مع الخدم ؟» .

فأجبته بالتفصيل ، ثم طلب أن أسرد له بالضبط الأمر الذى جئت لأقضيه فى هوباتا ، فأرضيت فضوله مرة أخرى . لم يأت العشاء بعد . ثم رغب فى معرفة كل شئ عن الأحوال فى بدلى وسأل عن تفصيلات حياة أعيانها جميعاً . وحين شرع فى التدقيق معى عن المسائل الشخصية للحاكم العام ظهرت عليّ علامات النعاس - فقد كانت الرحلة مرهقة وهذا الحديث أشد إرهاقاً - وصرت أقطع الجمل فى منتصفها أو أخلط ما بين الكلمات ، فرأى أننى متعب تماماً وتلطف فأذن لى بالقيام إلى فراشى .

كم كان سرورى بالغاً بخلاصى من هذا الحلوف العجوز الكريه الرائحة! ورغم أننى طعمت حديثاً ليس غير فإن ترحيبى بالنوم الذى غالبنى كان أكبر من ترحيبى بوجبة فاخرة ، فتعثرت فى طريقى إلى غرفتى ونمت كالميت بالضبط .

صحوت فى اليوم التالى مبكراً ، وقفزت من فراشى فى الحال ، كانت رغبة عارمة تسيطر عليّ فى كل شئ غريب وغير مألوف . وتذكرت أننى فى قلب ثساليا ، البلد الذائع الصيت فى عالم السحر والشعوذة ، بل فى المدينة ذاتها التى شهدت حكاية أريستومنيس . فتلفت من حولى بنظرة المستثار وأنا أدقق فى كل شئ يقع عليه ناظرى ، كيف كان لى أن أثق فى أن أى شيء فى المدينة كلها هو حقيقة كما بدا ؟ كانت تسيطر عليّ فكرة أن الساحرات يعملن فى كل مكان ، فخطر لى أن الأحجار التى ضربتها أمس بقدمى ربما كانت فى حقيقتها بشراً ممسوخين والطيور التى سمعت تغريدها أناساً يكسوها الريش - مثلما حدث لبروكنى وتيريوس وفيلوميلا كما

تقول الأسطورة - وبدأت الريب تساورني في الأشجار المحيطة بالبيت ، بل في الصنابير التي كانت تتدفق منها مياه النافورات . كنت على استعداد، عندما زرت المدينة ، أن أرى التماثيل وصور الآلهة تهبط من قواعدها ، أو أسمع الجدران تتحدث ، أو الثيران والماشية تنبئ بأخبار غريبة ، بل حتى أن تخاطب الشمس بوحي في سمائها .

بهذا المزاج الغبي المنمق ، ودون أن أجد تبريراً ما لوساوسي ، طفت المدينة كلها من باب إلى باب ووجدت نفسي أخيراً في سوق المواد الغذائية مرة أخرى . وهناك جاءت امرأة يتبعها حشد من الخدم ، أوضح قرطاها الطويلان المجوهران والنقوش المتلألئة على ثوبها أنها من طبقة راقية ، وبجانبها مشى شيخ مهاب ما عتم أن صاح حين رآني : «يا للسماوات ! هذا لوكيوس !» ثم تقدم وعانقني ، رجع بعدها إلى السيدة وهمس في أذنها وعاد إليّ ثانية : «هلم .. هيا يا لوكيوس .. لِمَ لا تسرع وتقبلها ؟» فتلعثمت : «لا يمكنني أن أفعل هذا مع سيدة لم أحظ بشرف تقديمي إليها» وعلت وجنتي حمرة الخجل وبقيت في موقفي وأنا أنظر إلى قدمي . كانت السيدة تنظر إليّ باهتمام ، ثم قالت متعجبة : «حقاً .. التطابق كامل كان لساليا بالضبط نفس الرقة والقوام الممشوق ، نفس الوجنتين الورديتين ، ونفس البشرة الناعمة ، ونفس الشعر الأشقر المنسق بعناية ، ونفس اليقظة والعينين الرماديتين اللامعتين اللتين كانتا تذكراني بعيني النسر ، ونفس طريقة المشي المعتدة» ثم أضافت : «لقد رعيتك طفلاً يا لوكيوس ، ولا غرابة في ذلك ، فإني وأمك الغالية كبرنا معاً في بيت واحد . الفرق الوحيد بيننا - في الواقع - أنها تزوجت نبيلاً وتزوجت أنا رجلاً من عامة الناس : اسمي برهاينا - لابد أن أمك ذكرت الاسم لك حين كانت تحدثك عن طفولتك . يجب أن تأتي وتقيم معي في الحال ويكون بيتي هو بيتك» .

«في تلك الأثناء كنت تخلصت من حرجي ، فبينت لها انه ما من شئ

يدخل السرور على نفسى أكثر من تلبيتى دعوتها ، لكننى للأسف كنت ضيف ميلو وليس من اللائق أبداً أن أترك بيته إلى بيت آخر فى المدينة ذاتها. «لكن يسعدنى جداً أن أراك بقدر ما يسمح ارتباطى بميلو ، وكلما جئت المدينة زرتك دون إبطاء» .

***

كانت برهاينا تقطن غير بعيد ، وسرعان ما أعجبت بساحة بيتها الداخلية بعمدها المنقوشة فى الأركان الأربعة تعلوها تماثيل ربة النصر المجنحة . كانت الشخوص تبدو حية بشكل خارق ، وكل منها تحمل غصناً من جريد النخل فى يدها فوق جناحين ممدودين وقدماها الغضتان متوازنتان بخفة على كرة ساكنة لن تحسبها أبداً قُدت من كتلة صخر واحدة - وهى تبدو على أهبة التحويم من جديد . بيد أن أكثر ما شد انتباهى وغطى على ما عداه كانت مجموعة منحوتة من رخام پارى انتصبت فى منتصف الساحة بالضبط ، تمثل الربة ديانا وكلاب صيدها - عمل رائع . بدت الربة تخطو نحوك حين تدخل، وقد شد الهواء رداءها إلى وراء ، والخشية تأخذك من جلال حضرتها ، ومجموعة كلاب الصيد التى كانت تمسك بمقودها توازنت على أقدامها الخلفية متحفزة للانطلاق فى لحظة . بدت الكلاب عابسة بعيونها المتوحشة وآذانها المنتصبة وخياشيمها المنفرجة وأنيابها البارزة ، فلو أن كلباً آخر نبح فجأة لحسبت النباح للتو صادراً من حناجرها المرمرية البيضاء . وخلف الربة كان غار غطى مدخله الطحلب والعشب والأوراق المتساقطة ، وأجمة صغيرة يحيط بها النجم والنباتات المتسلقة تنمو هنا وهناك ، ووراءها صفّاحة من رخام مصقولة جداً عكست صورة كتفيها ، وتحتها تدلى تفاح وعنب استوى للتناول ، نحتت بدقة بالغة حتى لتحسبن أنك فى منتصف أشهر الصيف . فإذا ما نظرت إلى الجدول الذى بدا نابعاً مترقرقاً من تحت قدمى الربة رأيته متدفقاً بالحياة مثل عناقيد العنب . ليس هذا فحسب ، فمن

بين الأغصان المتشابكة بدا وجه أكتايون متلصصاً وهو فى منتصف تحوله إلى وعل - كما ظهر أيضاً من انعكاس المنظر المنحوت على صفحة الماء - وكان هذا عقابه لتلصصه على الربة وهى على أهبة الاستحمام .

وبينما كنت أتأمل مجموعة التماثيل بتطلع بهيج قالت برهاينا : «هذا كله لك يا ابن الخالة» ثم ابعدت الخدم وقالت لى بصوت خفيض : «باسم هذه الربة ، ربة الطراد ، يا عزيزى لوكيوس .. أرجوك أن تأخذ الحذر . يصعب عليّ أن أعبر لك عن قلقى عليك فى وضعك الراهن . لكن أرجوك أن تفهم أن مشاعرى نحوك طيبة جداً كأنك ابنى ، يجب أن أحذرك تحذيراً جاداً من زوجة ميلو المدعوة بامفيلى ، والتى أخشى أن تسحرك . انها ساحرة معروفة جداً ويقال إنها سيدة كل ضرب من ضروب السحر ، حتى انها بمجرد النفخ فى العسلوج أو الحجارة أو غيرها :

يمكنها تحويل الضوء والسماء ذات النجم

إلى أعماق الجحيم المظلمة

وأن تعيد إلى الدنيا

عهد الهيولى الأول ...

إنها تقع فى غرام كل شاب وسيم تقع عليه عيناها وتعزم فى التو على امتلاكه . تبدأ حملتها بكلمات معسولة وتنتصر دائماً انتصاراً سريعاً ، تشده بعدها إليها بأغلال الشهوة غير الممكنة الفكاك ، فإن وجدت مقاومة هاج غضبها وحقدها فلا تبالى بأن تمسخ ضحيتها حجراً على الفور ، أو تحوله كبشاً أو ثوراً أو حيواناً برياً ، أو أن تقتله . يمكنك أن تتصور قلقى عليك ، فإن بامفيلى امرأة شبقة وأنت بالضبط مثال الشاب الوسيم الذى هو أكثر ما يجذبها» .

كنت مغامراً بطبعى . فما أن ذكرت برهاينا الفن الأسود ، الذى طالما شد اهتمامى ، وإحساسها بوجوب الحيطة من بامفيلى حتى تملكتنى الرغبة فى أن أدرس السحر على يديها مهما كلفنى الأمر من مال ، وأن أقفز جرياً إلى الهاوية المظلمة التى حذرت منها . التهب عقلى ، فخلصت يدى من يد برهاينا كما لو أننى أكسر سلسلة ، وغادرتها مودعاً على عجل . انطلقت اركض إلى بيت ميلو أحدث نفسى وأنا أعدو بجنون وسط شوارع المدينة : «إليها الآن .. يا لوكيوس! واستجمع مواهبك كلها . إذ ها هى الفرصة أخيراً أمامك ، لقد كان طموحك الخفى دائماً أن تتعلم قوانين السحر ، فلتنس مخاوفك الصبيانية ، واجه هذا الواجب الجديد جسوراً وعملياً - على أن تتجنب طبعاً أى ارتباط ببامفيلى . أن تخون مضيفك عمل دنئ غير أخلاقى . من جهة أخرى ، ليس ثَم ما يمنعك من إغواء فوتيس . إن الفتاة ليست جميلة ومتدفقة بالحيوية ورائعة فحسب ، بل إنها نصف محبة لك الآن ، عندما ذهبت إلى فراشك البارحة قادتك هى إلى غرفتك وقلبت غطاء سريرك ووضعتك بلطف فيه ثم قبلتك قبلة مساء لطيفة وأظهرت بجلاء كامل أسفها لمغادرتك .. تذكر كيف وقفت فى طَريقها إلى الباب وكيف نظرت إليك ؟ أفضل الحظوظ لك إذن يا لوكيوس . لكن نصيحتى - مهما يكن : إذهب إلى فوتيس ! » استقر عزمى الآن ، وحين بلغت بيت ميلو دخلته واثقاً ثقة عضو مجلس الشيوخ يدخل قاعة استقبال المجلس .

لم أجد أحداً فى الدار سوى فوتيس الجميلة تعد لحم خنزير لسيدها ومولاتها ، فى حين نفذت رائحة الطبيخ الشهية إلى منخرى منبعثة من قدر فخارية على الموقد . كانت ترتدى ثوباً منزلياً أنيقاً أبيض ، مجموعاً تحت الصدر برباط حريرى أحمر ، وكانت تبدو جميلة للغاية وهى تحرك محتويات القدر بيديها الحلوتين .

كان للمنظر تأثيره النافذ فى نفسى حتى أننى وقفت هنيهة أتأملها

بإعجاب ، ثم وجدت صوتى أخيراً فقلت لها : «عزيزتى فوتيس ! ما ألطف ما تفعلين ! ويا لك من طاهية ماهرة !»

فالتفت إليّ من فوق كتفها قائلة : «اذهب .. أيها اللئيم ! ابتعد عن موقدى الصغير . إن اقتربت منه فربما أصابتك شرارة . طاهية ماهرة أنا ؟ بالطبع !» ثم استدارت إليّ وضحكت ، ولم أغادر المطبخ حتى تمليتها جيداً من قمة رأسها حتى أخمص قدميها . وفى هذه الآونة اكتب فقط عن رأسها والحقيقة أن الشَّعر يتملكنى ، وكلما قابلت امرأة جميلة كان أول ما يشد ناظرى هو شعرها ، فأكوّن فى ذهنى صورة له أحملها معى إلى البيت وأشرع فى تأملها على انفراد ، وتبريرى لهذه العادة يقوم على مبدأ منطقى قوى ، وهو أن الشعر أهم وأبرز ملامح الجسد وأن لمعانه الطبيعى يؤدى للرأس ما تؤديه الثياب الملونة الزاهية لجذع الجسد ، بل الحق أن الشعر يؤدى عملاً أكبر ، إنك تعلم كيف تلقى النساء بملابسهن المطرزة ، حين يبغين كشف جمالهن كاملاً ، ويخرجن من أرديتهن الباهظة الثمن ويعرضن أنفسهن فخورات دون شئ يكسوهن على الإطلاق ، مدركات انه ما من شئ ، حتى نسيج الذهب ، الساطع له أثره فى الرجل أكثر من لونٌ بشرة جسد المرأة العارى الرقيق . لكن - وأرجو أن تغفر هذه الفكرة الفظيعة التى آمل ألا يطبقها أحد - لو أنك حلقت رأس حتى أجمل النساء وسلبت وجهها إطاره الطبيعى ، فلا أبالى إن كانت هبطت أصلاً من السماوات وولدت ثانية من زبد البحر مثل الربة فينوس - لا أبالى حتى إن كانت فينوس ذاتها يحيط بها كل الحسان وآلهة الحب ، فينوس التى تقطر عطراً غالياً وتتضوع أريجاً وطوق الهوى المشهور ويلف وسطها - فالحق أن صلعها سيتركها خالية من الجاذبية تماماً حتى بالنسبة لزوج وفى مثل الرب فولكان !

ما أمتع أن ترى شعراً زاهى اللون تلعب به أشعة الشمس أو يشع

بالبريق ، يتنوع لونه كلما تغير مسقط الضوء عليه ! فهو ذهبى تارة ، ثم عسلى ، أو هو أسود كجناح غراب ، ثم يتخذ فجأة لون ريش عنق الحمامة الأزرق الفاتح ، لمعّه بمنقوع الناردين ، وافرقة مرتباً بمشط جيد الأسنان ، واعقصه بشريط وراء الرأس ، يتخذه العاشق مرآة يعكس نظراته الوالهة ، ثم .. أوه .. حين يضم الشعر فى حزمة غليظة فاخرة على رأس امرأة ، أو يترك منطلقاً ، وهذا أفضل ، يتماوج على عنقها فى خصل كثة ! ولعلنى أكتفى بالقول إنه يكفى شعر المرأة فخراً أنها قد ترتدى أعجب الثياب ، وأغلى الجواهر فى الوجود ، وكل ما يحفظ فى الخزائن ، لكن محاسن لباسها لن تبرز إلا إذا صففت شعرها بطريقة مناسبة .

فى إعتقادى أن فوتيس لم تكن بحاجة إلى معرفة خبير فى تصفيف الشعر ، بل كان لها أيضاً أن تغامر بإهمال واضح لهذا الفن . كانت طريقتها أن تدع شعرها الطويل الكث ينسدل طليقاً على عنقها ، مجدولة نهاياته ضُمت بشريط عريض وثبتت مرة أخرى من قمة رأسها ، حيث لم أتمالك نفسى من أن أطبع قبلة طويلة حانية .

نظرت إليّ من فوق كتفها ، وبدت عيناها الحادتان تحدقان فى قلبى مباشرة ، وقالت : «أوه أيها التلميذ الصغير ! نهمٌ دائماً لأى شىء لذيذ ، دون أن تفكر فى مرارة طعم العاقبة ، قد أبدو لك اليوم فى طعم العسل ، لكننى أنذرك بأنك بعد قليل قد تجدنى كالحنظل فى حلقك» ، «ما الذى يهمنى أيتها الجميلة ؟ إننى آذن لك بأن تمددينى على طولى فوق هذه النار وتشوينى حتى أسود ما دمت تعدليننى بتخفيف عذابى ولو بلثمة واحدة» ثم ألقيت ذراعى من حولها وطفقت ألثمها حتى استسلمت ثم ردّت عناقى بعناق أشد ، وكان نفسها فواحاً كالمسك ، وهنا أوضحت لى حبها العميق ، وطلبت منى بعدها الانصراف .

افترقنا . وحوالى الظهر وصلت هدية لطيفة من برهاينا ، كانت عبارة

عن خنزير سمين وزوجين من الطيور ودنٍّ من الشراب ، فناديت فوتيس : «انظرى .. يا حبيبتى ! نسينا أن ندعو إله الخمر ، لكنه دائماً يساعد ربة الحب ويغريها، فجاء من تلقاء نفسه، فلنحفظ هذا الدن جانباً لليل فالمحبون يحتاجون لشيئين ، زيت كافٍ للقنديل، وخمرة كافية للأقداح» .

قضيت عشية ذلك اليوم فى الحمام ، وفى أثناء عودتى وجدت عبديّ ، الذين تبعانى راجلين من كورنثة ، قد وصلا لتوهما وميلو ينتظرنى وزوجته بامفيلى ، على مائدة عشائهما الصغيرة . وكانت فوتيس قد استخدمت جزءاً من الهدية فوراً وأجبرت ميلو على أن يكون كريماً لمرة واحدة . وجدتِ حشيّة لى ، فجلست عليها وتحذير برهاينا لا يزال يطن فى أذنى ، بعيداً بقدر الإمكان عن مرأى بامفيلى ، وأنا أسترق نظرة خائفة نحوها بين الفينة والأخرى كما لو أنها (بحيرة اللا طيور) ، وكانت فوتيس تقوم على خدمتنا وعيناى تتبعانها معظم الوقت ، فأحسست بالراحة العميقة.

بدأ الليل فى الهبوط وأوقد مصباح المائدة ، فنظرت بامفيلى ملياً فى شعلته وأعلنت : «ستمطر غداً بغزارة» .

سألها ميلو : «كيف تعرفين» ؟

«عن طريق المصباح» .

فضحك ميلو : «واضح أننا نسامر سيبيل دون أن ندرى ! إنها كل ليلة تجوب الكون من برج مصباحها ،ونتكهن برحلة الشمس فى غدها» .

فانفجرتُ : «أليس من الغريب حقيقة أن هذا اللهب ، على صغره وكونه نوراً صناعياً ، لا يزال يحتفظ بذكرى أمه الشمس ، مصدر النار الأول ، وأنه بقطرته المقدسة يستطيع الإخبار بما سوف يحدث فى السماء؟ أرى هذا نمطاً أولياً من أنماط التقديس إذا ما قورن بما صادفنى فى كورنثة منذ أيام قليلة ، فقد بعث منجم كلدانى الاضطراب فى المدينة بأسرها

بإجابته الدقيقة عن كل سؤال وجه إليه ، برسم معين كان يخبر السائل عن اليوم الذى يتزوج فيه ، أو اليوم الذى يضع فيه حجر الأساس لبيته إن أراد بناءً يثبت على الزمان ، أو اليوم الذى يعقد فيه صفقة ، أو اليوم الذى ينطلق فيه مسافراً بالبر أو البحر ، ولما سألته عن رحلتى هذه كانت إجاباته غريبة متناقضة ، أنبأنى مثلاً أنها ستكون سبباً فى شهرتى الواسعة وأننى سأكتب كتاباً كبيراً عنها لن يأخذه أحد ، على كل حال ، مأخذ الجد» .

فضحك ميلو ثانية : «كيف كان يبدو صاحبك الكلدانى هذا ؟ وماذا أسمى نفسه» ؟

«كان طويل القامة يميل إلى السمرة ، واسمه كان ديوفانيس» .

«الرجل نفسه الذى جاء ذات مرة إلى هوباتا وقدم النمط ذاته من التنبؤات ! لقد كسب قدراً كبيراً من المال ، ثروة صغيرة فى الواقع ، لكنه أثبت فى النهاية أن قدره - لنقل : مشؤوم - أو لعلك تفضل : نكد - أو : نحس ، وقد حدث ذلك عندما كان ديوفانيس يقف ذات يوم وسط حشد من الناس يرغبون جميعاً فى معرفة أقدارهم ، وكان رجل أعمال يسمى كريدو سأله لتوه أن يعين له يوم حظ للسفر، فأجابه ديوفانيس وفتح كريدو صرة نقوده وبدأ يعد مبلغ مائة درهم أجرة له ، وفى تلك اللحظة جاء شاب من وراء ديوفانيس وجذب رداءه ، فالتفت هذا إليه وعانق كل منهما الآخر بشوق . «اجلس .. اجلس!» قال ديوفانيس وقد نسى كل ما ادعاه من معرفته بالتنجيم : «يا للسرور الغامر! لم أتوقع أبداً أن أراك فى هذه النواحى ، متى وصلت ؟» فأجاب الشاب : «البارحة فقط، لكن ، يا عزيزى، لابد أن تفسر لى رحيلك المفاجئ من يوبويا وتنبئنى عن رحلتك» فصاح ديوفانيس دون أى احتراز: «وددت لو أصاب أعدائى والمتمنين لى الشر جميعاً ما أصابنى من حظ عاثر فى طريقى إلى هنا . إن رحلة أوديسيوس ذات السنوات العشر لا تقارن برحلتى . فى البداية ضرب

سفينتنا إعصار بمجرد إبحارها ، وكانت تخرج من دوامة لتدخل أخرى ، ثم تكسرت دفتها وسكانها ، وما أن بلغنا شاطئ تساليا أخيراً حتى غاصت فى البحر كالصخرة . استطاع بعضنا أن يصارع الموت ليصل إلى الشاطئ، وقد فقدنا كل ما نملك ، وكان علينا أن نتسول أو نقترض المال ليساعدنا على بقية رحلتنا ، وكما لو كان أن هذا كله لم يكن كافياً ، إذ هاجمنا قطاع الطرق وقتل أخى أرغونوتوس ، الذى حاول المقاومة ، أمام ناظرى».

وبينما كان ديوفانيس مسترسلاً فى رواية قصته المحزنة التقط كريدو دراهمه وتسلل ذاهباً ، وعندها فقط استرجع ديوفانيس نفسه وعرف أنه أفسد الأمر كله ، إذ كان ضحكنا جميعاً يشق عنان السماء . ومهما يكن الأمر ، يا سيد لوكيوس ، فإننى أتمنى من كل قلبى أن يكون ما حدثك عنه هذا الكلدانى الشهير حقيقة رغم أنك قد تكون الوحيد الذى حدثه بمثله ، وأدعو لك برحلة ممتعة مثمرة» .

كنت أصر على أسنانى فى صمت وميلو ماض فى هذيانه . كنت ساخطاً على نفسى إذ بادأته فانطلق فى سلسلة من الروايات فى وقت كهذا. رأيت خطر فقدانى أفضل جزء من الليل وكل المتع التى يخبئها لى ، فتثاءبت فى النهاية دونما حياء وقلت : «أرجو ألا تجشم نفسك عناء رواية شئ آخر عن ديوفانيس . يتساوى لدى ما يحدث له أو حيثما يحمله حظه العاثر ، والحق أننى لا أبالى إن نالت الأمواج القسم الأكبر مما كسب أو ناله اللصوص حين يجبر على تقيؤه فى المرة القادمة ، الواقع أننى لا أزال أعانى من آثار ركوبى أمس الأول وأحس بأننى مرهق تماماً ، أرجو أن تصفح عنى إن استودعتك الآن وذهبت فوراً إلى فراشى» .

ثم نهضت ومضيت إلى غرفة نومى ، وفى طريقى إليها لاحظت أن فراش القش الذى يتقاسمه عبداى فى باحة الدار الداخلية نقل إلى أبعد ما يكون من باب غرفتى -- وواضح أن فوتيس تحوطت حتى لا يسمع أحدٌ

حديث غرامنا تلك الليلة . وفى الداخل وجدت احتفالاً عظيماً فى انتظارى كانت المنضدة بجانب سريرى مغطاة بأطباق صغيرة من طعام لذيذ اقتطع من العشاء ، وأقداح شراب مترعة لم يترك سوى جزء صغير فى أعلاها لتشعشع بالماء ، وإلى جانبها دورق فوهته على هيئة الناقوس فى متناول اليد لتسكب الخمر منه عند الطلب . كان المنظر يوحى بفطور مصارع صبيحة يوم الجلاد الكبير . !

وحين استقر بى فى غرفتى المقام ، برزت فوتيس - وقد وفقت فى أن ترسل مولاتها بسرعة إلى فراشها - على عتبة الباب وفى يدها باقة من الورود . تهادت نحوى وقبلتنى ، ثم عقدت بعض الورود على شكل إكليل لتضعه على رأسى ، ونثرت بقيتها على جوانب الغرفة . بعدها أخذت قدحاً من النبيذ ، شعشعته بماء دافئ ، ووضعته على شفتى ، وقبل أن أشربه سحبته منى بلطف وشرعت ترتشفه قليلاً قليلاً ، وهى تحدق فى عينى ، مثل يمامة ترتوى ، حتى أفرغته تماماً ، وأعادت الكرة مرتين أو ثلاث مرات ...

....

تلك كانت الليلة الأولى لليالٍ عديدة قضيناها معاً ! ◆

الفصل الثالث

قصّة ثيلوفرون

ذات يوم أرسلت لى برهاينا دعـوة ملحـاحة لحـفل عشـاء . ورغم أننى تذرعت بمختلف الأعـذار فقد رفـضت قبول أى منـها ، ولـم يكن لدى حل إلا اللجوء لفوتـيس ، كما يلجأ المرء إلى كاهنة مـعبد مقـدس ، وأن أسألها النصيحـة . وقتها كـانت تكره أن أبعد عنها مقدار ذراع ، بـيد أنها أذنت لى تلك الليلة أن أفارقها فترة قصيرة ، وقد أنذرتنى قائلة : «اسمع .. يا حبيبى! لا تمكث طويلاً فى الحفل ، عد بأسرع ما يمكن ، إذ أن فى هوباتا عصابة من القتلة تنشر الرعب فيـها فى الساعات الأخيرة من الليل ، تجد مـتعة فى قتل من يمر بهـا وأن تزرع الطرقـات بالجـثث ، إنهم أبناء العـائلات السـرية فى البلد، وأقرب معـسكر رومانى يقع على بعد أميـال من هنا ، فلا يمكن عمل شئ للقضاء على هذا البلاء . أنت بالذات يلحـقك خطر مهاجمتك ، إذ لا يحمل هؤلاء القتلة ذرة من الاحترام للأغراب ، وأشد ما يشعل رغبتهم فى التدريب على اللعب بالسيف عليك رؤيتهم إياك مرتدياً ثياب النبلاء» .

فقلت لها : «لا تقـلقى يا عزيزتى فوتيس ، حفل العـشاء ذاك لا يشدنى مـثلما تفـعل جلسـاتنا هنا . أعدك بتـقصـيـر مدة قلقك بالعـودة أسرع مـا أمكننى. ومع هذا ، سأتقـلد هذا السيف الذى أعرف جيـداً كيف أستـعمله فى الدفاع عن نفسى ، وآخذ أحد عبدىّ معى كذلك» .

كان حـفل العشاء واحـداً من ولائم دورية ، فقد كـانت برهاينا زعيـمة مضيفات هوباتا ، وكان الجميع هناك على اختلاف الطبقات . كانت الموائد

مصنوعة من خشب النارنج المطعم بالعاج ، والحشايا مكسوة بقماش ذهبى، وكل قدح من أقداح الشراب ، رغم تنوع صناعتها ، تحفة فنية نادرة فى بابه، سواء كان من الزجاج وسط صدفة منقوشة ، أو من البلور الطبيعى أو الفضة الصقيلة ، أو الذهب ، أو الكهرمان الجميل النحت أو كان مجوفاً من حجر شبه كريم . باختصار - لك أن تفكر فى أى شئ مستحيل فى مجال الأقداح تجده هناك .

سرب من الجوارى الحسان تهادين يملأن الموائد بأطايب الطعام كلما نقص منها شئ ، فى حين مضى عدد من الغلمان ذوى الشعر الجعد فى ثياب أنيقة ، تراكضوا صعوداً وهبوطاً ، يفعمون كؤوس الشراب المجوهرة بخمرة معتقة من القرون الأولى .

أرخى الليل أستاره ، فأحضرت القناديل ، وبدأت ترتفع حرارة السمر. فالتفتت برهاينا إليّ وقالت : «يا ابن الخالة . ما رأيك فى بلدنا المحبوبة تساليا ؟ إننا حتى الآن ، حسبما أرى ، متقدمون كثيراً عن أى بلد آخر فى العالم ، إذا ما حكمت بعدد الحمامات والمبانى العامة الأخرى ، ولا يقارب بيوتنا الخاصة بيت أخر فى فرشها . ومع ذلك فإن لكل من يزور بلدتنا حريته المطلقة فى أن يقضى وقته كما يشاء ، فإن كان يطلب عملاً وجد كل لغط روما وضجيجها فى أسواقنا ، وإن كان يطلب الراحة وحدها فإن لدينا بيوتاً هادئة كهدوء الريف . لقد صارت هوباتا فى الحقيقة مركز استجمام رئيسى فى المنطقة» .

فوافقتها بحرارة : «لم أشعر أبداً فى أى من رحلاتى بالراحة أكثر مما أفعل هنا - وإن كان على أن أصرح بخوفى من فنون ساحراتكم الغامضة ، ولا يبدو أن هناك سبيلاً للاحتماء منهن ، فقد أنبئت أنهن لا يحترمن حتى الأموات ، وأنهن ينبشن القبور وأكوام رماد الجنائز بحثاً عن العظام ،

ويأخذن قطعاً من لحم الجثث غير المحترقة يستخدمنها فى تنغيص حياة الجيران ، وأن بعضاً من هاته الساحرات يسارعن ، إذا ما شممن رائحة الموت فى أى مكان ، لينتزعن جزءاً من جثة الميت قبل وصول النائحين» .

فقال رجل على مائدتى : «لا ريب فى هذا كله ، بل أكثر من هذا، هن لا يعتقن الأحياء أيضاً ، منذ زمن غير بعيد قضمت هذه الزمرة الجهنمية جزءاً من وجه رجل لا أجدنى فى حاجة ماسة إلى ذكر اسمه» .

ارتفع الضحك صاخباً إثر هذه الملاحظة ، وتلفت الجميع ينظرون إلى ضيف كان متكئاً على حشية عند مائدة فى ركن الدار . توالى الضحك دون انقطاع وكان الرجل ، وقد شعر بالحرج تماماً وهو يغمغم بغضب ، على وشك القيام والخروج حين أومأت إليه برهاينا أن يظل فى مكانه ، وقالت معترضة : «كلا .. كلا يا عزيزى ثيلوفرون ، ينبغى ألا تندفع هكذا . أرنا طبعك المرح واحك لنا مغامراتك تلك مرة أخرى . أود لو أن ابن خالتى لوكيوس ، وهو عندى كابنى ، وجد لذة سماعها من شفتيك أنت ، إنها قصة رائعة» .

فأجاب ، ولا تزال به بقية من غضب : «سيدتى برهاينا ! إنك المضيفة الكاملة دائماً ، ولا تخفى أبداً طيبة قلبك ، بيد أن سفاهة زملائى الضيوف تفوق الطاقة» .

فذكّرته برهاينا بحزم أنه يخيب رجاءها تماماً إن لم يحقق رغبتها ، مهما بدا ما كلفته به مخالفاً لما يرى . جمع غطاء حشيته وجعل منه مُتكّأً صغيراً ووضع مرفقه الأيسر عليه ، ثم أشار بيده اليمنى طالباً الانتباه بحركة خطابية ، ومد سبابته وإصبعه الوسطى رافعاً إبهامه ، وضم إصبعيه الآخرين طلباً للتوفيق ، وهذه هى القصة التى حكى :

«أيام كنت لا أزال طالباً جامعياً فى مَلَطة جئت لأشاهد الألعاب

الأولمبية، فلما أحسست بعدها بالرغبة العارمة فى زيارة شمال اليونان تنقلت فى أغلب أجزاء تساليا ، وذات يوم نحس بلغت لاريسا وقد أتيت تقريباً على كل ما أحضرت معى من مال ، وفيما أنا أطوف الطرقات ، أفكر كيف أملأ صرة نقودى مرة أخرى ، رأيت رجلاً طويل القامة واقفاً على حجر وسط السوق ، كان يعلن بأعلى صوته عن مكافأة مجزية لمن يقف ديدباناً على جثة تلك الليلة . فسألت أحد الواقفين : «ما معنى هذا ؟ هل من عادة جثث لاريسا أن تلوذ بالفرار ؟» فأجابنى : «صه .. أيها الشاب ، أرى أنك غريب تماماً هنا، وإلا لعرفت أنك فى تساليا حيث من عادة الساحرات أن تقضم قطعاً من لحم وجوه الأموات لسيتعملنها فى تعاويذهن السحرية» .

«آه .. فهمت ، وهلا تفضلت بإعلامى ماذا تتضمن حراسة الموتى هذه؟»

«بكل سرور ، إنها تعنى الحراسة بانتباه طيلة الليل ، وعين المرء مثبتة على الجثة دونما التفاتة واحدة عنها . هاته النسوة الفظيعات قادرات على تغيير أشكالهن فى لحظة ، إذ يتحولن إلى طيور أو كلاب أو فئران أو حتى ذباب - يتنكرون بطريقة تخدع أى مدقق حتى فى ساحة المحكمة - ثم يرسلن الحارس فى نوم عميق . لن أحاول إخبارك بكل الحيل الخارقة التى يتخذنها حين يبغين إشباع شهيتهن المتوحشة . وعلى كل حال فإن المكافأت المعتادة تتراوح ما بين مائة درهم ومائة وخمسين درهماً لعمل ليلة واحدة ، لا تكاد تستحق المخاطرة ، آه .. كدت أنسى إعلامك بأنه إذا لم يسلم الحارس الجثة صبيحة اليوم التالى إلى أهلها بالحالة التى وجدوها عليها ، فهو ملزم بحكم القانون أن يقتطع من وجهه ما يعوض المفقود من الجثة» .

لم يرعبنى هذا القول ، فقلت للمعلن بجسارة إنه لا حاجة له بتكرار إعلانه : «أنا مستعد للقيام بالعمل ، كم يعرضون من أجرة ؟» .

«ألف درهم .. لأن هذا عمل يتطلب انتباهاً أكبر من المعتاد لهاته الغولات المفزعات . المتوفى كان ابن أحد أعيان البلد» .

قلت : «كل هذا الهراء لا يحرك منى شعرة ، أنا رجل من حديد ، لا يهمنى النوم ، ولى عينان أحدّ من عينى لونكيوس ، رقيب سفينة الآرغو . يمكن ، فى الواقع ، القول بأننى كلى عيون مثل العملاق آرغوس الذى كلفه جوبتير ذات يوم بالحورية إيو» .

لم أكد أنهى تزكية نفسى للمهمة حتى أسرع بى العجوز مباشرة إلى بيت كبير مقفل المداخل بإحكام ، فأدخلنى عن طريق بابا جانبى ، وخلال دهاليز ، حتى وصلت غرفة مقفلة النوافذ حيث جلست امرأة ترتدى ثياباً حالكة السواد يعلو صوت نحيبها فى النور الخافت ، مضى المنادى إليها وقال : «هذا الرجل يأخذ على عاتقه حراسة جسد زوجك الليلة ، وهو موافق على الأجر» . فأزاحت الشعر الذى غطى محياها الجميل الحزين ورجتنى أن أكون عند حسن الظن فى مهمتى .

«لا تقلقى يا سيدتى ، إذا ما أحسنت الجزاء بعد ذلك !» هزت رأسها وكأنها فى غيبوبة ، ونهضت وقادتنى إلى مقصورة ، حيث أرتنى الجثة مسجاة على قطعة رخام ملفوفة فى كفن من القماش الناصع البياض ، وبعد برهة من النحيب دعت سبعة من الشهود وأمين سرها الذى جاء ومعه أدوات الكتابة ، ثم قالت : «أيها السادة .. لقد دعوتكم لتشهدوا أن الأنف خال من الأذى ، والأذنين كذلك ، وأن العينين لا تزالان فى محجريهما ، والشّفتين كاملتان ، والذقن كذلك» ، وكانت كلما ذكرت عضواً لمسته وسجله أمين السر فى قرطاس وقعه الشهود وختموه .

فى طريقها إلى الخروج سألتها : «هل تتفضلين ، يا سيدتى ، بأن تستوثقى أن لدى كل ما أحتاج إليه فى سهرى الليلة ؟»

«مثل ماذا ؟»

«مصباح جيد كبير فيه من الزيت ما يكفى حتى ظهور النهار ، أوعية خمر ، وماء دافئ لشعشعتها ، وقدح ، وطبق من اللحم البارد والخضروات مما فضل من عشائك» .

هزت رأسها بغضب وقالت : «يا له من طلب سخيف ! يا سلام !! لحم مطبوخ وخضروات فى بيت النواح حيث لا نار أوقدت منذ أيام ! هل تتصور أنك جئت هنا لحفل عشاء مرح ؟ ينتظر منك أن تنتحب وتذرف الدموع مثلنا» ثم التفتت إلى وصيفتها : «مورهينا ! املأى المصباح ، واحضريه فى الحال ، واقفلى الباب ، واتركى الحارس لمهمته» .

صرت والجثة وحدنا فقويت عينى على القيام بواجبها بأن دعكتهما بشدة ورفعت من روحى المعنوية بالغناء . تحول الشفق إلى مساء ومضى شوط من الليل والظلام يتكاثف شيئاً فشيئاً . كنت فى البداية قلقاً نوعاً ما ، لكن ما لبثت مخاوفى تزداد حتى غشانى الرعب تماماً حين انزلق جرذ داخلاً من ثقب فى الباب ووقف بالقرب منى وثبت عينيه بقوة فى عينى كانت جرأة الحيوان الصغير بالغة ومخيفة ، بيد أنى استطعت أن أصيح به : «أخرج من هنا أيها الحيوان الحقير القذر وإلا كسرت عنقك ! اذهب والعب مع رفاقك الفئران ، هل تسمعنى ؟ إننى أعنى ما أقول» .

انقلب الجرذ على عقبيه وخرج من الغرفة ، وفى أثناء خروجه غمرنى نوم مباغت عميق وجرنى إلى أعماق حلم سحيق ، فوقعت على الأرض كالميت حتى أن أبولّو لم يكن بقادر على التمييز أيهما كان الجثة ، الجسد المسجى على الرخام أم الجسد الملقى على الأرض . لقد بدا الأمر وكأننى متُ فعلاً وأن جثتى تركت دون أن تجد من يحرسها !

أخيراً بدأت الظلمة تنقشع ، فانتفضت مستيقظاً على صوت غراب حاد

النبـرة ، والتقطت المصبـاح ودققت النظر فى وجـه الجـثة بإمـعان ، وكـان ارتياحى غـامراً حين وجدتـها لـم تمس . وفى التو اندفـعت الأرملة المسكينة داخلة ، وهى لا تزال تجهش بالبكاء ووراءها الشهود السبعة ، ألقت بنفسها على الجثة ، وبعد أن قبلتها مرات ومرات طلبت المصباح لتستوثق عن قرب أن كل شئ على مـا يرام ، ثم التفـتت وصاحت : «فيـلودسبوتيس ! تـعالى هنا!» فظهرت وصـيفتها ، «فـيلودسبوتيس ! ادفعى لهـذا الشاب أجره فى الحال ، لقد قام بواجبه على خير وجه» .

قلبت القطع الذهبـية البراقـة فى يدى بهدوء ، تعـمنى البـهجـة بحظى الحسن على غير انتظار ، وأجبت : «أشكرك كثـيراً يا سيدتى، ويسعدنى أن أخدمك مرة أخرى كلما احتجت إلى خدمتى !» .

ولم تكد هذه الكلمات تـخرج من فمى حتى اندفع أهـل البيت جميـعاً نحوى باللطمات واللعنات علّهم يمنعون وقوع الفأل السئ الفظيع ، لكمنى أحدهم بقبضـته فى وجهى ، ووكزنى آخر بمرفقـه فى كتفى ، وركلنى ثالث بقدمـه فى قفاى وقبـل أن يلقوا بى خارج البيـت كانت أضلاعى مهـروسة وشعرى مقطعاً وملابسى ممزقة ، فشعرت كأننى أدونيس حين هرسه الخنزير البرى أو أوفـيوس حين قطعتـه نسوة تراقيا إربـاً ، وحين توقفت فى الطريق بعـيداً عن البـيت لأسـترجع حـواسى وأدركت مغـزى ما قلت - وكـانت ملاحظات جانبها التوفيق تماماً - عرفت أننى نجوت بأقل خسارة ممكنة ، إذا ما اعتبر واقع الحال .

بعد الإجراءات المعـتادة ، وبعد أن ناداه أقاربه باسـمه فرداً فرداً ، خـشية أن يكون فى مجرد غيبوبة ، أخرج الميت من البيت ، وإذ كان رجلاً من علية القوم فـقد كـرم بجنازة عامـة ، فلما بلغ مـوكب الجنازة السوق جـاء شيخ يجرى والدمـوع تنهمـر على وجهـه ، وهو يمزق خصل شعـره الأبيض فى

نوبة من الأسى البليغ ، ثم أمسك بالنعش المفتوح بيديه الاثنتين وصرخ يطلب الانتقام .

«يا أهل هوباتا !» هكذا صاح وصوته تخنقه العبرات «أتوسل إلى شرفكم ، أتوسل إلى إحساسكم بالعدالة والواجب العام ! قفوا إلى جانب مواطنكم - ابن أخى المسكين ، إثأروا لموته من تلك المرأة الشريرة - أرملته ، هى ، هى وحدها ، القاتلة ، قتلته لتستر صلة حب وتستحوذ على أملاك زوجها ، قتلته بالسم البطئ» ، ومضى الشيخ فى نواحه ونحيبه حتى هاج الجمع عطفاً عليه، وفى ظنهم أن قد يكون ثمة أساس صادق لاتهامه . صاح بعضهم :«إحرقوها ! إحرقوها !» وآخرون : «ارجموها حتى الموت!» وتشجع زمرة من الشبان الأشرار للنيل منها دون الالتفات إلى القانون .

وقد أنكرت المرأة جرمها بالأيمان والدموع (رغم أنه لم يكن فيهما كبير إقناع) والدعاء الموثق لكل الأرباب والربات فى السماوات أن يشهدوا على عجزها المطلق أن ترتكب مثل هذا الإثم .

«فليكن» - قال الشيخ «إننى أرجع القضية إلى حكم قدسى ، ها هنا زاتكلاس المصرى ، أحد كبار محضرى الأرواح فى وطنه ، الذى تكفل ، لقاء أجر كبير ، بأن يستحضر روح ابن أخى من عالم الأموات ويقنعها بأن تعيد الحياة إلى الجثة فترة قصيرة من الزمان » .

كان الشخص الذى قدمه للجمع يرتدى ثوباً من قماش أبيض وينتعل خفين من سعف النخيل فى قدميه ، وقد حلق رأسه تماماً . فقبل الشيخ يديه وخبط ركبتيه متضرعاً : «يا صاحب الغبطة ! ارحمنى ، أدعوك باسم نجوم السماء وآلهة العالم السفلى وعناصر الطبيعة الخمسة ، أدعوك بسكون الليل، بالسدود التى بنتها خطاطيف إيزيس حول الجزيرة القبطية ، بفيضان النيل ، وبأسرار ممفيس ، وأدعوك بجلجلة فرعون المقدسة - أتوسل إليك

بهذه المقدسات أن تمنح روح ابن أخى عودة قصيرة إلى دفء الشمس ، وأن تنير عينيه حتى تنفتحا ويستعيد فى التو مانسيه بهبوطه إلى عالم الأموات . إننى لا أجادل القدر ، ولا أنكر على القبر ما هو له ، كل رجائى غيبة قصيرة قد يعيننى الميت خلالها فى الثأر لمقتله - العزاء الوحيد لى فى شجنى الغامر» .

لمس محضر الأرواح فم الجثة ، وهو يتمتم بتعاويذه ، ثلاث مرات بعشبة صغيرة ووضع أخرى على صدرها ، ثم استقبل المشرق يصلى سراً لقرص الشمس المقدس الطالع . احتبست أنفاس الجمع الحاشد فى السوق ترقباً أمام منظر هذه التهيئة الجادة ، ووقف الجميع استعداداً للمعجزة فاندفعت وسط الحشد وعلوت حجراً خلف النعش بالضبط حيث شاهدت المنظر كله بتطلع مستثار .

فى الحال بدأ صدر الجثة يعلو ويهبط، وشرع الدم يتدفق ثانية فى عروقها، فجلس الميت ونطق بنبرة المتشكّى : «لماذا تستعيدوننى إلى متاعب هذه الحياة المرحلية وقد شربت من جدول الليثى وطفوت على مياة نهر الستوكس ؟ دعونى وشأنى ، أقول لكم ، دعونى وشأنى ! دعونى أَنَمْ دون إزعاج !» .

رفع محضر الأرواح صوته مستثاراً : «ماذا ؟ أترفض أن تخاطب أهل بلدك وتجلو غامض ميتتك ؟ ألا تعلم أننى مستعد ، إن أخفيت تفصيلاً من الأمر ، أن أدعو جنيات الرعب ليعذبن كل طرف من أطرافك بأدواتهن الحديدية ؟»

هنا رفع الميت نفسه كرة أخرى وزمجر مخاطباً الجمع : «لم يعد السرير الذى كنت أحتله حتى الأمس خالياً ، فيه ينام غريمى ، لقد سحرتنى زوجتى ودست لى السم» .

وقد أظهرت الأرملة شجاعة ملحوظة فى هذا الظرف ، أنكرت كل شئ

مقسمة بأغلظ الأيمان ، وشرعت تجادل المرحوم زوجها وتحاجه كما لو أنه ليس ثَم شئ من احترام الأموات ! أما الجمع فقد انقسم فريقين : نادى بعضهم بدفن المرأة الخبيثة حية فى القبر المعد لضحيتها ، بينما رفض الآخرون قبول دليل من جثة لا إدراك لها وقالوا إنه لا يوثق بها ، غير أن الجثة سرعان ما حسمت الجدل بزمجرة مجوفة أخري ، قالت الجثة : «سأقدم لكم دليلاً لا يدحض على ما أن ما أقوله لكم هو الحق ، وذلك بأن أكشف عن شئ لا يعرفه أحد سواى» ثم أشارت إليّ وقال : «بينما كان هذا الفتى الطالب المثقف يحرس جثتى بعناية حاولت الساحرات الرهيبات اللاتى كن يحمن غير بعيد يتحيّنّ فرصة سرقتها ، قدر جهدهن أن يخدعنه بتغيير هيئاتهن ، غير أنه تفطن لكل حيلة منهن ، ورغم أن باب الغرفة كان موصداً بإحكام فقد انزلقن داخلات متخفيات فى شكل جرذان وفئران من ثقب فى الباب ، وألقين سحابة من النوم عليه فوقع فاقد الإحساس ، ثم نادينني باسمى مرة بعد مرة ، جاهدات أن أطيع أوامرهن السحرية ، لم تستطع مفاصلى الواهنة وأطرافى الباردة ، رغم كل الجهد ، أن تستجيب فى الحال ، لكنه حدث أن اسم هذا الطالب الذى أرسل فى غيبوبة هى ضرب من الموت كان كاسمى ، فلما نادت الساحرات : ثيلوفرون .. ثيلوفرون .. تعال : استجاب بحركة آلية ، ونهض كشبح فاقد الشعور يقدم إليهن وجهه ليقتطعن منه ما انتوين اقتطاعه من وجهى ، فقضمن أولاً أنفه ثم أذنيه ، ولكى يصرفن الانتباه عما فعلن عوضنه بأنف من الشمع يشبه أنفه وأذنين من الشمع كذلك والفتى المسكين يحسب أنه أحسن جزاؤه عن سهره ، فى حين أنه عوض تعويضاً بخساً عن خسارة فادحة ! » .

عمنى الهلع من هذه القصة ، فوضعت يدى على وجهى لأرى ما إذا كانت حقيقة فسقط أنفى ، ثم لمست أذنى فسقطتا هما أيضاً ، أشارت مائة يد من الجمع نحوى ، وانطلقت موجة عالية من الضحك ، غطانى عرق

بارد ، ووثبت من فوق الحجر وتسللت من بين الأقدام ، مثل كلب خائف ، مبتور الأذنين مجدوع الأنف أبدو مضحك الشكل ، ولم أعد بعدها إلى ملطة ، وها أنا الآن أخفى فقدان أذنى بأن أرسل شعرى طويلاً على جانبى رأسى وألصق أنفاً مستعاراً على وجهى لأخفى ما لحق بى من تشويه» .

***

انطلقت ضحكات الضيوف السكارى من أعماق قلوبهم حين بلغ ثيلوفرون ذروة قصته ورفعوا أيديهم بنخب إله الضحك كالعادة ، وقالت برهاينا تشرح الموقف : «منذ أن أنشئت هوباتا ، لنا احتفال فريد فى بابه هو احتفال يوم الضحك السعيد ، أنا واثقة من أنك ستحضر الحفل غداً ، لاسيما وأنك ستكون قادراً على التفكير فى فكاهة منك إسهاماً فى الاحتفال ، ترى أن (الضحك) إله نوقره توقيراً كبيراً» .

فأجبتها بانشراح : «سوف أحضر حتماً ، وكل ما آمله أن أكون قادراً على ابتكار شئ جيد فعلاً ، شئ مضحك جداً لا أستحى من تعليقه فى عنق معبودكم العظيم نفسه !» فى هذه الساعة كنت شربت بقدر ما أردت ، وحين جاء عبدى إلى مائدتى وأخبرنى بأن الوقت بلغ منتصف الليل استأذنت من برهاينا على عجل وخرجت مترنحاً فى الظلمة . كان العبد يحمل فى يده سراجاً ، غير أن هبَّت ريح مفاجئة أطفأته فى منتصف أول شارع ، وقضينا وقتاً عصيباً نتلمس طريقنا من بابا إلى باب ، تعلق إبهام أقدامنا بأحجار الطريق المرصوف فنقع عليها ، وحين بلغت الزقاق الذى كان به بيتنا رأيت فجأة ثلاثة رجال ضخام يحاولون تحطيم باب منزل ميلو الرئيسى بكل ما أوتو من بأس . لم يبد عليهم الاجفال بوصولنا ، بل صاروا أكثر عنفاً من ذى قبل ، وهم يضربون الباب بأقدامهم ليخلصوا عنه روافده ، لم يساورنى شك فى أنهم سراق منازل ، ولم يكن لعبدى شك

كذلك ، فسحبت سيفى من تحت عباءتى ، حيث كنت أخفيه لساعة مثل هذه الساعة ، واندفعت نحوهم ، وحين التفتوا لمواجهتى طعنتهم واحداً بعد الآخر وأنا أغرز النصل فى جسد كل منهم حتى حدة ، فسقطوا على الأرض ، وأعدت الطعن مراراً وهم يحاولون القيام ، حتى لفظ ثلاثتهم الأنفاس تحت قدمى .

أيقظت الجلبة فوتيس فأسرعت تفتح الباب لى ، فحبوت إلى داخل البيت ألهث متقطع الأنفاس والعرق يقطر منى ، وألقيت بنفسى على فراشى ، وغشانى النوم فى لحظة ، وقد أرهقنى القتال كما لو أننى كنت ، مثل هرقل ، أقاتل جريون ملك الجزيرة الحمراء ذا الأجساد الثلاثة فى جسد واحد ! ◆

الفصل الرابع

مهرجان الضحك

كان الفجر قد شرع ينشر بذراعه الوردية المرفوعة (كما يقول الشعراء) أشعته البراقة فى سماء الصباح حين صحوت من نوم هادئ ، كما لو أن النوم أسلمنى إلى رعاية النهار . تذكرت بغتة أعمال العنف التى ارتكبتها عندما كان الليل مرخياً سدوله ، وبدأ عقلى يدور ، جلست متربعاً ، منحنى الظهر ، فى فراشى وأصابعى تنعقد وتنفك بحركة عصبية ، وأنا أهز ركبتى، وفى الحال انفجرت بالبكاء وأنا أصور لنفسى منظر المحكمة ومحاكمتى ثم إدانتى وجلاّدى ثم إعدامى ، «كيف أرجو أن أجد قاضياً» هكذا سألت نفسى «قاضياً طيباً واعياً يبرئنى من تهمة القتل العمد لأولئك الرجال الثلاثة العزل من السلاح ؟ أظن أن هذا ما عناه ديوفانيس الكلدانى حين تكهن لى واثقاً بأن رحلتى ستكون سبباً فى ذيوع صيتى» .

كنت لا أزال مسترسلاً أتفكر فى مغامرتى المشؤومة وعواقبها المحتملة حين بلغ مسمعى طرق عنيف على باب المنزل الرئيسى يصحبه نداء صارخ، وما أن فتح حتى اندفع عدد كبير من الناس داخلين يتزعمهم أعضاء المحكمة وقادة شرطة المدينة ، واحتلوا كل غرفة فى البيت . أُمر شرطيان بالقبض عليّ ، فجذبانى بشدة رغم أننى لم أبد أية مقاومة فلما بلغنا نهاية الزقاق رأيت لدهشتى جمعاً حاشداً فى انتظار ظهورى - كان أهل هوباتا عن بكرة أبيهم حاضرين فيما بدا لى . شئ واحد كان أبعث على الدهشة وأنا أمشى فى الطريق بائساً أنظر إلى الأرض التى كنت أخشى أن روحى

ستهبط من خلالها إلى العالم السفلى الكئيب ، وهو أننى كلما رفعت رأسى وألقيت نظرة خاطفة على الحشد الحاشد المصطف على جانبى الطريق لم أر من بين عديد الآلاف من البشر شخصاً واحداً لم يكن منفجراً بالضحك .

وبدلاً من أن أؤخذ إلى السوق مباشرة ، حيث تجرى المحاكمة ، أخذت عبر طريق دائرى طوف بى من ركن إلى آخر ، كما لو أننى القربان يقاد عبر شوارع المدينة الرئيسية حين تشاهد نذر الشؤم وتدعو الحاجة إلى استرضاء الأرباب . وأخيراً وضعت فى قفص الاتهام واتخذ القضاه أماكنهم على منصة المحكمة ، غير أن الاعتراضات سمعت من كل جانب حين زعق كاتب المحكمة طالباً الصمت «حاكموه فى المسرح بدلاً من هنا !»، «قفوا!! قفوا !!» «حاكموه فى المسرح !» .

ولما كانت القضية ذات أهمية تفوق العادة فقد وافق القضاه على تغيير محل النظر فيها ، وأفرغ الجمع الحاشد نفسه فى المسرح بسرعة خارقة . كان كل مقعد فيها مشغولاً ، وكل مدخل مسدوداً ، بل حتى سطح المسرح كان يغص بالناس . بعضهم ارتقى أطراف الأعمدة وتعلق آخرون بالتماثيل وحشر بعضهم نفسه فى النوافذ أو فتح فرجة فى خشب السقف ليتمكن من المشاهدة ، وبدا أن ما من أحد كان ملتفتاً إلى سلامته فى أثناء هذه الرغبة الجماعية فى رؤية محاكمتى . قادنى رجال الشرطة عبر المسرح ووضعونى فى مقدمته قريباً من موضع عازفى الموسيقى ، كما لو أننى القربان يعرض أمام الناس ليتملوه !

بدأ كاتب المحكمة يزعق مرة أخرى ، داعياً شاهد الإثبات الأول للإدلاء بشهادته ، فنهض رجل متقدم فى السن لم أكن أعرفه ، وتقدم دعى . للكلام حتى ينتهى الماء فى الساعة ، وكانت عبارة عن كرة مجوفة ملئت ماءً ليتسرب ببطء عبر ثقب صغير فيها ، فقال :

«إن واجبى أيها السادة القضاة ، أن أدلل على أمر أراه ذا خطر عظيم إذ هو يؤثر فى سلامة المدينة بأكملها ، واثقاً من أن حكم حضراتكم سيكون مثلاً يحتذى به ، وإن إحساسكم بالكرامة الوطنية لن يسمح لكم بالتهاون فى جريمة قتل مواطنيكم الدموية المتعددة التى ارتكبها هذا الوغد الماثل فى قفص الاتهام . ينبغى على حضراتكم ألا ترتابوا فى أننى مدفوع بدافع شخصى فى تقديم هذا الاتهام . إننى رئيس عسس المدينة ، وأشك فى أن ثَمّ إنساناً يمكنه اتهامى بعدم الانضباط فى آداء واجباتى . فأذنوا لى أن أقص عليكم تفصيل ما حدث بالضبط الليلة البارحة . حوالى منتصف الليل كنت أنهى تطوافى ، وقد تجولت فى كل شارع واستوثقت من أن كل شئ على ما يرام ، شد انتباهى هذا الشاب وهو يركض كالمجنون الهائج وسيفه مصلت فى يده فى زقاق خارج المدينة بقليل . فلما وصلت وجنودى كان ثلاثة رجال سقطوا قتلى تحت قدميه ، والدم يتفجر من جراحهم ، وقد فرّ القاتل من فوره ، مدركاً بجلاء بشاعة جريمته ، ورغم العتمة رأيناه يتسلل إلى بيت قريب حيث لبث طيلة الليل ، وضعنا البوابة تحت الحراسة ، واستطعنا برحمة الأرباب التى تأبى أن تمر جريمة من هذا القبيل دون عقاب، أن نأخذه بكور هذا اليوم قبل أن يتدبر أمر الفرار من باب جانبى ، وقد جئت به الأن أمام حضراتكم لتحكموا عليه بما يستحق من عقاب ، إنه قاتل من الدرجة الأولى ، قبض عليه مضرج اليد ، ورغم أنه ليس من مواطنى ثساليا فإننى لواثق من أن الحكم عليه سيكون شديداً كما لو كان أن اسمه مسطر فى سجلات المدينة» .

لم يكد يكمل كلامه حتى وثب كاتب المحكمة وأمرنى بأن أشرع فى الدفاع عن نفسى إذا كان عندى دفاع . لم أستطع فى البداية شيئاً إلا النحيب ، لا بسبب من قسوة التهمة بقدر ما كان السبب تأنيب الضمير ، بيد أننى ألهمت أخيراً ، بشكل أو بآخر قدراً من الجرأة للدفاع .. فقلت :

«حضرات القضاة ! مهما بلغ صدق روايتي عن الظروف التى لاقى فيها مواطنوكم الثلاثة هؤلاء مصيرهم على يدى - وهم الذين جئ بجثثهم دليلاً ضدى - فإنى لأعلم علم اليقين مدى صعوبة إقناعكم ، وهذا الجمع الكبير، ببراءتى من القتل العمد .

إن تفضلتم بالإصغاء إلى قليلاً ، فإنى كفيل بتوضيح أننى أقف هنا الآن فى قضية قد تكلفنى حياتى ، لا بسبب أية نزعة إجرامية فيّ ، بل نتيجة حادثة إذ سمحت بالغضب للحق أن يسيطر على نفسى ، وما حدث أننى عدت البارحة من حفل عشاء متأخراً نوعاً أكثر من المعتاد ، ثملاً من الشراب - أعترف بهذا - وما أن بلغت منزل مواطنكم المبجل ميلو الذى أنا ضيفه ، حتى رأيت عصابة من الأوباش تحاول دخول البيت عنوة . كانوا قد حطموا مساند البوابة الحديدية وكانوا يتوعدون بقتل كل من فى البيت ، وقد صاح زعيمهم الضخم الجثة الذى كان يقوم بالعمل الأكبر : «هيا يا شباب ! بيّنوا من أى طينة أنتم ! حين ندخل سوف نقتلهم جميعاً ، لا تراجع الآن ، من يقاوم تحطم جمجمته ، من يكن فى فراشه يرسل فى نومة أبدية ، الموتى لا يخبرون بشئ !» وعندها .. أعترف يا حضرات القضاة ، بأننى سللت سيفى الذي أحمله احتماء من خطر من هذا القبيل ، حسبت أن من واجبى إخافة هؤلاء السفلة المتعطشين للدماء بإظهار القوة لهم ، وبدلاً من أن يفروا حين رأوا أننى ذو سلاح ، وقفوا فى أماكنهم بوقاحة وأبدوا أهبتهم للقتال . اندفع زعيمهم - إذا كان لى أن أسميه كذلك - نحوى وأمسك بشعرى بيديه وشرع يشد رأسى إلى الوراء وصاح : «بسرعة! هاتو حجراً ! حطموا جمجمته !» لكننى استطعت لحسن الحظ ، أن أغرز سيفى فى جنبه قبل أن يحصل على بغيته ، فوقع عند قدمى ، وقبض الآخر على عقبى وحاول عض قدمى ، غير أننى عاجلته بطعنة تحت عظم كتفه ، ثم سحبت سيفى واستقبلت الثالث مسرعاً بضربة صرعته .

انتهى القتال ، وشرعت أهنئ نفسى إذ صنت حياة مضيفى ومضيفتى وحافظت على الأمن فى المدينة ، لقد كنت فى الحقيقة انتظر ألا أسامح فى ما فعلت فحسب بل أن أثاب على ما قدمت من خدمة ، وإنى لمندهش الآن، أستغرب من تهمة القتل العمد هذه ، وأنا على كل حال ، رجل عالى المقام فى بلادى ، ولم أتهم أبداً بأدنى جرم . إن تقديرى لسمعتى يفوق كنوز الأرض جميعاً . ولا أحد فى هذا المسرح بأكمله يستطيع أن يبرهن على أنه كان لى أدنى خلاف قبل الليلة البارحة مع هؤلاء الأشرار الأوغاد ، أو أنه كانت لى صلة بأى منهم ، إن كنت متهماً بالسلب فليركم الادعاء شيئاً واحداً يزعم أننى أخذته من فوق أجسادهم ، إننى اعترف بذنب واحد هو القتل المبرر ليس غير» .

ثم انفجرت باكياً مرة أخرى ، ويداى ممدودتان توسلاً ، لائذاً بروح الإنسانية من جمهور المشاهدين ، وتضرعت إلى الجميع بكل عزيز لديهم أن يرحمونى ، فلما ظننت أن دموعى وبؤسى الواضح خلقا انطباعاً لمصلحتى ابتهلت إلى عيون العدل اليقظى ، بل الشمس ذاتها ، أن تعلن براءتى أمام مجلس الآلهة المقدسة ، وأخيراً جرؤت على أن أرفع هامتى قليلاً فرأيت - لذعرى - الجمهور بأكمله يهتز حبوراً يحاول كتمانه .. الجمهور كله يكتم ضحكة ما عدا ميلو ، مضيفى الطيب ، صديقى ، حامي، الذى كان جالساً فى مقدمة الحاضرين يقهقه دونما خجل .

فكرت فى نفسى : «أيتها السماوات الرحيمة ! أليس له قلب ؟ هل عدم الضمير ؟ أنقذ بيته من السطو وأنجيه وأهله من القتل ، وحين أقف هنا بتهمة قد تكلفنى حياتى أجده لا يرفع إصبعاً لإنقاذى ، بل يجلس ويكركر ضحكاً فى انتظار موتى !» .

فى تلك الأثناء جاءت شابة تركض عبر ممشى المسرح الرئيسى تحمل على صدرها طفلاً وهى تعول ، تتبعها عجوز شمطاء فى أسمال قذرة ،

كانت الاثنتان تنتحبان بأعلى صوتيهما وتحضران فى أيديهما أغصان الزيتون علامة الاسترحام ، صعدتا المسرح ، وانحنتا حيث مددت الجثث الثلاث مغطاه بقطعة قماش ، وطفقتا تضربان صدريهما زاعقتين ، صرخت الحيزبون «يا حضرات القضاة أدعوكم باسم الشفقة ، أدعوكم باسم الضمير ! لهؤلاء الشباب الرائعين الثلاثة أم .. أرملة مسكينة .. تطلب الثأر لمقتلهم البشع» وصاحت المرأة الصغرى : «أكبرهم كان زوجى - وها أنذا الآن أرملة تعيسة مسكينة ، لكن مهما يحدث لى ، يا حضرات القضاة ، فأرجوكم على الأقل ألا تنسوا طفلى الذى يُتّم على صغر ، أتوسل إليكم أن تمحوا بدم هذا القاتل تلك الجريمة النكراء التى ارتكبت فى هوباتا - مدينتنا المطيعة للقانون» .

نهض رئيس القضاة وخاطب الجمهور : «بما أنه ما من أحد حتى ولا المتهم لوكيوس ، يمكنه أن ينكر أن هذه جريمة تتطلب أشد العقاب ، فلم يبق أمامنا سوى القيام بواجبنا التالى وهو معرفة شركائه فى هذه الفعلة الشنعاء، يبدو من غير المحتمل أن فى مكنته قتل رجال أشد كهؤلاء وحده ، لكن العبد الذى رافق المتهم من حفل العشاء إلى بيته اختفى بطريقة غامضة وتركه شاهداً وحيداً على الجريمة ، وعلينا استخلاص الحقيقة منه عن طريق التعذيب : حتمٌ علينا أن نجبره على البوح بأسماء عصابته حتى يهدأ بالنا - فلعلهم يهيئون لشرور أكبر» .

وفى الحال أحضرت أدوات التعذيب المستعملة عادة فى بلاد اليونان ، موقد الجمر لكيّ أطراف قدمى ، والعجلة لفك مفاصلى ، ناهيك بالألة المسماة (القطة ذات الذيول السبعة) ثم «الفلقة» الفظيعة ، وقد تضاعف بؤسى حين أدركت أنه لن يسمح لى بالموت دون تقطيع أطرافى ، وكنت فى انتظار أن يبدأ تعذيبى حين تقدمت الحيزبون ، التى أفسدت كل شئ بزعيقها، وتوسلت إلى القضاة : «قبل أن تصلبوا هذا المجرم الذى قتل

فلذات كبدى ، أرجو حضراتكم أن تأذنوا بأن يكشف عن جثثهم حتى يرى الجميع هنا شبابهم وجمالهم ، سوف يزيد هذا فى غضبكم وتصرون على عقاب قاسٍ قسوة الجريمة ذاتها» .

عم السرور الجمهور ، فأمرنى القضاة على الفور بأن أمضى وأزيح غطاء الجثث . رفضت القيام بهذا العمل ، وغالبت جنود الشرطة الذين حاولوا أن يجعلونى أطيع الأمر ، وجدت من المفزع أن أطيع أمر كشف جريمتى أمام الجمهور بعرض ضحاياى ، بيد أنهم استطاعوا أن يلووا يدى من على جانبى ويمدوها فوق الأجساد المطروحة ، لم يكن ثم بد ، وكان عليّ الاستسلام مهما كانت النتيجة ، فأمسكت بطرف الكفن ، والتردد الخائف يملأنى ، وجذبته .

لكن .. يا إلهى !! ما هذا ؟ ما هذا المنظر الخارق ؟ ما هذا التحول الكامل فى الموقف برمته ؟ منذ لحظة عددت نفسى عبداً للملكة بروسربين أساق إلى قاعات زوجها الجهنمية - والآن .. لا شئ من هذا القبيل ! فوقفت أحدق بغباء كالمعتوه ، وحتى اليوم أجد من العسير عليّ تبيان الأثر الصاعق الذى كان لهذا المنظر فيّ . لم تكن الجثث الثلاث سوى ثلاث قرب ، مثقوبة فى أماكن مختلفة ! وبقدر ما أذكر تفاصيل معركتى واللصوص ، كانت الثقوب تتفق تماماً ومواقع طعنات سيفى !

بعدها انفجر الضحك الذى كان حتى تلك الساعة يمنعه مديرو المسرح بخبث أن يعلو من الجمهور ، انفجر صاخباً من جميع أرجاء المسرح الواسع. كان قسم من الحاضرين يغمرنى بالتحيات باعتبارى مثال المرح والفكاهة ، غير أن الكثيرين لم يقدروا على شئ سوى وضع أيديهم على بطونهم تخفيفاً لشدة الضحك ، وقد انتهى الاحتفال بغتة ، وفى حين خرج الجمع الكبير كالسيل من المسرح ، فى فيضان من الحبور ، كانت الوجوه تلتفت لتنظر إليّ نظرة أخيرة تطفح بالبشر .

منذ لحظة أن شددت الكفن عن الجثث وقفت فى مكانى متصلباً بارداً كالحجر ، تماماً كما لو كنت أحد العمد الرخامية التى تمسك بالسقف ، ولم تكن روحى قد حلقت راجعة من ظلمات الموت حين أتى مضيفى وسحبنى معه برفق ، بعدها تفجرت دموعى مرة أخرى ولم أستطع كبح جماح عبراتى ، فأخذنى إلى البيت من الشوارع الجانبية والطرق الضيقة ليجنبنى حرج التعرف عليّ ، وقد حاول تهدئتى بكلمات مرحة يطيب بها خاطرى ، غير أننى كنت ألتهب إحساساً بالإهانة إذ كنت ضحية بهذا الأسلوب فلم يستطع معى شيئاً .

بعد قليل وصل القضاة إلى بيتنا وهم فى أرديتهم الرسمية وحاولوا جهدهم أن يخففوا عنى : «يا سيد لوكيوس ! إننا ندرك تمام الإدراك مقامك ورتبة عائلتك السامية ، فإن أسرة والدتك بالطبع ذائعة الصيت على طول بلاد اليونان وعرضها ، فلا تظنها إهانة مقصودة أن جعلناك موضع مراسم المهرجان التى أثرت فيك هذا التأثير كله ، نرجوك أن تنسى غضبك الآنى . الواقع أننا اليوم نحتفل مثل كل عام ، احتفالاً مهيباً تكريماً للضحك ، خير الأرباب أجمعين ويجب أن يحتفى به بدعابة عملية جديدة . الآن يصاحبك رب الضحك بمودة حيثما ذهبت ولن يتركك مهموماً أبداً ، وهو يمسح جبينك بألوان زاهية تدل على أنك من خلصائه ، أكثر من هذا .. لقد أسبغت عليك مدينة هوباتا بالإجماع أكبر شرف يمكنها أن تمنحه - لقد سجل اسمك فى سجل أكبر المواطنين الصالحين فيها ، وسوف يرفع الستار فى الوقت المناسب عن تمثالك النحاسى فى ميدان السوق» .

فأجبت بأدب : «أرجو أن تبلغوا مواطنى هذه المدينة الفريدة الرائعة عميق شعورى بالشرف الذى حظيت به ، ولكننى أرجو أن تغفروا لى اقتراحى بأن يحفظوا إقامة التمثال لمن هم أكبر منى وأجدر» ثم اغتصبت ابتسامة وأنا أستأذنهم فى مغادرتهم بلطف ، وجاهدت لأوحى إليهم أننى

كنت سعيداً كل السعادة .

ما أن خرجوا حتى دخل أحد الخدم مسرعاً : «تحيات السيدة برهاينا ، وهل يتفضل سيدى بأن يتذكر دعوتها للعشاء التى تكرم بقبولها الليلة البارحة ؟ سوف يصل الضيوف بعد قليل» فأجبته وقد اقشعر بدنى بمجرد ذكر بيتها : «أرجو أن تبلغ حضرتها أننى شديد الرغبة فى تلبية الدعوة ، لولا ارتباط لا أستطيع فكه ، لقد أقسم عليّ مضيفى ميلو باسم رب مهرجان اليوم ، أن أتعشى معه الليلة ، وأصر على ألا أغادر البيت وألا يخرج هو معى ، يؤسفنى أن أوجل هذه المتعة إلى مساء آخر مناسب» .

أخذنى ميلو بعد ذلك إلى أقرب حمام ، وقد أمر عبداً أن يتبعنا بمواد الزينة ، وكان رب الضحك فعلاً يصاحبنى حيثما ذهبت ، انكمشت من التحيات الضاحكة من كل من قابلنا ، وأنا ملتصق بجانب ميلو قدر ما استطعت ، أكاد أذوب خجلاً إذ جعلت هُزُؤَة ذلك اليوم ، ولست بمستطيع صدقاً ، أن أتذكر كيف تمكنت من أن أغتسل وأتعطر وأجفف جسدى فى الحمام ، بل كيف عدت إلى البيت . كنت مضطرباً مرتبكاً من نظرات أهل المدينة وإشاراتهم إليّ .

ازدردت لقيمات زهيدة حقيرة فى منزل ميلو ، ثم أعلمته بأن كثرة بكائى سببت لى صداعاً عنيفاً وأنه يجب على القصد إلى النوم فى الحال ، فعذرنى ميلو مدركاً حالتى ، ومضيت إلى غرفتى وألقيت بنفسى على الفراش حيث شرعت أتفكر فى أحداث اليوم .

بعد قليل دخلت حبيبتى الغالية فوتيس متسللة ، وقد أسلمت سيدتها آمنة إلى فراشها ، لم تكن مطلقاً فى بشاشتها المعتادة ولا حيويتها ، بل كانت قلقة مقطبة الجبين . بعد صمت طويل غمغمت قائلة : «لدى ما أعترف به يا لوكيوس ، أنا الملومة الوحيدة على كل ما حدث لك اليوم من

ضنك» ثم استلت سوطاً مجدولاً من تحت ثوبها ودفعته إليّ : «خذ هذا . ها هو . انتقم لنفسك من الفتاة التى خانتك ، الهب جسدى به كيفما شئت وحيثما شئت، فقط .. لا تظنن لحظة أننى تعمدت أن أسبب لك هذا العناء البالغ ، أشهد الآلهة جميعاً على أننى مستعدة لسفك دمى ولا أدعك تعانى أقل أذى يأتيك من قبلى ، أو تحس بأى ألم يحيق بك ، غير أن الشؤم يتبعنى دائماً ، أُمرت بعمل شئ آخر لسبب مختلف فكانت نتيجتة إيلامك على هذا النحو الفظيع» .

لم يكن فضولى خبا بتلك التجربة القاسية ، وكنت مشوقاً لمعرفة سر القرب الغامض ، فصرخت باستهجان : «أتحضرين لى هذا الشئ البشع الشرير وتدعيننى لأن أجلدك به ؟ سوف أقطعه إرباً قبل أن يلمس بشرتك الناعمة . لكن قولى لى يا حبيبتى ، أرجوك أن تقولى لى ، ما الذى فعلته بالضبط فجعلنى بائساً كل البؤس ؟ أقسم لك بوجهك الذى أحبه كل الحب أن ما من أحد ، حتى ولا أنت نفسك ، بقادر على إن يجعلنى أؤمن بأنك آلمتنى عمداً . من مبادئ العدل أن النية السليمة لا تعتبر نية آثمة لمجرد أن نتيجتها كانت نحساً عن طريق الصدفة» .

كانت عيناها نصف المغمضتين مخضلتين بالدمع ، ثم استعادت هدوءها وقالت : «يجب على أولاً أن أقفل الباب حتى لا يسمع أحد ما سأقوله لك - شئ خاص للغاية - فيقع كلانا فى أوخم العواقب» . قالت هذا وسارعت إلى إقفال الباب وتأمين مصراعيه ، ثم عادت إلى وأمسكت برأسى قريباً من رأسها ويداها معقودتان خلفه وبدأت فى همس رقيق : «إن لم أكن واثقة كل الثقة من كتمانك للسر لفزعت كل الفزع من إطلاعك على أسرار هذا البيت ، إنك من أسرة نبيلة ، وذو روح نبيلة ، وقد انتسبت إلى أسرار دينية متنوعة ، ولذا فإنى أعلم أنك لن تكشف لأحد أبداً ما سأنبئك به الآن . إن حبى العميق لك يدفعنى إلى البوح به ، وستكون الإنسان الوحيد فى العالم

الذى وثقت به ، قد تبدو قصة تافهـة لكن ينبغى أن تجارينى بأن تحفظها إلى الأبد سراً مكتـوماً فى أعمق أعـماق فكرك ، إذ هى تتعلق بمولاتى بامـفيلى وفنون السحـر التى تقدر بهـا على استـعباد الأشـباح والتحكـم فى النجوم وابتزاز الآلهة وأن تجعل العناصر الخمسة تحت إبهامها تماماً .

مولاتـى تستـخدم هذه الفنون كلمـا وقعت فى هوى فـتى وسيـم الأمر الذى يحدث كثيراً ، وهى الآن مولعة بحب فـتى من بويتيا جمـيل الصورة فى الحـقيـقة بشكل رائع ، وتستـعمل كل سـحرها لإغـوائه . مسـاء أمس سمعـتها تتوعد الشـمس بأنها سوف تلقى عليهـا سحابة من الظلام ، إن لم تسرع فـى الغروب لتتيـح وقتـاً أطول لتعـاويذها ، وتسلم الأرض إلى ليل سرمدى . كـان ذلك بعد أن رأت فتاها يقص شعـره عند الحلاق ، وأمرتنى سراً أن أمضـى إلى محل الحلاق والتقط بعض الشـعر الملقى على الأرض ، ورغم حذرى ألا ألفت الـنظر إليّ فقد شـدنى الحلاق الذى كـان يعرف أن بيتنا ذو سـمعة سيئـة فى عالم السحر الأسـود ، وصاح : «حقاً .. هذا كـثير جداً أيتها السـاحرة الصغيرة ! متى تمتنعين عن سـرقة شعر من يحلق عندى من الفتيان ذوى الجمال ؟ إن لـم تنه هذا العـبث حالاً فأنذرك بأننى سأقتادك مبـاشرة إلى المحكمة» ، ثم أفتك خـصلات الشعـر منى بكل فظاظة ، وكان غاضباً أشد الغضب . استأت لما حدث ، إذ أننى أعرف مولاتى تمام المعرفة ، إذ كلمـا قابلت مـثل هذا الموقف انحـدرت إلى طبع لئـيم وضربتنى ضـرباً مبرحاً ، فكرت فى الهرب ، لكننى عزمت ألا آتى شيئاً من هذا القبيل بمجرد أن فكرت فيك ، فلما عدت إلى البيت واجـمة رأيت رجلاً يجز شعر جلود الماعز بجلم فى يده . كـانت الجلود معلقة أمـام حانوته مربوطة من أعناقـها بقوة ومنفوخة بإحكام ، وتصادف أن لون شعرها كان أشقر لون شقرة شعر الفـتى البويتى ، فـالتـقطت جملة خـصل وعـدت بها إلى مـولاتى دون أن أخطرها شعر من كانت الخصل حقيقة .

عندما ساد الظلام صعدت متحفزة إلى غرفة سطح البيت ، حيث تجد مكاناً يوافق قيامها بسحرها سراً - غرفة مفتوحة للرياح الأربع وفتحة كبيرة تطل على السماء الشرقية ، كان كل شئ مهيأ لأداء طقوسها المميتة ، كل أنواع البخور النفاذة ، وألواح معدنية نُقشت عليها رموز سرية ، مناقير ومخالب طيور مشؤومة ، وقطع متنوعة من لحم الجثث - فى مكان رتبت أنوف وأصابع المصلوبين ، وفى مكان آخر وضعت المسامير التى دقت فى راحات أيديهم وعقبهم وقطع من اللحم لا تزال عالقة بها - كما كان هناك أكياس صغيرة ملئت دماً مأخوذاً ممن قتلت من الرجال ، وجماجم مجرمين كانوا ألقوا إلى السباع فى ميدان المصارعة . بدأت فى تلاوة بعض التعاويذ على أمعاء حيوان لا تزال حارة ترتعش ، وهى تغمرها على التوالى فى جرار من ماء النبع ولبن البقر وعسل الجبل ، ثم جدلت الشعر الذى أعطيتها إياه من قبل وعقدته ، وألقته وقدراً هائلاً من البخور على نار الفحم المعدة من قبل . إن قوة هذه التعويذة لا تقاوم - يسندها ، كما يجب أن تفهم ، جبروت الآلهة العمياء التى دعتها ، ورائحة الشعر ، يعلو دخانه على النار ، تجبر صاحبه على المثول فى المكان الذى استدعى إليه ، من هنا ترى أنه بدلاً من مجئ الفتى البويتى جاءت جلود الماعز تتعارك للدخول من بوابة بيتنا ، وقد أسبغ عليها السحر نفس الإنسان وحواسه وإدراكه ، ثم وصلت أنت أيضاً ، لسوء الطالع ، ثملاً ، وفى الظلمة الغامرة حسبت الجلود لصوصاً على سبيل الخطأ ،سللت سيفك بشجاعة ، مثل أجاكس حينما جن وحسب قطعان الغنم أعداءه ، لكن عملك كان أنبل إذ أنك لم تسفك قطرة من دم حتى وإن كان دم نعجة ، وها أنت الآن يا حبيبى ، عدت إلى ذراعى سالماً ، بعد صرعك للرجال الثلاثة - أعنى التيوس الثلاثة!» .

رددت المزحة قائلاً : «نعم أنا هرقل ! عملى الأول هذا يضاهى قتله للملك جريون ذى الأجساد الثلاثة ، أو أسره للكلب كربيروس ذى

الرؤوس الثلاثة ! ولكن إذا كنت تبغين أن أغفر لك من كل قلبى ما سببته لى من نكد فإن عليك القيام بعمل واحد من أجلى .. أريد أن أكون حاضراً، خفية ، عندما تستخدم مولاتك الآلهة الجهنمية فى المرة القادمة ، وبخاصة عندما تستخدم قواها الخارقة لتحويل نفسها إلى حيوان من الحيوانات ، إننى مصمم على معرفة كل شئ ممكن عن عالم السحر ، وأنت - بالمناسبة - تبدين عالمة به تمام العلم ، شئ واحد واثق منه كل الثقة ، رغم أننى تجنبيت دائماً حب حتى ربات الخدور من النساء فإننى الأن عبد مطلق العبودية لعينيك البراقتين، وخديك الورديين ، وشعرك اللامع ، إنها عبودية إرادية أيضاً، ولا يخطر على بالى أبداً التخلى عنك ، ولا أندم على بعدى عن وطنى أبداً» .

قالت «يسعدنى أن أفعل ما تطلب يا حبيبى لوكيوس ، غير أن بامفيلى وحش عجوز بالتأكيد ، وحين تشرع فى شعوذة من هذا القبيل تختلى بنفسها فى مكان منفرد ، تستوثق فيه من أن أحداً لا يزعجها. وعلى كل حال فلسوف أخاطر بكل شئ فى سبيل إرضائك ، وعليه فسأراقب حركاتها بعناية وأعرفك متى انشغلت مرة أخرى ، لكن .. تذكر ما قلت لك ، يجب أن تعد بملازمة الصمت حول الأمر كله» .

◆ ....

الفصل الخامس

لوكيوس يتحوّل

اندفعت فوتيس ذات صباح داخلة غرفتى تنتفض نشوة ، وأنبأتنى بأن سيدتها تنوى تلك الليلة ، بعد أن أخفقت فى اجتذاب الفتى البويتى بالطرق المعتادة أن تتحول إلى طائر وتطير إليه فى داره ، ويجب عليّ أن آخذ أهبتى بعناية إذا ما رغبت فى مشاهدة الحدث .

عند السحر قادتنى بهدوء شديد جداً عبر سلم السطح إلى باب غرفته حيث أومأت لى بأن اختلس النظر من خلال شق فيه ، أطعت وبدأت أرقب بامفيلى فى البداية تنزع عنها ثيابها تماماً ، ثم فتحت صواناً صغيراً به جملة صناديق صغيرة فتحت احدها ملئ مرهماً ، أجالت فيه أصابعها وطلت به جسدها كله من أعلى الرأس حتى أسفل أخمص القدم ، ثم تمتمت برقية طويلة وانتفضت ، فبدأ الريش ينبت فى أطرافها - وأنا أرقبها - شيئاً فشيئاً، وتحول ذراعاها إلى جناحين قويين ، وتقوس أنفها إلى منقار ، وانقلبت أظافرها مخالب ، وسرعان ما أمحى كل ريب فى الأمر ، لقد صارت بامفيلى بومة ! زعقت وقفزت على الأرض قفزات صغيرة مادة جناحيها حتى تيقنت من قدرتها على التحليق ، ثم أشرعتهما وانطلقت تطير فوق سطح الدار .

لم أكن أنا نفسى مسحوراً وقتها ، لكن الدهشة شدتنى تماماً فوقفت متسمراً فى مكانى ، فركت عينى لأستوثق من أننى لوكيوس حقيقة وأن هذا لم يكن حلماً من أحلام اليقظة ، هل ترانى جننت ؟ استعدت إدراكى

بعد قليل ، وأمسكت بيد فوتيس ووضعتها ما بين عينى : «يا حبى الغالى !» قلت لها «أتوسل إليك أن تسدى لى فضلاً كبيراً - فضلاً لن آمل فى رده أبداً - دليلاً على حبك لى ، إن تفعلى هذا أعدك بأن أظل عبدك إلى الأبد ، هل تحاولين يا حلوتى أن تحصلى لى على قليل من هذا المرهم ؟ أريد أن أكون قادراً على الطيران ، أريد أن أحوم حولك مثل كيوبيد مجنح فى خدمة ربته !» .

فهمهمت وقالت : «إذن هذه لعبتك .. يا حبيبى ؟! تريد أن تخدعنى ، تسلمنى فأساً وتقنعنى بأن أبتر قدمى ؟ هذا كله حسن لكن لم يكن من اليسير عليّ أن أحفظك طيلة هذه المدة ، من ذئبات ثساليا ، كنت لهن لقمة سائغة لو لم أحمك بحبى ، فإذا صرت الأن طائراً كيف لى أن أتبع أثرك ؟ وأنى لى أن أراك مرة أخرى»

اعترضت : «لا سمحت آلهة السماء كلها أن أكون وغداً كما تظنين ، اسمعى : أتحسبين أننى لو تحولت إلى نسر وحمت فى السماء الواسعة مثل مبعوث جوبتير الشخصى ، أحمل صواعقه الرعدية فخوراً بين مخلبى ، أتحسبين حقيقة أن مثل هذا العزّ المجنح يمنعنى من التحليق كل ليلة عائداً إلى عش غرامى بين ذراعيك ؟ أقسم لك بعقدة الشعر الرائعة على هامتك تلك التى اشتبكت فيها روحى مستسلمة دون حراك ، أقسم لك أننى غير قادر بطبعى على حب أية امرأة أخرى فى الوجود بأكمله فيما عدا محبوبتى فوتيس ، ومهما يكن الأمر ، فإننى لو حسبت أن هذا المرهم يحولنى حقاً إلى طائر لوجب عليّ الابتعاد عن المدينة ، إذ البوم طيور بلغت من الشؤم حد أنها إذا دخلت بيتاً على سبيل الخطأ لم يبق أحد لا يبذل جهده فى الإمساك بها وتسميرها من جناحيها الممدودين على مدخل البيت ، وشئ آخر ، لو أننى غبت عنك وجربت حظى مع سيدات أخريات متنكراً فى شكل بومة ماذا ترين مدى ترحيبهن العظيم بى ؟ لكن هذا يذكرنى - ما هى

الرقية أو الترياق الذى يعيدنى كما كنت إن تحولت إلى بومة ؟» .

قالت : «لا تقلق من هذا الجانب ، لقد علمتنى مولاتى أشكال السحر وتركيباته كلها ، ليس بالطبع لشعورها الطيب نحوى بل لأن عليّ عندما تؤوب من إحدى مغامراتها أن أعد لها الترياق المناسب لتستعمله ، من العجيب فعلاً أن ترى مدى بساطة الأعشاب التى يمكن للمرء أن يستعملها لينال تحولاً كاملاً من شكل إلى آخر ، الليلة مثلاً لن تحتاج مولاتى إلى أكثر من شئ من الأقحوان وبعض أوراق الغار مغلية فى ماء النبع ، تشرب قليلاً من الماء وتغتسل بالباقى فتعود امرأة كرة أخرى فى الحال ، يمكنك أن تفعلِ الشئ نفه بعد طيرانك» .

استوثقت منها مراراً حول هذه النقطة بالذات قبل أن تذهب ، وهى ترتعد رعباً ، وتصعد سلم سطح الدار وتعود إليّ بصندوق من الصوان فطفقت أحضنها وأقبلها ، ثم شرعت أغمغم بتلاوة صلاة أدعو فيها لنفسى بطيران موفق ، ثم خلعت ملابسى ، وغمست يدى بشراهة فى الصندوق ، واغترفت كتلة كبيرة من المرهم طليت به بدنى كله .

وقفت أخفق بذراعى اليسرى فى البداية ثم اليمنى ، كما رأيت بامفيلى تفعل ، لكن لم يظهر عليهما ريش ولازغب ، ولم يبد عليهما أنهما تحولتا إلى جناحين ، كل ما حدث أن شعر ذراعى أخشوشن شيئاً فشيئاً وتيبس جلدهما وصلب ، بعدها تجمعت أصابعى لتصير كتلة واحدة وصارت يداى عبارة عن حافرين ، ولحق التغير نفسة فى قدمى ، وأحسست بذيل طويل ينبثق من أسفل عمودى الفقرى عند العصعص ، ثم انتفخ وجهى ، واتسع فمى ، وتدلت شفتاى تتأرجحان ، وانتصب أذناى طويلتين يعلوهما الشعر ... . وأخيراً - لم يكن لى إلا مواجهة الحقيقة المميتة وأنا أتفحص نفسى ، لم أتحول إلى طائر ، بل تحولت إلى جحش أوضح ما يكون !! أردت أن ألعن فوتيس على خطئها البليد ، بيد أننى وجدتنى

عاجزاً عن الكلام ، أو حتى الإشارة ، فظللت أصب جام غضبى عليها بتحريك شفتى السفلى والنظر إليها شزراً بعينى الكبيرتين المليئتين بالماء !

عندما رأيت فوتيس ما حدث لطمت وجهها بيديها الاثنتين فى نوبة من تأنيب الذات وأعولت : «أواه .. هذا كفيل بأن يقتلنى لابد أننى فى غمرة حيرتى وذعرى أخطأت الصندوق ، هناك صندوقان متشابهان تماماً ، ومع هذا فليست الأمور يا عزيزى من السوء كما تبدو ، لأن الترياق فى هذه الحالة أسهل شئ الحصول عليه ، كل ما عليك أن تمضغ بعض الورود فتعيدك حبيبى لوكيوس من جديد . لو أننى فقط أعددت أكاليل وردى هذه الليلة ! إذن لوفرت عليك أن تبقى جحشاً وإن ليلة واحدة . عند أول تباشير الفجر ، أعدك بإخلاص أن أخرج وآتيك بما تحتاج إليه» . ومضت تلعن نفسها مرة بعد مرة لغبائها وعدم حيطتها ، ورغم أننى لم أعد لوكيوس ، ولا يدل مظهرى كله على شئ إلا على جحش ، مجرد دابة من دواب الحمل ، فقد احتفظت بقدراتى العقلية ، وكان لى مع نفسى حوار حاد عنيف عما كان ينبغى عليّ أن أعض فوتيس وأرفسها حتى الموت أم لا ، كانت ساحرة .. ألم تكن كذلك ؟ بل ساحرة شريرة أيضاً بيد أننى قررت فى النهاية أنه من الخطر ، بل من الغباء أن أقتل الشخص الوحيد الذى سيساعدنى على استعادة شكلى الإنسانى ، فابتلعت سخطى آنذاك ، وأنا أطأطئ رأسى وأهز أذنى إذعاناً ، وأسلمت نفسى لقدرى القاسى ، وتعثرت فى طريقى إلى الاصطبل حيث أجد على الأقل صحبة جوادى الأبيض الذى حملنى حين كنت إنساناً .

كان حصانى فى الاصطبل رفقه حمار آخر لمضيفى - أعنى مضيفى سابقاً - ميلو . وتوقعت فى الحق أن حصانى سوف يعرفنى ، إن كان للحيوانات العجماء شعور طبيعى بالولاء ، ويشفق عليّ من جراء مصيبتى، وأن يحتفى بى فى الاصطبل كما لو كنت سفير دولة أجنبية يزور بلاط روما

الإمبراطورى ! لكن حصانى - يا جوبتير المضياف ويا أرباب الولاء والإخلاص أجمعين ! - حصانى البديع قرن رأسه برأس حمار ميلو الفظيع على الفور ، يساورهما الشك فى أننى أتآمر على طعامهما ، وتحالفا ضدى ، فبمجرد أن اقتربت من عليقهما نصبا آذانهما إلى الوراء ، ودارا دورتين وشرعا يرفسانى فى وجهى. جوادى أنا؟! يا له من عرفان بالجميل! ها أنذا أبعد عن الشعير الذى اكتلته له منذ سويعات بيدى الاثنتين .

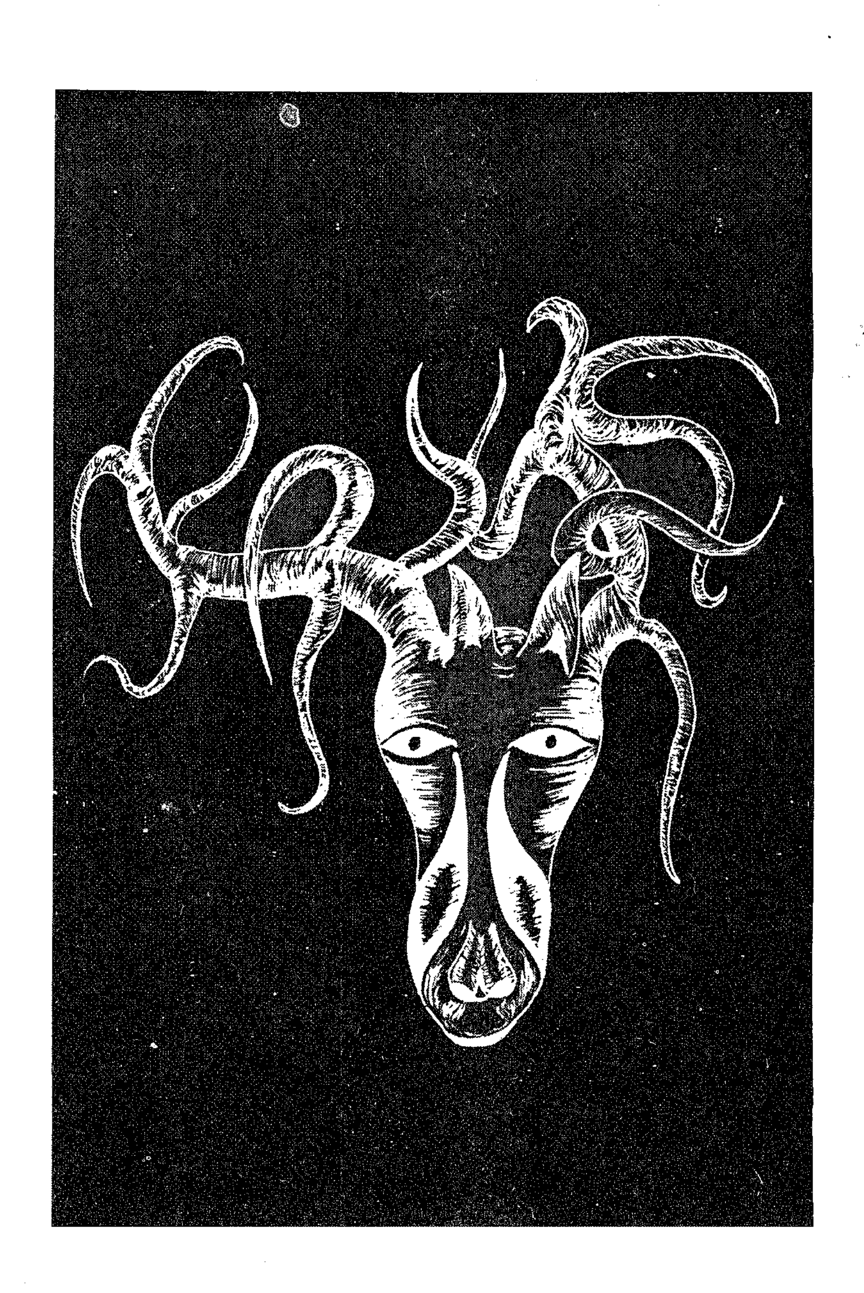
وفيما أنا واقف فى ركنى المنزوى منبوذاً من مجتمع رفاقى ذوى الأربع، عازماً على انتقام مروع منهما صباح الغد بمجرد أن آكل الورود وأعود لوكيوس كما كنت ، لاحظت هيكلاً صغيراً للربة إيبونا وسط كوة فى عمود الاصطبل الرئيسى ، محاطاً بورود قطفت منذ قليل - الترياق الذى أبحث عنه ، فتوازنت يملأنى الأمل ، على قدمى الخلفيتين ، ودفعت الأماميتين أبعد ما أمكننى ، ومددت رقبتى إلى أقصى مدى ومططت مشفرى إلى الأمام ، لكن حدث - بشئ من النحس فعلاً - قبل أن أتمكن من أكل وردة منها ، أن رآنى عبدى الذى كان يقوم مقام السائس وأنا منهمك فى العمل ، فهب غاضباً من فوق كوم القش الذى كان مستلقياً عليه وصاح : «شبعت إزعاجاً من هذا الجحش الأحمق الملعون ، فى البداية يحاول نهب طعام رفاقه ، وها هو الآن يحاول سرقة الأرباب ! إن لم أجلد هذا الحيوان النجس حتى لا يستطيع تحريك حافر واحد ...» ثم بحث من حوله حتى عثر على حزمة عصى التقط واحدة غليظة منها ملأى بالعقد ، كانت أكبرها وانهال دون رحمة يلهب بها كفلى ضرباً .

فجأة ارتفع صوت دق وخبط على باب البيت الخارجى وصيحات من بعيد : «اللصوص ! اللصوص !» ألقى السائس العصا من يده وفر فزعاً، بعيدها انفتح باب الباحة على مصراعيه واندفع اللصوص المسلحون :اخلين، أسرع بعض الجيران لمساعدة ميلو فتغلب عليهم اللصوص

بسهولة، كانت سيوفهم تلمع كأشعة الشمس المشرقة فى ضوء المشاعل التى كانوا يحملونها ، وكان معهم فؤوس حطموا بها باب الغرفة الرئيسية المتين المسدود بقوة فائقة ، غرفة مملوءة بأموال ميلو وجواهره أخرجوها عن آخرها وفرقوها على عجل إلى عدة صرر منفصلة ، كانت الصرر أكثر مما يستطيع اللصوص حمله فكان عليهم أن يعملوا الفكر فى الأمر بفطنة ، أتو إلى اصطبلنا واقتادوا ثلاثتنا وحملونا بأثقل الصرر قدر ما استطاعوا أن يكوموا على ظهورنا ، ثم ساقونا خارج البيت المسلوب والعصى تتوالى ضرباتها علينا ، وأسرعوا نحو التلال عبر طريق مهجور ، يضربوننا على طول الطريق ، بينما تخلف واحد منهم يتجسس على أن يلحق برفاقه بعدئذ ويعلمهم بما اتخذته السلطات من خطوات لمعالجة الجريمة .

كانت التلال منحدرة ، وحملى ثقيلاً ، وكانت الرحلة لا نهاية لها وسرعان ما أحسست بأننى أقرب إلى الموت منى إلى الحياة ، وباعتبارى مواطناً رومانياً قررت إخطار السلطة المدنية وأن أنقذ نفسى من بلائى الرهيب بالشكوى إلى الإمبراطور ، كان الوقت ضحى حين مضينا عبر قرية كبيرة تحتفل بمناسبة ما ، فحاولت أن أنادى باسم قيصر العظيم بحضور حشد من أهل تساليا ، وتمكنت من أن أزعق : «آ ...» بصوت مجلجل مبين.. ولا شئ غير هذا ! لم استطع أن أنطق بكلمة «قيصر» وقد أزعج نهيقى المنكر اللصوص فطفقوا يلهبون جلدى التعس بالعصى حتى صار لا يصلح غربالاً من غرابيل القمح المتسعة الثقوب !

أخيرا أتاح لى جوبتير المنقذ بكرم فرصة للنجاة ، فبعد أن اجتزنا أبنية المزارع العديدة وبيوت الريف الكبيرة رأيت بستاناً صغيراً رائعاً تملأه الأزاهير المتنوعة الأشكال والألوان ، ومن بينها بدت الورود فى براعمها لا تزال تقطر بندى الصباح ، انبهرت فرحاً وأسرعت من خطاى وأوشكت على بلوغ الوزود يسيل لعابى أملاً ورجاءً ، ثم - فى اللحظة الأخيرة -



أعملت الفكر فى خطتى ، من المؤكد أن اللصوص سيقتلوننى لو لم أظل جحشاً وصرت لوكيوس مرة أخرى - إما لاعتبارهم إياى ساحراً أو خشية أن أشي بهم ، على الآن أن أتناسى الورود وأمضى فى تحمل بؤسى مدة بأن ألوك شكيمتى مثل الحيوان الذى كنته .

حوالى منتصف النهار ، وتحت الشمس اللاهبة ، انحرفنا عن الطريق وأتينا دسكرة توقفنا فيها عند أحد المنازل ، فخرج رجلان أو ثلاثة يستطيع أى حمار أن يرى من طريقة تبادل التحية والعناق والحديث الطويل الذى تبع أنهم أصدقاء اللصوص ، أعطوهم شيئاً من الحمل على ظهرى وهمسوا بما لابد أنه كان تحذيراً بلزوم الصمت ، وعندما أنزل حملى وحمل حصانى وحمار ميلو أطلقنا لنرعى فى الزريبة المجاورة ، لم أكن اجتماعياً بالقدر المناسب لأستمتع بصحبة رفيقى ، لاسيما أننى لم أتعود أكل العشب بعد ، فوثبت بجسارة ، والجوع ينهش أحشائى ، إلى قطعة أرض خلف الزريبة زرعت بالخضراوات حيث ملأت بها معدتى ، فلما شبعت دعوت كل أرباب السماء فى صمت ونظرت فيما حولى متفحصاً - قد يصادف وجود شجرة ورد فى إحدى الجنائن القريبة ، وهذا مكان منزو تماماً بعيد عن الطريق تخفيه أشجار الفاكهة ، فلو عثرت على ترياقى واستعدت شكلى البشرى لكان من غير المحتمل أن يشهد أحد هذا التحول ، وبينما كنت أزن فرص النجاة متلهفاً رأيت على بعد ما بدا وهدة فى الأرض تحيط بها شجيرات زينة صغيرة ، ولمحت حمرة الورد البراقة تظهر وسط بساط الأوراق الزاهية الألوان ، صوّر لى خيالى ، وهو أبعد ما يكون عن خيال بهيم ، ذلك المكان كما لو كان أنه غيضة من غياض فينوس والحسان الثلاثة وألوان زهرتهن الملكية الرائعة تشع بالبهاء فى معبد فاخر . تلوت صلاة صامتة لآلهة الحظ ، وركضت بسرعة فائقة أحسست معها أننى جواد من جياد السباق أكثر منى جحشاً من الجحوش ، بيد أننى لم أستطع حتى بهذه

السرعة الفائقة أن أسبق القدر الذى كان يتعقبنى ، إذ لم أجد المكان الذى بلغته وهدة ، بل جدولاً تغطى ضفتيه الأشجار الكثيفة ، ولم تكن الورود الغضة الطرية ، تقطر ندى عسلياً تضحك فى وجهى سعيدة من خلال أكمامها ، ورودا كانت ما يسميه أهل الريف «ورد الغار» ، أزهاراً حمراء قدحية الشكل تنمو على شجيرة طويلة الأوراق تشبه الغار ، عديمة الرائحة تماماً وذات سم زعاف ، فصممت لشدة يأسى ، وقد ألفيتنى محاطاً بالنحس من كل جانب ، على أن أنتحر بأن آكل هذه الورود الزائفة .

مضيت فى سبيلى متردداً إلى الشجيرة ، فجأة جرى نحوى شاب ، لا ريب أنه كان صاحب قطعة الأرض المزروعة بالخضروات ، يملأه الغضب وفى يده عصاً غليظة ، ضربنى بقسوة انتقاماً للفساد الذى أحدثته حتى كاد يقتلنى لو لم أسارع للدفاع عن نفسى بأن أرفع مؤخرتى وأرفسه بكلتا قدمى الخلفيتين ، ثأرت منه برفسات شديدة متتابعة تركته معها ملقى على جانب التل لا حول له ولا قوة ، ثم أطلقت أقدامى للريح .

حدث لسوء الحظ أن زوجته - وأنا أظن على الأقل أنها زوجته - كانت واقفة على قمة التل ورأته ملقى أسفله مشرفاً على الموت فسارعت إلى نجدته وهى تصرخ : «اقتلوا جحش السوء ذاك ! كاد يقتل زوجى !» وعلى الفور خلّص جيرانها كلابهم من أطواقها وأطلقوها فى إثرى صائحين : «مزقوه ! مزقوه !» بدت نهايتى قادمة ، إذ كان ثم عدد كبير من هذه الكلاب الضخمة من تلك الفصيلة المستخدمة لجذب الثيران والدببة فى ميادين المصارعة،فتبعت ما بدا لى فرصة البقاء الأخيرة ، وبدلاً من أن أفرّ ضاعفت من سرعتى عائداً إلى الزريبة بأسرع ما استطعت ، فنادى القرويون كلابهم وما استطاعوا إبعادهم عنى إلا بصعوبة ، وفى الزريبة قيدت بسير جلد متين إلى بيت لسان القفل وضربت بقسوة شديدة مرة أخرى ، كانت تلك نهايتى بالتأكيد لولا غبائى فى ملء معدتى بالخضروات النيئة ، وكان أثر الضربات

على معدتى انبجاس محتوياتها نصف المهضومة فى وجوه ضاربى كان إسهالاً فظيعاً ، والرش مقززاً ، جعل الجميع يهربون ساخطين لاعنين !

عند العشية حملنا اللصوص مرة أخرى ، مراعين أن يضعوا أثقل حمل على ظهرى ، كنت متعباً من أثر الرحلة الطويلة والثقل العظيم فوقى ، وكانت جوانبى يمضها ألم الضرب ، وكنت غير قادر على المشى إلا بصعوبة إذ كادت حوافرى غير ذات النعل تذوب ، وحين تقدمنا فى المسير بدأت أدبر خطة جديدة للنجاة .

كنا نتخذ طريقنا فوق جرف يمر بمحاذاة واد ، فعزمت على أن أقع وتحتى أرجلى الأربع ، وألا أتقدم شبراً واحداً حتى إن ضربنى اللصوص بعصيهم أو نغزونى بسيوفهم ، لابد أن هذا سيجعلهم يدركون أننى استهلكت تماماً وأننى ثلاثة أرباع ميت ، فما المانع من أن يمنحونى تسريحاً جميلاً على أساس من سوء صحتى ؟ كنت أعرف أنهم لا يطيقون أى تأخير ، وحسبت أنهم حين يعجزون عن إنهاضى سيقسمون حملى بالطبع بين حصانى وحمار ميلو ثم يمضون فى سبيلهم تاركين إياى فريسة للذئاب والعقبان عقاباً لى .

غير أن هذه الخطة الرائعة لم تلبث أن أحبطها نحسى المعتاد ، فقد خمّن حمار ميلو ما كان يدور فى ذهنى وسبقنى إليه ، تظاهر بأنه انتهى تماماً ووقع منبطحاً على الطريق بكامل حمله وتمدد كالميت ، لم يحاول أبداً أن ينهض رغم الضربات المتلاحقة ونغزات السيف ، حتى عندما حاول اللصوص رفعه ليقف على أرجله الأربع بشدة من أذنيه وذيله ، فلما أدركوا أن الحالة لا رجاء فيها قرروا ، بعد نقاش قصير ، ألا يعطلوا فرارهم لحظة أخرى من أجل حمار عاثر ، وقال بعضهم لبعض :

«هذا الحيوان مفيد كحمار ميت !» ثم فرقوا حمله بينى وبين الحصان ،

وقطعوا عرقوب الحمار بسيف وجروه بعيداً عن الطريق ودحرجوه في الجرف.

أرعبني مصير زميلي المشؤوم ، وقررت ألا ألجأ إلى الحيلة الذكية بعدها أو أفكر في الخطط الرائعة ، بل أظهر لأسيادي أنني جحش مخلص قادر على الاحتمال ، وإلى جانب هذا كان بعضهم يحث بعضاً بالقول إنهم يقتربون من كهف الجبل وأن رحلتهم المضنية قاربت على نهايتها ، تل آخر ، غير شديد الانحدار ، ثم بلغنا أخيراً غايتنا ، فانزل حملي وحمل حصاني ورصت الكنوز امنة في الكهف ، ارتميت ، لغياب الماء ، على الأرض وتمرغت في التراب لكي أستعيد نشاطي .

هنا يتوجب عليّ أن أصف الكهف وما يحيط به وصفاً دقيقاً ، وهذا اختبار لقدرتي الأدبية ، كما يسمح لك في الوقت نفسه بأن تحكم ما إذا كنت جحشاً بالفعل فيما يتصل بقدرتي على تقييم الموقف ، فلنبدأ إذن بالجبل ، كان جبلاً وعراً شاهقاً - قلعة طبيعية حصينة ، تغطيها الغابات المظلمة وتقطعها ، على غير نظام ، أخاديد تغص بشجر العوسج تنحدر على جوانبه وتحاصرها جرف يستحيل الوصول إليها ، وقريباً من قمة الجبل يتفجر نبع من الماء يجري ساطعاً على جوانبه ، متفرغاً إلى عدد من الجداول تغمر المروج ، أسفله ، بمساحات شاسعة من المياه ، أما الكهف فقد كان مدخله قريباً من السفح ، علته قلعة مرتفعة بنيت من سياج من أغصان الطلح ثبتت على عمد من شجر الصنوبر ، وقد وسّعت الطبقة السفلى من جوانبها الأربعة لتكون حظيرة رحيبة للأغنام المسروقة ، وأحاط بمدخل الكهف سور منخفض بني على عجل بديلاً عن الجدار ، كان للصوص بمثابة قاعة الاستقبال ، وليس ثَمّ مبان قريبة أخرى ، كما عرفت فيما بعد ، مركزاً للتنصت ، وكان الديدبان يُختار من بين اللصوص عن طريق القرعة ليمكث فيه طيلة الليل ◆

كهف اللصوص

ربطنا اللصوص من خطمنا خارج الكهف وزحفوا إلى داخله على أيديهم وأقدامهم واحداً بعد الآخر ، وسمعتهم يصيحون فى وجه العجوز المقوسة الظهر التى كانت ترعى مسكنهم :

«هيه !بِمَ تعبثين أيتها الجيفة القذرة» ؟

«هى ليست جيفة» .

«أنا أقول : جيفة» !

«وأنا أقول : لا . قد تستنكف الحياة من أن تتملكها .. لكن الموت أيضاً يستحى من أن يرغب فيها !»

«حسن .. على كل حال ، أنظر إليها مقعية فى هذا الوقت من الليل ! هيه .. أنت ! لم لا تقومين وتعدين لنا عشاءً طيباً ؟ نحتاج إلى مكافأة لنا عن الأخطار والمتاعب التى لاقيناها ، كل ما تفعلين - أيتها الجلدة المنقوعة - هو أن تدلقى خمرنا ، ليلاً ونهاراً ، عبر حلقك الخشن العتيق» .

فصاحت العجوز بصوت مرتجف : «كلا .. كلا .. يا فتيانى الشجعان ! لا تقسوا عليّ .. كل أنواع اللحم تنضج فى القدور ، وسوف تجدونه لذيذاً جداً كذلك ، وكمية مهولة من الخبز ، وأقداح لطيفة مغسولة بعناية وقدر ما يمكنكم شرابه من الخمر . وكالعادة - سخنت لكم الماء لتستحموا قبيل العشاء» .

خلع الجميع ثيابهم ووقفوا حول نار عظيمة تتأجج ودلقوا على أجسادهم من الماء الساخن ، ثم دهنوها بالزيت قبل أن يأخذوا أماكنهم على مائدة تكومت فوقها أكداس الأطعمة المختلفة ، ولم يكن المقام استقر بهم حين دخلت جماعة كبيرة أخرى من اللصوص استحموا كما فعل السابقون . كان من الواضح أنهم خرجوا للغارة كذلك ، إذ جلبوا معهم كدساً آخر من الأسلاب - نقوداً وأوانى وثياباً مطرزة بالذهب ، فلما التحقوا برفاقهم على المائدة اقترع الجميع فيما بينهم على من يقوم بالخدمة . ياللسماوات !! كم أكلوا وشربوا ! كانت أقداح الخمر منضدة فى صفوف كصفوف الجند ، زعقوا بالغناء ، وصخبوا بألفاظ الفحش ، ولاعب بعضهم بعضاً بالحركات والإشارات ، ذكرنى المنظر بسلوك القنطور واللبيث فى قصة زواج بيريثوس ، وفى الختام شرع أشدهم فى إلقاء خطاب :

«ليصمت الجميع ! إننى أتحدث باسم الفتيان الشجعان عند آخر هذه المائدة الذين أغاروا على بيت ميلو واكتسحوه فى هوباتا ، لقد نظفنا المنزل تماماً وعدنا بأكوام الذهب والفضة دون أن نفقد رجلاً واحداً - بل عدنا فى الواقع بزوجين من ذوات الأربع ، إن كان هذا يستحق الذكر ، أما أنتم فلا نعتد بكم كثيراً ولا بغارتكم فى بويتيا ، لقد عدتم أقل عدداً مما ذهبتم ، شئ واحد أقوله لكم : إن كل ما جلبتم من غنائم لن يساوى أبداً فقدان رئيسكم، لاماخوس كان رجلاً شجاعاً جداً» .

قال أحد الحاضرين : «شجاعاً جداً أكثر مما يجب .. فى الواقع ! وهذا سبب هلاكه ، لكن اسمه سوف يظهر فى كتب التاريخ يوماً ما جنباً إلى جنب مع أسماء الملوك والقادة» .

«لكنكم أيها السراق المنحطون البائسون تتسللون من خلف الحمامات العمومية تقومون بأعمال تافهة لباعة الملابس المستعملة أو تزحفون إلى دار عجوز متصدعة أملاً فى التقاط شئ من أحد الرفوف» .

اندفع رئيس الجماعة الكبرى يرد عليه بحدة : «هذا كله حسنٌ .. أيها الأبله ! متى تتعلم أنه كلما كان البيت أكبر كانت السرقة أيسر ؟ حيثما كثر عدد العبيد لن يفكر أحد منهم في إنقاذ متاع سيده قبل حياته هو ، أما أواسط الناس ، قليلو العبيد ، فلا يكتفون بإخفاء أموالهم بعناية بل يدافعون عنها بشراسة معرضين حياتهم للخطر ، حتى إن كان مالاً يسيراً ، إنصت إلى قصتنا وسترى كلامى معقولاً للغاية .

عندما قصدنا مدينة طيبة الشهيرة - ذات الأبواب السبعة كما يسمونها- سألنا عن أغنى الناس فى المنطقة ، وأنت نوافقنى على أن قاعدة مهنتنا الأولى أن تعرف أين يوجد المال ، فأخبرنا بعضهم عن مصرفى ثرى يدعى خروسيروس ، كان يتظاهر بالفقر خشية أن يجبر على قبول منصب عام ، سمعنا أنه كان يعيش وحيداً فى منزل صغير محكم الأبواب حتى لكأنه قلعة ، حيث يتطلع طيلة اليوم فى ملابس قذرة إلى أكياس ذهبه ، قررنا أن نزور خروسيروس وظننا أننا سنواجه صعوبة يسيرة فى تخليصه من أمواله - عدد كبيرمن الرجال ضد رجل واحد ، وما أن عمت الظلمة حتى تجمعنا أمام بابه ، غير أننا اتفقنا على خطر كسر القفل ، أو تحطيم مساند الباب - كان باباً مزدوجاً - خشية أن توقظ الجلبة أحداً ، كانت فكرة تحطيم الباب غير مقبولة على الإطلاق ، وعليه أدخل رئيسنا لامارخوس الشجاع ، بكل ثقته المعتادة وإخلاصه للواجب ، أدخل ذراعه من خلال ثقب مفتاح قديم وسّعه بقطع الخشب النَّخر من حوله ، وحاول أن يرفع رتاج الباب من الداخل ، ولسوء الحظ سمعنا ذلك الحيوان المقزز العجوز ، خروسيروس ، وكان يرقبنا ، زحف إلى الباب بهدوء وقادوم فى يده ومسمار فى الأخرى ، وبضربة مباغته شديدة سمّر يد لامارخوس المسكين الباب ، تركه يتلوى ألماً مثل مجرم مصلوب واندفع إلى سطح البيت الصغير الحقير وصاح بجيرانه بأعلى صوته : «النجدة ! النجدة ! النار .. النار ! أسرعوا وساعدونى على

إطفائها قبل أن تنتشر إلى بيوتكم !» ودعاهم بأسمائهم فرداً فرداً فجاءوا على عجل منزعجين ليحاصروا النار بالطبع .

ألمت الحيرة بنا ووقعنا في ورطة ، ولم نجد سبيلاً للفرار دون أن نترك لا مارخوس وحده ، وكان هذا مستحيلاً ، فكان علينا القيام بعمل يائس ، حززنا ذراعه عند المرفق ، بموافقته طبعاً ، وتركناها ملتصقة بالثقب ، ثم ربطنا بقيتها في جسده ربطاً وثيقاً وعصبناها بالخرق ، خشية أن تترك قطرات الدم أثراً وراءنا ، وانطلقنا بما بقي من رئيسنا المسكين ، وكانت المدينة كلها آنذاك قد صحت ، فلاحقتنا الصيحات والصرخات ووجب علينا الركض سريعاً حتى لم يستطع لامارخوس ، رغم إسراعنا به قدر ما أمكن ، أن يمضي معنا ، وكان معنى تركه وراءنا موته المحقق . فرجانا أن ننهي عذابه ، وذكّرنا بيمين العون المتبادل التي أقسمناها معاً على يد مارس اليُمنى ، قال إنه لا يمكننا أن نترك رفيقاً وراء ظهرنا ليسجن ثم يصلب ، وإن سعادته الكبرى وقتها أن يموت على أيدينا - إذ إلامَ يمكن للص شجاع أن يحيا مفتقداً يده التي طالما سرق بها وحز بها الرقاب ؟! غير أنه لم يستطع أن يقنع أحداً منا بقتله مهما دعانا - فهذا يساوي قتل الوالدين بالضبط ، فاستلّ سيفه بيده اليسرى ، وبعد أن قبله مرات ومرات غرزه في صدره .

كان لامارخوس أشجع من عرفنا وقد ترك فينا موته عميق الأثر ، فطوينا جسده بعناية في ثوب قماش وأسلمناه نهر أزميريوس ، وسوف يحمله النهر سراً إلى مثواه الأخير في البحر المالح العريض» .

«فليرقد بسلام !» هكذا ارتفعت آهات الجميع ، «كانت نهاية بطولية تساوي وحياته الجسورة» .

«فقدنا أيضاً ألكيموس أذكى من خطط لسرقاتنا وغاراتنا ، بسبب ضربة حظ مشؤومة أخرى ، فقد دخل بيت إحدى العجائز وصعد إلى غرفة

الطبقة العليا حيث كانت ملقاة نـائمة ، وبدلاً من أن يخنقها على الفور كما وجب عليه أن يفـعل تركها وشـأنها لسبب أو لآخـر ، وشرع يرمى بمتاعـها عبر النـافذة إلينا لنجمعـه . نظف الغرفة بطريقة المتـمرس ثم ظن أننا نرغب أيضاً فى سرير العجوز الشمطاء فـدفعها خارجه . كان على وشك أن يلقى بالفراش حين تشبـثت الحيزبون الدنيئـة بركبتيه وصـرخت : كفى .. كفى ! ماذا تفعل يا ولدى ؟ لماذا تلـقى بمتاعى المتهالك وفراشى الممـزق إلى ساحة دار جارى الغنى ؟»

خدع هذا القول ألكيـموس . ظن أنه أخطأ النافذة وأنه بدلاً من أن يلقى الأشـياء إلى الشـارع ألقاها فى سـاحـة دار شخص مـا ، وعليه مـضى إلى النافذة ، غـير مـدرك أنه يواجه أى خطر ، وانحنى ليـلقى نظرة فاحـصة من حوله وعـينه تبحث عن منزل الجار الثـرى حيث أمل فى عمل يقـوم به بعد ذاك ،فتسللت الجيفـة العجوز من خلفه ودفعته دفعة مبـاغتة على غير انتظار - لـم تكن دفـعة قـوية غيـر أن توازنه اختل فى تلك اللحظة وهـوى يسبـقه يافوخه ، ولـم يكن الارتفـاع عالياً غير أنه سـقط على جنبه فوق حجر كـبير خارج الـبيت بالضـبط هرس أضلاعـه ، وتمدد ينزف دماً ، وقـبل أن يموت استطاع أن يخـبرنا فى كلمات قليلة مـتقطعة بما حـدث فأرسلناه عبـر النهر ليلحق بلامارخوس . نعـم .. كان جديراً بهذا التكريم .

جعلتنا هذه الخسارة المزدوجة نبتعد عن تجربة حظنا فى طيبة مرة أخرى ، فمـضينا إلى بلاتيـا ، أقرب مـدينة فى المنطقة ، حـيث ألفينا الناس جـميـعاً يتحدثون عن مصارعة قادم . وكـان ديموخاريس النبيل الذى يتبرع بالعرض رجلاً غنيـاً وكريماً ، وكان ما يقـدمه من مناسبـات لهو ومتعـة حقيقـية على مستوى نبيل ، ولافائدة من محاولة وصف الاستعدادات الفاخرة ، إذ لعلنى لا أوفى الرجل حـقـه ، لقـد جـمع ، على كل حـال فـريقـاً من المصـارعين اشتهـروا بلعبة المعصم ، وفـريقاً آخر اشتـهر بلعبة القـدم ، ناهيك بزمرة من

المجرمين الذين فعلوا ما استحقوا به حرمانهم حق الحياة ، وقد سُمِّنوا ليغدوا طعاماً للسباع ، ثم كان هناك بُنىً عظيمة من الخشب على عجلات ذات أبراج ومنصات وتصاوير رسمت على جوانبها ، استعملت أقفاصاً متحركة للمجموعة الخارقة من الوحوش التى جمعها ، وكان أغلب هذه الوحوش جلب من بلدان بعيدة - قبوراً حية للمجرمين - ويالها من قبور أنيقة !

كان لديه على وجه التخصيص جملة من الدببة المهولة اصطاد هو بعضها فى رحلات صيده وجاء بعضها الآخر من الباعة بثمن باهظ ، وأرسل بعضها إليه أصدقاء يتبارون فى سبيل شرف إهدائه أضخم الحيوانات وأكثرها توحشاً ، وقد وضعها فى حديقة دببته الفاخرة حيث كانت تنال الرعاية التامة . ورغم أن دافعه الوحيد لهذا الاستعداد كله كان أن يدخل البهجة على الناس فإن الآلهة بدأت تغار منه ، فصارت دببته تعتل وتنفق ، بسبب الحرارة والحبس الطويل وقلة الحركة ، ثم ما عتم أن أصابها وباء أدى إلى موتها واحداً بعد الآخر حتى لم يكد يبقى واحد منها على قيد الحياة . بعيدها امتلأت طرقات بلاتيا بالدببة الميتة مثل سجون السفن القديمة، وجاء الجوعى من أحيائهم الفقيرة ، المستعدون دائماً لالتهام أية فضلة يلتقطونها دون ثمن ، يتحلقون حول الجيف .

أوحى لى الموقف ولزميلى بابلوس بفكرة رائعة . جررنا إحدى جيف الدببة الضخمة إلى مقرنا كما لو أننا سنأكلها ، غير أن ما فعلناه كان سلخناها تماماً وتركنا الرأس متصلاً بالجلد فى نهايته ، ثم خرطنا داخل الجلد جيداً بالأمواس ، ونثرنا من فوقه رماد الخشب وعلقناه ليجف فى حرارة الشمس ، وفيما كان الجلد يجف ازدردنا بعض شرائح من لحم الدب، وأقسمنا الأيمان على أن يقف بعضنا إلى جانب بعض فى السراء والضراء . كان على أفضلنا ، أعنى أشجعنا أن يتطوع بلبس الجلد ويتظاهر بأنه دب ، بينما تأخذه بقيتنا إلى بيت ديموخاريس باعتباره إضافة إلى

مجموعة دببته ، حيث يترقب فرصة يفتح لنا فيها الباب الأمامى عند منتصف الليل . بعدها يمكننا الدخول واقتحام المكان .

أثارت عبقرية الخطة كل فرد فينا أكبر الإثارة حتى أن عدداً وافراً من المرشحين تقدم لينال شرف القيام بدور الدب الخطير ، وعندما وضعنا الأمر للتصويت وقع اختيارنا على ثراسوليون . وكان هادئاً كل الهدوء ونحن نخيط جلد الدب من حوله وقد صار ليناً مرناً . أخفينا أثر الخيط الرفيع بأن مشطنا من فوقه الشعر الأشعث الخشن ، وثبتنا رأسه خلف رأس الدب الذى نظفناه من قبل وتركنا ثقوباً للتهوية حول منخريه وعينيه ، فبدا دباً ينبض بالحياة . اشترينا له قفصاً رخيصاً جشر نفسه فيه على الفور .. أوه ! كان ثراسوليون فتى شجاعاً ، ثم بدا كل شىء جاهزاً لخطوتنا التالية وكانت أن نزوّر كتاباً باسم نيكانور ، وهو رجل من تراقيا قيل إنه واحد من أقرب أصدقاء ديموخاريس إليه ، فكتبنا أنه خرج فى رحلة صيد وأنه أهدى «أول ثمار الطراد ، هذا الدب البديع ، إلى الصديق العزيز ديموخاريس» .

كان قد مضى من الليل جزء حين أخذنا الكتاب والقفص ، وثراسوليون داخله ، إلى بيت ديموخاريس ، وقد تأثر هذا بجرم الدب الجديد المهول وابتهج لكرم نيكانور . لقد جاءت الهدية فى الوقت المناسب ، فأمر وصيفه بأن يعطينا عشر قطع ذهبية مكافأة لنا ، وطبعاً توافد أهل الدار جميعاً يتحلقون حول القفص وقد علت صيحاتهم : «أوه ! ما أجمله ! ما أضخمه !» غير أن ثراسوليون كان من الحكمة بحيث أوقف فضولهم باندفاعة مفاجئة إلى جانب القفص حتى أبعدهم عنه .

أما ديموخاريس فقد هنأه صحابه جميعاً على حسن حظه حين عوض خسائره السابقة ، جزئياً على الأقل ، بالحصول على هذا الوحش الرائع . بعدها أصدر أمره بأن يقتاد بعناية فائقة ليلحق بما بقى من مجموعة حديقة الدببة ، غير أنى اعترضت على الفور : «معذرة يا سيدى .. هذا الحيوان

لايزال ضعيفاً بعد رحلته الطويلة الحارة من تراقيا ، يجب أن تحذر من وضعه بين حيوانات لم تُشف بعد ، كما سمعت ، من وباء حمى الدببة الخطير . ينبغى أن تدعه يرقد فى مكان بارد من هذا البيت يهب عليه نسيم المساء - لو أمكن بجوار فسقية ماء ، إنك تعرف بالتأكيد أن الدببة تقصد دائماً ، وهى مطلقة السراح ، جدولاً جارياً أو كهفاً يقطر من سقفه الماء» .

تأثر بتحذيرى ووافقنى فى الحال : «ضع القفص فى أى مكان يعجبك» فأضفت : «إن شئت ، يا سيدى نحن مستعدون تماماً للبقاء عند القفص طيلة الليل لنطعم الدب ونسقيه وقت طعامه وشرابه ، لقد عانى الحيوان البائس كثيراً من الحر والرحلة المضنية» غير أن ديموخاريس قال : «كلا .. أرجو ألا تتجشموا العناء ! كل من فى بيتى تقريباً خَبر الدببة ويعرف كل شئ عن إطعامها» فودعناه وخرجنا .

مضينا إلى خارج المدينة حيث جئنا مقبرة ، فى موقع منعزل غير بعيد من الطريق الرئيسى ، دخلناها ونزعنا أغطية بعض التوابيت القديمة النخرة ، ولا تزال الجثث المتآكلة بداخلها ، لتكون خزائن ملائمة للغنائم التى أملنا أن نجلبها بعد قليل ، ثم تجمعنا خارج بوابة منزل ديموخاريس ، سيوفنا مسلولة بأيدينا آخذين أهبتنا للهجوم ، نترقب - كالعادة - غياب القمر وحلول الظلمة الحالكة حين يغرق الجميع فى الغفوة العميقة الأولى من النوم .

أدى ثراسوليون مهمته ببراعة ، انتظر اللحظة المناسبة تماماً قبل أن يتسلل خارجاً من قفصه ويقتل حرس البيت الراقدين بالقرب منه جميعاً بأحد سيوفهم ، ثم مضى ليقتل البواب ويأخذ المفتاح من حزامه ويفتح لنا الباب الأمامى ويسمح لنا بالدخول . ثم دلّنا على غرفة الخزين التى لاحظ قبل قليل قدراً كبيراً من صحاف الفضة تودع فيها . دخلناها وطلبت من رفاقى أن يحملوا من الذهب والفضة أكبر قدر ممكن ويسرعوا لدفنها فى المقبرة فى بيوت أصدقائنا الموتى الموثوق بهم كل الثقة ، ثم يعودوا فى الحال لحمولة

أخرى ، وتطوعت أنا للمكوث حارساً البوابة حتى يرجعوا ، وكان على ثراسوليون أن يظل متنكراً ، فقد فكرنا فى أن وجود دب مطلق السراح يجول فى المكان ذو نفع كبير بدون شك . إذ لو أتفق أن استيقظ أحد العبيد فلابد أن يكون شجاعاً للغاية إن لم يهرب ويقفل من ورائه باب أقرب غرفة يرتعد فرقاً إذا ما رأى الوحش المهول يتهادى فى الظلمة .

كانت خطتنا تعمل على خير وجه عندما حدث شئ لم يخطر على بال - كما شاء الحظ لنا - كنت لا أزال انتظر فى قلق عودة رفاقى حين صحا أحد العبيد ، أحسب أنه سمع صوتاً ما حدس أن شيئاً ما غير مألوف كان يجرى ، فخرج من مقر نومه على أطراف أصابعه ، وحين رأى الدب يتجول طليقاً فى البيت آب فى هدوء ، كما جاء وأيقظ العبيد الآخرين وأخبرهم بما رأى . بعد لحظات خرجوا جميعاً يحملون المشاعل والمصابيح والقناديل وما إليها . أضائت الباحة الداخلية كلها وكان الجميع مسلحين بالهراوات والرماح أو بسيوف مسلولة ، أسرعوا لسد منافذ الباحة كلها وفكوا قيود كلاب الصيد وراء ثراسوليون ، وفى أثناء الجلبة التى تبعت تسللت خارجاً واختبأت خلف البوابة حيث رأيته يقاتل الكلاب قتالاً ضارياً ، كما لو أنه يصارع كلب الجحيم ذاته بفكاكه الثلاثة البارزة ، ورغم علمه بالنهاية لم ينس شرفه أبداً أو شرف عصابتنا ، وقام بدوره كأنه دب حقيقى ، جرى أولاً ليتفادى هجمات الكلاب ثم استند إلى أحد الأركان وشرع يضربها بمخلبيه ، ثم تراجع مرة أخرى حتى استطاع الخروج من البوابة إلى عرض الطريق ، غير أنه لم يستطع الفرار ، إذا جاءت الكلاب المجاورة - وكانت ثلة متوحشة منها فى الزقاق القريب - واشتركت فى المطاردة .

أرعبنى أن أرى ثراسوليون التعس تحاصره عشرات الكلاب الهائجة وقد غرزت أنيابها فى أجزاء عديدة من جسده وشرعت تمزقه قطعاً ، ولم

أستطع الاحتمال أكثر مما فعلت ، اندفعت وسط الجمع المحتشد وفعلت كل ما فى وسعى لإنقاذ الرفيق البائس . صرخت : «يا للعار ! يا للعار أن تقتلوا حيواناً كهذا ! إنه يساوى بدراً من المال» غير أن أحداً لم يصغ إليّ وفجأة جاء رجل ضخم يركض وفى يده رمح مشرع وطعن ثراسوليون طعنة نافذة، فلما رأى بقية الجماعة سنّ الرمح تبرز من الجانب الآخر واتتهم الجرأة لاستخدام سيوفهم . وشرفى ! لقد مات ثراسوليون ميتة عظيمة ! إذ رغم فقدان كل شئ وجدته لم يفقد شجاعته أبداً وتقبل ما نزل به راضياً ، فإذا ما تلاقى صفان من الأنياب فى لحمه ، أو شرحه سيف من السيوف ، لم يزد على أن زام أو زمجر كالدب كيلا يفضحنا إن صاح أو صرخ كالإنسان، نعم .. لقد واجه قدره دون أن يطرف له جفن وحفظ سرناً حتى النهاية . كانت معركة مجيدة ، وقد بث الرعب فى الحشد حتى أن أحداً لم يجرؤ على وضع إصبع على جثته ، وفى الصباح جاء جزار أشد قلباً من جيرانه وفتح جوف الجثة فوجد ، لدهشته، أنه لم يكن يسلخ جلد دب بل كان يجرد لصاً جريئاً من معطفه !

ذهبت لأخبر بقية جماعتنا بموت ثراسوليون - ولن يموت مجده ما دام أيّنا على قيد الحياة ليروى ما حدث - وعدنا إلى المقبرة حيث حملنا الغنائم التى كانت تحرسها لنا الجثث الأمينة ، وأسرعنا نخرج من المنطقة. كانت رحلة شاقة على التلال بحمولنا ، وقد صيَّرنا فقد رفاقنا الثلاثة خائرى العزم، وكانت صور ما حدث تلاحقنا طيلة الطريق حتى لم يبق لدينا شك فى أن ربة الأمانة غادرت العالم العلوى ، أسفاً لمعاملتها السيئة ، ومضت لتحيا مع الأشباح والرمم ، وعلى كل حال - ها نحن ، وها هى الغنائم !» .

أترع اللصوص أقداحهم بخمرة صرف وأراقوها على أرض الكهف قرباناً للأموات ، ثم أنشدوا بعض الترانيم على شرف راعيهم مارس ، تمددوا بعدها وراحوا فى سبات عميق .

كانت العجوز قدمت لى ولحصانى كمية كبرى من الشعير لعلها جعلت حصانى يتصور نفسه ضيف شرف فى مأدبة الكليّة السوليّة بروما ، وقد استحوذ على الشعير كله ، إذ أننى رغم محبتى للشعير كنت آكله دائماً إما مسلوقاً سلقاً جيداً مع الطبيخ أو مطحوناً مخبوزاً ، غير أنى عثرت على ركن خزنت فيه بقايا الأرغفة ، وشرعت ألتهمها بضراوة ، وقد ألم فكاى من أثر الجوع وبدا أن خيوط العنكبوت علتهما لطول البطالة .

فى الهزيع الأخير من تلك الليلة أسرع اللصوص بمغادرة الكهف ، كان بعضهم يرتدى ملابس الأشباح ، بينما لبس بعضهم ثياباً مألوفة ، وحملوا سيوفهم معهم . لكن حتى النوم لم يكن ليمنعنى من مواصلة المضغ بشراهة دون توقف ، فعندما كنت لوكيوس كان يمكننى القيام عن المائدة شبعاً بعد رغيف أو اثنين ، أما الآن فإن لى كرشاً ضخماً لابد لى أن أملأه ، وكنت أوشكت على إنهاء السلة الثالثة حين انبلج الفجر وألفانى لا أزال ماضياً فى أكلى . وأخيراً تركت طعامى - متردداً كما يجب أن أعترف - فى ذلة الحمار ، وأرويت ظمأى عند جدول قريب .

بعد قليل قفل اللصوص يعلو وجوههم الجد الجاد ، ولم يجلبوا معهم - رغم كثرتهم وسلاحهم - شيئاً من الغنائم على الإطلاق ، ولاحتى عباءة رثة ، وإنما مجرد فتاة واحدة أسيرة ، كانت تنتمى إذا ما حكمنا من مظهر ثيابها ، إلى إحدى العائلات الكبرى فى المنطقة ، وكانت جميلة بدرجة خارقة أقسم أنها جعلتنى ، أنا الجحش ، أقع فى غرامها : أدخلوها إلى الكهف حيث شرعت لبؤسها ، تشد شعرها وتمزق ثيابها . وقد فعل اللصوص كل ما استطاعوا للتخفيف عنها : «إنك آمنة تماماً يا سيدتى ، ولا نية لنا فى أن نؤذيك أو نبدى نحوك ما لا يليق ، اصبرى بضعة أيام فقط، ولو مجاملة لنا ، ترين أن الفقر هو الذى دفعنا لامتهان هذه المهنة وأن على أبويك الشحيحين أن يعجلا بفدية من المال . أنت - على كل حال -

ابنتهما الوحيدة وهما غنيان بشكل فاحش» .

زاد أساها بدلاً من أن ينقص بهذه المواساة الغليظة ، ولم ألمها على وضعها رأسها بين ركبتيها والعويل دونما انقطاع ، فأمر اللصوص العجوز بأن تجالس الفتاة وتؤانسها قدر ما استطاعت ، ثم انطلقوا إلى عملهم مرة أخرى .

لم تقدر العجوز على شئ مع الفتاة ، إذ علا نحيبها عن ذى قبل وكان صدرها يعلو ويهبط تهزه العبرات حتى تدحرجت دموع العطف على شعر وجنتى ، كانت الفتاة تعول : «حين أفكر فى فقدان كل شئ ! البيت الجميل، والأصدقاء الأعزاء الكثر ، والخدم اللطفاء ، وأبوى اللذين أحبهما حباً يفوق الوصف ، هكذا أخطف بهذه الطريقة الفظيعة وأسجن كالمجرمين فى سجن صخرى دون شئ من سبل الراحة التى كانت لى طوال حياتى ! وسيف التهديد الدائم مصلت على عنقى وفى يد هؤلاء اللصوص المفزعين المتعطشين للدماء ! كيف لك أن تنتظرى بقائى على قيد الحياة ؟» .

ومضت على هذه الوتيرة حتى جعلها الأسى واحتقان الحلق تتوقف عن النحيب ، فأغمضت عينيها المنتفختين وغلبها النوم ، ثم صحت بعد قليل وقد زاد شجنها وشرعت تلطم وجهها الجميل وتضرب صدرها بيديها . توسلت العجوز إليها أن تفسر لها تفجر حزنها من جديد ، فأنّت وقالت : «لا .. لم يعد هناك شك فى الأمر ، لا أمل لى فى النجاة ، انتهى كل شئ ، حبل ، أو سيف ، أو هاوية قريبة - بلغت الآن ...» .

استشاطت العجوز غضباً ، فحملقت فى وجه الفتاة وسألتها : «لماذا تبكين أيتها المخلوقة الصغيرة الضالة ؟ لماذا تنامين ثم تصحين فى الحال تقريباً لتشرعى فى هذا العبث الملعون مرة أخرى ؟ سوف أعطيك الهاوية ! أظن أنك تريدين الغدر بأولادى المساكين لكيلا يحصلوا على المبلغ الكبير

الذى طلبوه فدية لك ؟ إن لم تهدئى وتمتنعى عن العويل - اللصوص لا يتأثرون سريعاً بالدموع - فسوف أجعلهم يشوونك حية !» .

أخاف هذا الكلام الفتاة ، فأمسكت بيد العجوز وقبلتها وهى تقول : «سامحينى أيتها الجدة العزيزة ، سامحينى ! اصبرى معى فقط ، لا أصدق أنك عاجزة عن الشفقة ، وأنت السيدة المتقدمة فى السن ولك مثل هذا الشعر الأبيض البديع ، أرجوك أن تأذنى لى بأن أحكى لك كل شىء عن نفسى - إنها قصة حزينة جداً» .

فقالت العجوز إنها لا تمانع فى الاستماع ، فشرعت الفتاة تحكى :

«لى ابن عم يكبرنى بثلاث سنوات ، اسمه تليبوليموس ، لم ننفصل أبداً منذ طفولتنا ... وكل منا يحب الآخر كل الحب ، إنه شاب نبيل ويود كل من فى المدينة أن يراه يرقى إلى أعلى المناصب . خطبنا منذ سنوات ، واليوم فقط سجل والدانا عقد زواجنا علناً ، ذهب هو بعدها مع أهله وأصحابه يقدم القرابين كالعادة فى مختلف المعابد ، فيما كنت أنتظره فى البيت بين أوراق الغار والمشاعل والجميع يغنى أناشيد العرس . كانت أمى قد ساعدتنى فى ارتداء ثوب الزفاف تضمنى وتقبلنى باكية ، وشرعت تدعو بابتهال أن أبارك بأولاد يحفظون اسم العائلة ، حين هجم اللصوص فجأة وسيوفهم تلمع - تماماً كالمصارعين ، لم يحاولوا أن يقتلوا أحداً أو ينهبوه ، بل مضوا رأساً إلى غرفة العرس كتلة واحدة ، لم يقاومهم العبيد ولا أحد من الحاضرين أدنى مقاومة ، بل تركوا اللصوص ينتزعوننى ، نصف ميتة من الرعب ، من ذراعى أمى . وانتهى حفل الزفاف بغتة ، .... وحين غلبنى النوم منذ قليل رأيت حلماً مفزعاً أعاد إليّ شقائى أكبر من ذى قبل ، حلمت بأننى جذبت بقسوة من سرير عرسى ومن الغرفة ، ومن البيت ، وحملت عبر صحراء بدون طريق وأنا أنادى باسم حبيبى تليبولپموس ، وفى الحلم لحق بى ، يتضوّع عطره وتعلو أكاليل الزهر هامته

كالعريس ، يتتبّع أثر اللصوص ويصيح بالجميع أن يعينوه على إنقاذ زوجه الجميلة التى سرقت منه ، وقد أغضب هذا أحد اللصوص ، فالتقط حجراً كبيراً ورمى به فتاى المسكين وقتله ، فصحوت من النوم وأنا أصرخ» .

تنهدت العجوز عطفاً وقالت : «أيتها الحلوة العزيزة ! يجب أن تبتهجى وتمتنعى عن القلق للأحلام ، إذ لا يوثق بالأحلام التى تأتى نهاراً . الجميع يعرف هذا ، وحتى أحلام الليل تأتى بضدها مثلاً - إذا حلم الإنسان بأنه يبكى أو يُضرب أو حتى تُحزّ عنقه فهذا فأل حسن ويعنى فى العادة تغيّراً خيّراً ، فى حين أنه إذا حلم بأنه يضحك أو يلتهم الحلوى أو يستمتع بشئ ما، فهذا شؤم وعلامة مؤكدة على المرض أو الشقاء ، دعينى الآن أروى لك حكاية أو حكايتين تجعلك أحسن حالاً ♦

الفصل السابع

كيوبيد وبسوكى (1)

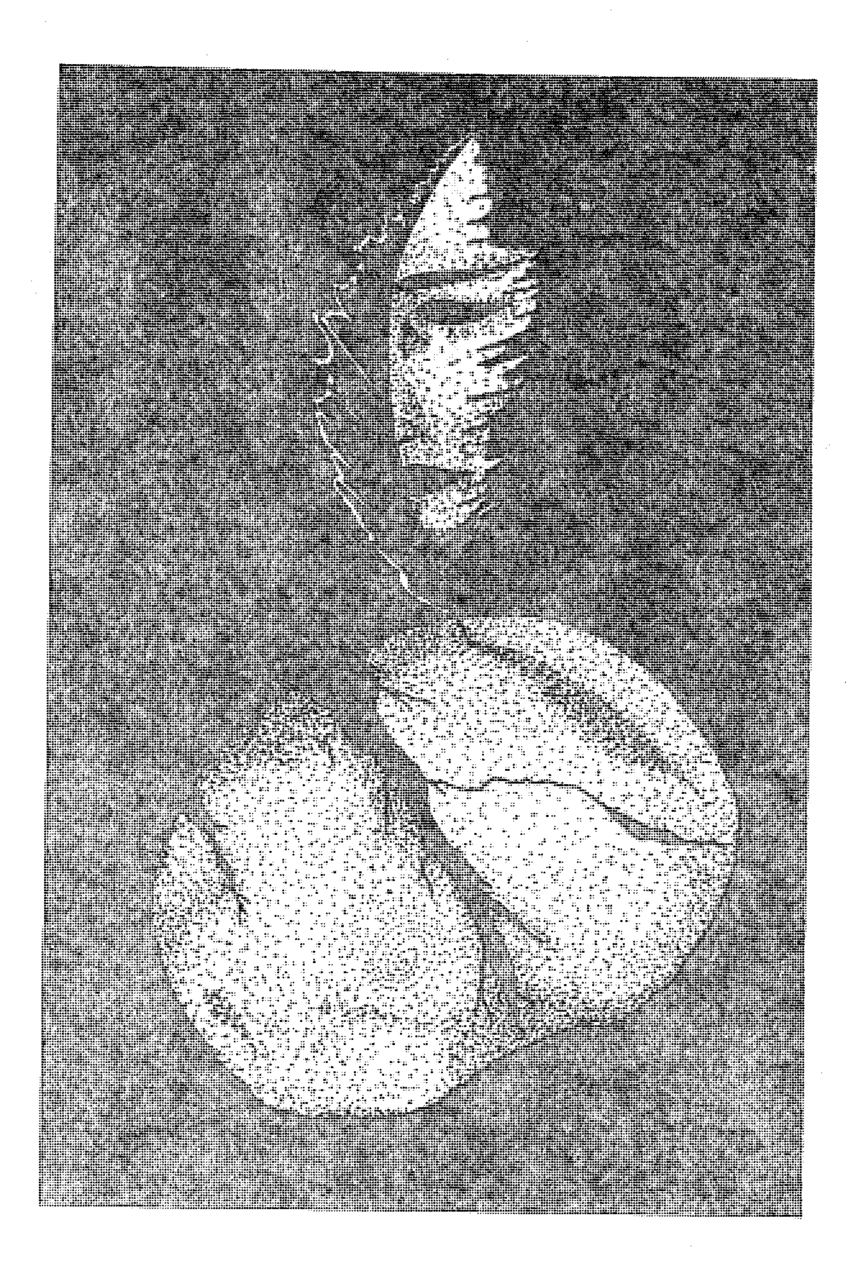
«كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، ملك وملكة وكان لهما ثلاث بنات جميلات ، كانت البنات على غاية من الحسن لا يمكن معها سوى إيجاد الكلمات فى مدح البنتين الكبيريين ، أما وصف جمال البنت الصغرى الآخذ بالأنفاس ، ذاك الذى لم ير له مثيل من قبل ، فقد كان فوق قدرة الكلام البشرى . كان الآلاف من رعايا أبيها ، ومن الأجانب أيضاً ، يحجون إليها كل يوم لتملّى مفاتنها ، وكان بهاؤها يخلب ألبابهم فيقدمون إليها فروض العبادة الواجبة للربة فينوس وحدها ، كانوا يضمون سبابة أصابعهم وإبهامها ويرفعونها باحترام إلى شفاههم ثم يرسلون القبلات نحوها طائرة فى الهواء !

وقد انتشر خبر جمال الفتاة الفريد عبر المدن والبلاد المجاورة . قال البعض : «هذه فينوس الخالدة ، المولودة من عمق البحر الأزرق ، رفعت من زبده إلى السماء ، وهبطت إلى الأرض لتتجسد بشراً سوياً إذن لكل إنسى أن يراها رأى العين» وقال آخرون : «كلا ... كلا ! إنها الأرض هذه المرة ، وليس البحر ، حملت بالفيض السماوى فولدت ربة جديدة للحب أجمل وأروع من فينوس ... لأنها لا تزال عذراء !» ولقد ذاع صيت الأميرة وانتشر إلى أبعد مدى فى الأقطار البعيدة فالأكثر بعداً ، وجاء الناس يحجون إليها من مسافات قصية عبر اليابسة وعبر البحار ليشهدوا أعظم أعجوبة فى زمانهم . وكانت النتيجة أنه ما من أحد جشم نفسه عناء زيارة

معابد فينوس فى قبرص أو كريت ، أو حتى جزيرة كوثيرا حيث لمست قدمها البديعة اليابسة أول مرة . أهملت احتفالاتها ، وانقطعت شعائر عبادتها، وتناثرت على الأرض حشايا تماثيلها التى كانت تزخر بها معابدها المقدسة ، بل إن التماثيل نفسها تركت دون أكاليلها المعتادة ، كما تركت أنصابها دون أن تكنس تحيط بها القمامة وفضلات القرابين القذرة التى مر على إحراقها شهور عديدة، وتداعت هياكلها لتصير أطلالاً من أثر الإهمال.

كانت القرابين تقدم تشريفاً للأميرة الصغيرة ، كلما خرجت تتمشى فى الطرقات صباح كل يوم ، وتمد الأسمطة المقدسة من أجلها ، وتنثر الزهور فى طريقها ، وأكاليل الورد يهديها إليها جمع المتبتلين المعجبين الذين كانوا يوجهون إليها الخطاب بنعوت وألقاب هى فى الواقع خاصة بربة الحب العظيمة .. فينوس ذاتها .

وقد أثار هذا التحول الغريب للتشريفات الإلهية عن فينوس نحو بشر مائت غضب فينوس الحقيقية بالطبع . إذ هزت الأخيرة رأسها وهى لا تقوى على كبح جماح مشاعرها وقالت متوعدة : «حقاً الآن ! من كان يظن أننى أعامل بمثل ما أعامل به اليوم ؟ أنا ... فينوس الرائعة للدنيا بأسرها والتى يدعوها الفلاسفة (الأم الكونية) وأصل العناصر الخمسة الأول ... يتوقع منى ، أنا ، أن أشارك عليائى بشراً تتسكع هنا وهناك مدعية أنها هى أنا ذاتى ؟! وهذا اسمى الساطع المسجل فى السماوات العلى يمرّغ فى وحل الأرض القذر ؟! أى نعم ! ومع هذا يجب عليّ - طبعاً - أن أرضى بانعكاس مجد عبادة الناس هذه الفتاة ، قانعة بجزء من قرابين التكفير التى تقدم إليها بدلاً منى ؟ أظن أنه لا معنى لأن قدم الراعى باريس - ذاك الذى صدق جوبيتر نفسه على حكمه العادل الأمين - تفاحة الجمال لى من فوق رأسى ربتين أخريين منافستين ؟! كلا ... هذا عبث ! لا يمكن أن أدع هذه المخلوقة التافهة ، أياً كانت ، تسلبنى مجدى أكثر مما فعلت . سوف أجعلها



تتلوى ألماً وحسرة بسبب جمالها ذاك ، إن هذا الذى يحدث الآن مناقض للقواعد السماوية كلها !» .

وفى الحال دعت فينوس ابنها المجنح إيروس - المعروف باسم كيوبيد - ذلك الولد الماكر الذى لا يحمل ذرة من احترام للسلوك المهذب والذى يمضى وقته راكضاً من مبنى إلى مبنى طيلة الليل يحمل شعلته وسهامه ، مشتتاً شمل بيوت بالغة الاحترام . وهو مع ذلك لم يعاقب ، لسبب ما، على كل ما يرتكبه من أذى ، رغم أنه لا يبدو قدّم حسنة واحدة تعويضاً عن فعلته ! وكانت فينوس تعلم أنه ميال بطبعه إلى الأذى ، فزادت فى إغرائه بسلوك أسوأ بأن جاءت به إلى المدينة التى كانت تعيش فيها الفتاة ، التى كان اسمها بالمناسبة ، بسوكى - وقصت عليه القصة برمتها عن المعبودة الجديدة التى فاقتها على الأرض.قالت وهى تتميز غيظاً من أثر المهانة: «ألتمس منك يا حبيبى ، إذا كنت فعلاً تحب أمك أن تستخدم سهامك الصغيرة العزيزة وشعلتك الحلوة تلك ضد هذه الفتاة الوقحة العديمة الحياء. إذا كنت تحترمنى حقاً فسوف تنتقم لى انتقاماً كاملاً . سوف تعمل على أن تقع الأميرة يائسة فى هوى واحد من أشنع البشر سوءاً ... رجل طريد منبوذ سوقى لا جاه له ولا مال .. فقد كل شئ ... رجل يمضى حياته فى رعب من هذه الحياة ، وقد بلغت به السفالة حداً لا يمكن معه أن تجد له نظيراً فيها على وجه البسيطة !» .

هكذا قالت ، وقبلته قبلة طويلة ، ثم قصدت شاطئ البحر القريب حيث عدت فوق قمم الأمواج التى هرعت نحوها يعلوها الزبد الأبيض ، وما لمست قدمها الوردية الماء حتى هدأ البحر كله ، وما أن شاءت أن تظهر قوى الأعماق حتى برزت جميعها كأنما نادت كلاً باسمه . كانت هناك عرائس البحر ترسل أنغامها ، ونبتون - الذى يسمى أحياناً : بورتمنوس - بذقنه المزرقة ، وزوجته سلاكيا - ربة أعماق البحر الماكرة وملء حجرها سمكاً

مقوياً للباه ، ومعها بلايمون الصغير ، سائق عربتهما ، ممتطياً دلفيناً ، ثم جاءت مجموعات من التريتونات تسبح فى كل اتجاه ، ينفخ أحدها صدفته بلطف ورقة ، وآخر يقى فينوس من أشعة الشمس بمظلة من حرير وثالث يمسك مرآه لتتملى فيها نفسها ، بينما اصطفت مجموعة أخرى اثنين اثنين مشدودة إلى عربتها برصن . إن جيشاً كاملاً من الخدم والحاشية فى خدمة فينوس كلما ركبت فى نزهة بحرية !!

فى تلك الأثناء كانت بسوكى شقية كل الشقاء بكل ما يقدم لها من تكريم . كان كل امرئ يتملاها وكل إنسان يطرى جمالها .. لكن ما من أحد من عامة الناس ، ولا أمير أو حتى ملك ، جرؤ على مطارحتها الغرام . كان الجميع مأخوذين مذهولين بجمالها ، لكنه كان كذهول الشاخص نحو تمثال رائع البهاء ، وقد خطبت شقيقتاها الكبريان الأقل منها جمالاً - واللتان لم تكن سمعتهما طيبة على كل حال - إلى ملكين وتزوجتا بهما ، أما بسوكى فقد ظلت دون زواج ، فمكثت فى البيت تعيسة إلى حد المرض وصارت تمقت جمالها الذى عبده الآخرون جميعاً .

خشى والدها المسكين أن تكون الآلهة غضبى منه إذ سمح لرعاياه أن يعظموا ابنته على هذا النحو ، فمضى إلى معبد أبوللو العتيق فى ملطة ، وبعد أن قدم القرابين وأدى الصلوات المعتادة سأل أين يمكن أن يجد زوجاً لابنته التى لم يرغب الزواج بها أحد ؟

وقد شاء أبوللو ، رغم أنه مؤسس ملطة الفعلى ورغم أنه يونانى أيونى ، أن ينطق بوحيه التالى باللسان اللاتينى :

فوق القمة ...

أعلى قمة جبل صخرية

تجلى العذراء ...

لطقوس العرس المقضية

من غير عزاء

لا تأمل صهراً بشرياً ..

بل شراً داهم .

غولاً مفترساً وحشياً ...

الخطر الدائم .

ذاك الذى يطير ...

فى الجو والأثير .

فى يده النار ...

والأخرى سيف بتار .

تخشى سطوته الأرباب .

جوبتر يخشاه ...

ترتعب مجارى نهر ستوجيا

من رؤياه !

قفل الملك ، الذى كان من قبل رجلاً سعيداً ، راجعاً متخاذلاً من المعبد إلى بيته تغلفه الكآبة ، وأنبأ زوجته الملكة بجواب الموحى السئ الذى جاءه ، وقد أمضيا أياماً تعيسة كثيرة ينوحان وينتحبان على قدر ابنتهما البائسة . بيد أن الوقت مر وكان لابد من طاعة أمر الوحى.

أزفت ساعة الاحتفال بزفاف بسوكى الرهيب . اختيرت مشاعل بطيئة الاحتراق ذات سخام ولهب مضطرب ، وعوضاً عن لحن العرس المرح عزفت النايات لحناً ليدياً باكياً . وختمت أغانى الزواج بندب جنائزى

حزين، وكفكفت العروس التعيسة الدموع من عينيها بطرف خمارها الأحمر اللون ، ثم انكفأ الجميع وكل منهم يغمغم أسفاً للكارثة التى عصفت بالبيت الملكى ، وأعلن فى التو عن يوم حداد عام . لكن لم يكن ثم شئ يمكن عمله ، إذ لا مفر من طاعة أمر هيكل أبوللو . وهكذا عندما انهيت إجراءات هذا الحفل الكريه فى أسى عميق شرع فى إتمام حفل الزفاف ، وقد تبعه أهل المدينة قاطبة ، وفى مقدمتهم مشت بسوكى امرأة تمضى إلى لحدها وليس إلى سرير الزفاف !

حاول أبواها اللذان غشاهما الأسى والهلع ، أن يعيقا الأمور بتعطيل دخولها، غير أن بسوكى عارضتهما قائلة : «أبى المسكين ... أمى المسكينة ! لمَ تعذبان نفسيكما بإطالة حزنكما دون مبرر ؟ أنتما فى سن تجعلكما أكثر إدراكاً منى ، لِمَ تزيدان فى شجنى بنحيبكما حتى بح منكما الصوت ؟ لمَ تفسدان الوجهين - اللذين ما أحببت شيئاً فى الدنيا أكثر منهما - بالبكاء حتى تتقرح منكما الجفون ، وتقطيع شعركما الأبيض الجميل ؟ لمَ تضربان صدريكما حتى ينفطر قلبى ؟ أنتما تريان الآن ما جلبه عليّ جمالى ، لعنة الغيرة السماوية للمبالغة فى تعظيم الناس لى . يوم عظمنى الناس من جميع أنحاء المعمورة باعتبارى فينوس الجديدة وقدموا لى القرابين ، ذاك كان يوم اساكما ونحيبكما كما لو أننى مت من قبل . أعرف الآن كرائعة النهار أن علة شقائى الوحيدة هى هذا الكفر فى استعمال اسم الربة فينوس ، فلتحملانى إذن إلى صخرة الهيكل ، فأنا فى انتظار ليلة زفافى السعيدة وزوجى الرائع . لِمَ أتردد ؟ لِمَ أفر منه ، حتى إن كان ولد من أجل هلاك العالم بأسره ؟!»

ثم فى عزم قدماً نحو الهيكل ، وتبعتها الجموع صاعدة إلى الصخرة على قمة الربوة ، حيث تركت وحيدة هناك ، وعاد القوم إلى بيوتهم يغشيهم الحزن العميق ، يطفئون مشاعل الزواج بدموعهم ثم يرمونها . أما

أبواها الكسيرا الفؤاد فقد أوصدا على نفسيهما القصر خلف الأبواب المغلقة وارخيا على نوافذه الستائر الثقيلة .

تركت بسوكى وحدها تنتحب وترتعش على أعلى قمة الربوة ، إلى أن هبت ريح غربية رقيقة فجأة ، تلاعبت الريح من حولها وهى تنفخ شيئاً فشيئاً ثوبها وخمارها وعباءتها حتى رفعتها من فوق الأرض وأنزلتها بلطف على بساط من العشب الريان المطرز بالأزهار .

كان المكان ندياً ، مريحاً للرقاد عليه ، جعل بسوكى تشعر براحة بال أكبر ، فتوقفت عن البكاء واستغرقت فى النوم ، فلما استيقظت وهى تحس بالانتعاش الكامل كان الوقت لا يزال نهاراً ، فنهضت ومشت بهدوء صوب الأشجار الطويلة التى بدت فى غيضة قريبة كان ينساب فيها جدول صاف رقراق . قادها الجدول إلى قلب الغيضة حيث بلغت قصراً فاخراً كان رائع البناء حتى لا يحسب من عمل بشر بل من صنع إله . فلما بلغت بوابته عرفت أن رباً من الأرباب كان يتخذ مقامه هناك .

كان يدعم السقف ، المنقوش نقشاً رائعاً من شجر السرو والعاج ، أعمدة من الذهب ، وكانت الجدران مغطاة بطبقة من الفضة نقشت عليها جميع حيوانات الأرض تبدو وكأنها تجرى صوب بسوكى وهى تدخل القصر . كان جلياً أن هذه صنع شبه إله إن لم يكن إلهاً كاملاً ، وكانت الأرض لوحة فسيفساء من جميع أنواع الحجارة الكريمة رتبت على شكل صور . ما أسعد من يجد فرصة المشى على أرض مجوهرة مثل هذه ! وكانت بقية أقسام القصر الواسع للغاية فى مثل هذا الجمال وهذه الفخامة الباهرة . كانت تواجه جدرانه كتل ضخمة من الذهب تسطع من ذاتها فتحيل البيت نهاراً من داخله حتى وإن غابت الشمس عن السطوع . كل غرفة وبهو وممر تدفق بالضياء ، وكان الأثاث مساوياً للغرف . لقد بدا

القصر فى الواقع وكأن جوبتر نفسه شيده قصراً أرضياً له .

ذهلت بسوكى ، ثم مضت على وجل ترتقى درج القصر ، ثم جرؤت بعد حين على تخطى عتبته . استهواها جمال قاعته ، وكان كل منظر جديد يضيف عجباً إلى عجبها ودهشة إلى دهشتها ، وحين توغلت داخل القصر وصلت إلى خزائن رائعة ملأى بثروات لا تصدق . كل شئ فاخر يمكن أن يخطر على بال بشر كان هناك . لكن ما أدهشها أكثر حتى من الثروة الهائلة فى خزينة الأرض هذه أنه لم يكن ثمَ سلسلة واحدة أو حاجز واحد أو قفل واحد أو حارس يحميها .

وبينما وقفت مذهولة فى غبطة المتعة جاءها فجأة صوت لم تدرك مصدره : «هل تدهش هذه الكنوز سموك الملكى ؟ إنها جميعها لك ، لِمَ لا تذهبين الآن إلى غرفة نومك وتريحين جسدك المكدود ؟ وحين تشعرين بالرغبة فى الاستحمام فسوف نكون هناك لمساعدتك - هذه إحدى وصيفاتك تتحدث - وبعدها تجدين وليمة عرسك معدة لك» .

كانت بسوكى ممتنة كل الامتنان لصوت العناية المجهولة الذى رعاها هذه الرعاية كلها ، فاتبعت ما اقترحه عليها الصوت . مضت أولاً لترى غرفة نومها حيث تأملتها مدة ، ثم قصدت الحمام حيث نزعت أيد خفية عنها ثيابها ، وغسلتها ، وعطرتها ، وألبستها ثوب العرس مرة أخرى ، وما أن خرجت من باب الحمام حتى رأت مائدة شبه دائرية ممدوة وأمامها كرسى مريح . كانت المائدة معدة للطعام رغم أن شيئاً مما يؤكل أو يشرب لم يكن فوقها ، فجلست بسوكى تنتظر - وفى الحال ظهرت كالسحر قوارير الخمر المعتقة وأطباق فتح الشهية تطير فى الهواء نحوها من تلقاء أنفسها . لم تر أحداً على الإطلاق . كان خدم المائدة مجرد أصوات ، وحين دخل من يغنى ومعه من يصاحب غناءه بعزف على القيثار لم تر أياً منهما ولم تر القيثار أيضاً . ثم انطلقت جوقة كاملة غير مرئية تترنم بأغنية عذبة . فلما انتهت هذه

المأدبة الممتعة حسبت بسوكى أن الوقت حان لتمضى إلى فراشها ، فقصدت غرفة نومها ثانية ونزعت ثيابها واستلقت على سريرها برهة من الزمن .

عند منتصف الليل سمعت همساً ناعماً بالقرب منها فأحست بوطأة الوحدة وتملكها الخوف ، فإن أى شيء ممكن الحدوث فى مكان فسيح غير مسكون مثل هذا المكان - وكانت أشد ما تخشى على عفتها . لكن ... كلا لقد كان همس زوجها المجهول !

ها هو يصعد ليشاركها السرير ، ها هو يأخذها بين ذراعيه ، ها هو يتملكها . ثم يجعل منها زوجته .

قبيل انبلاج الفجر بقليل غادرها على عجل ، وفى التو تقريباً سمعت أصوات وصيفاتها يؤكدن لها أنها رغم فقدانها عذريتها لم تفقد عفتها ... فعادت إلى النوم من جديد .

فى اليوم التالى كانت بسوكى أكثر اطمئناناً فى قصرها ، وفى الليلة التالية زارها زوجها الخفى مرة أخرى . ومضى اليوم والليلة الثالثة بالطريقة ذاتها ، كما يتوقع المرء ، وقد ذهبت حداثة وجود الخدم غير المرئيين واستقر بها المقام على تلك الوتيرة الممتعة للغاية ، فهى على كل حال لم تعد تشعر بالوحدة وكل هذه الأصوات من حولها .

فى تلك الأثناء كان الملك الشيخ والملكة يفعلان بالضبط ما طلبت منهما ألا يفعلاه - كانا يضيعان وقتهما فى حزن ودمع لا ضرورة لهما . وقد انتشرت أخبار مصير بسوكى المؤسف من بلد إلى بلد حتى سمعت اختاها الكبريان كل التفاصيل ، فتركتا قصريهما وهرعتا فى أسى عميق إلى مدينتهما ، مسقط رأسيهما ، لتعزيا أبويهما .

ليلة وصولهما قال زوج بسوكى ، الذى لم تعرف منه إلا اللمس والهمس ، محذراً إياها : «بسوكى الحلوة ! يا زوجتى الحبيبة ! الأقدار

قاسية ، وأنت فى خطر عظيم ، فتحوطى منه بحذر ، لقد انزعجت أختاك الكبريان لنبأ موتك ، وسوف تزوران قريباً الصخرة التى هبت منها الريح وأتت بك إلى هذا الوادى لتريا إن كانتا ستعثران لك على أثر . فلو حدث أن سمعتهما تندبانك هناك فلا تلقى إليهما بالاً على الإطلاق . ينبغى ألا تجيبيهما وألا تنظرى إليهما ، فإن ذلك سيسبب لى شقاء عظيماً ويهلكك أنت ذاتك» .

وعدت بسوكى أن تفعل ما طلبه منها زوجها . لكن عندما اختفت ظلمة الليل ، واختفى هو كذلك ، أمضت الفتاة المسكينة النهار بطوله وهى تسكب الدموع ، وهى تشكو وتعيد الشكوى من أن الأمر لم يقتصر على كونها سجينة هذا القصر البديع دون أن تجد إنسياً يبادلها الحديث فحسب ، بل إن زوجها يمنعها الآن من أن تسرى عن شقيقتيها البائستين أو حتى تنظر إليهما مجرد النظر دون كلام . وفى تلك الليلة دخلت سريرها دون عشاء أو حمام أو أى شئ آخر يخفف عنها وأغرقت وسادتها بالدموع . وقد جاء زوجها مبكراً على غير عادته تلك الليلة . ضمها إلى صدره ، وهى لا تزال تنتحب ، وعاتبها بلطف قائلاً : «أى بسوكى ! ماذا وعدتنى ؟ ما الذى أتوقع أن تفعليه بعد الآن ؟ لقد بكيت طيلة النهار والمساء ، وحتى الآن وأنا أضمك إليّ ها أنت تبكين . حسن إذن افعلى ما بدا لك . اتبعى أوهامك المهلكة . لكننى أنذرك بجد من أنك حين تشرعين فى تمنى لو أنك أنصت إليّ يكون السيف سبق العذل» .

تضرعت إليه متوسلة وهى تقسم أنها سوف تموت إن لم يأذن لها برؤية أختيها والتسرية عنهما والحديث معهما مدة قصيرة على الأقل ، حتى اضطرته فى النهاية إلى الموافقة . بل إنه مكنها من أن تعطيهما ما شاءت من الجواهر . بيد أنه حذرها بعزم رهيب من أن أختيها امرأتان شريرتان وأنهما ستحاولان تحريضها على اكتشاف شكله ، فلو أنها أصغت

إليهما فإن فضولها يعنى نهاية كل سعادتها الحاضرة وأنها لن ترقد بين ذراعيه بعدها أبداً .

شكرته على لطفه وعادت إلى طبيعتها مرة أخرى : «كلا .. كلا» اعترضت قائلة : «إننى أفضل الموت ألف مرة على أن أفقدك ، أنا لا أعرف أبداً من أنت لكننى أحبك ، أحبك فوق الوصف ، كما أحب روحى ذاتها ، ولن استبدل قبلاتك بقبلات الإله كيوبيد نفسه ، فأرجوك ... أرجوك ... أن تنعم عليّ بفضل آخر ، أؤمر خادمك الريح الغربية أن تحمل أختيّ إلى هنا بالطريقة الرائعة عينها التى حملتنى أنا بها» ثم طفقت تغمره بالقبلات الحلوة وتهمس فى أذنيه بكلمات الحب المعسولة وتلقى ذراعيها وساقيها من حوله ألصق ما تكون وتناديه : «يا حبيبى ! يا زوجى الغالى ! يا روح روحى !» حتى أجبرته ، وقد غلبته قوة حبها ، على الاستسلام ، وإن كان استسلاماً على مضض ، ووعدها بأن يعطيها ما شاءت ، لكنه اختفى ثانية قبل طلوع النهار ◆

كيوبيد وبسوكي (2)

كانت أختا بسوكى فى تلك الأثناء عرفتا طريقهما إلى الصخرة التى تركت وحيدة عندها ، فهرعتا إليها وهما تندبان وتضربان صدريهما حتى رجّعت المهاوى صدى نواحهما . كانتا تصرخان : «بسوكى ! بسوكى» حتى وصلت صرختهما الحادة أقصى بطن الوادى ، فجرت بسوكى خارجة من قصرها فى تأثر عنيف وهى تصيح : «أختيّ ! أختيّ العزيزتين ! لِمَ تندباني ؟ لا داعى للندب الآن ، ها أنذا ... بسوكى بذاتها ! أرجوكما .. أرجوكما أن توقفا هذا العويل الفظيع وأن تكفكفا الدموع ، لحظة واحدة ، وأعانقكما أنتما الاثنتين !» .

ثم صفّرت للريح تستدعيها وأبلغتها بأوامر زوجها ، فأطاعت من توها الأمر ونقلت الشقيقتين بإحدى هبّاتها اللطيفة آمنتين إلى بسوكى . وقد تعانقت الأخوات الثلاث وقبل بعضهن بعضاً بحبور ، وما أسرع أن تهاطلت من مآقيهن دموع الفرح بدلاً من دموع الأسى ، وقالت بسوكى: «هلما أدخلا معى لتريا بيتى الجديد ، سوف تسعدان به للغاية» ، ثم ارتهما خزائنها ، وسمعتا أصوات الخدم غير المرئيين . بعدها أمرت لهما بحمام فاخر واحتفت بهما على مائدتها السحرية احتفاءً رائعاً . غير أن الكشف عن هناءة بسوكى شبه الإلهية جعل الأختين كلتيهما تشعران بالغيرة المريرة - وبخاصة صغراهما التى كانت دائماً فضولية الطبع جداً . كانت تتحرق شوقاً لمعرفة مالك هذا الخير الأسطورى ، فشرعت فى الإلحاح على بسوكى

لتنبئها أى نمط من الرجال كان زوجها وكيف يعاملها .

كانت بسوكى وفية لوعدها فلم تخبر أختها بشئ ، بل اختلقت قصة تناسب المقام . قالت إن زوجها كان شاباً بالغ الوسامة وله ذقن صغيرة ناعمة ، وإنه يقضى وقته كله فى الصيد فى الهضاب والوديان المجاورة . لكنها شعرت بالخوف عندما بدأت شقيقتاها فى استنطاقها . لتفرض أنها ناقضت نفسها أو زل لسانها أو نكثت عهدها ؟ فسارعت إلى تحميلهما الاثنتين بفصوص الحجارة الكريمة والخواتم وطوقت عنقيهما بالعقود ، ثم استدعت الريح الغربية وطلبت منها حملهما بعيداً عنها فى الحال . حملتهما الريح إلى أعلى الصخرة ، وفى طريق عودتهما إلى المدينة بدأ سم الحسد عمله فى قلبيهما .

قالت الكبرى : «لكم عاملتنا ربة الحظ بظلم أعمى قاس ! هل تظنين من العدل أن نعطى نحن الشقيقات الثلاث مثل هذه المصائر المختلفة ؟ أنت وأنا الكبريان ، ورغم هذا ننفى من وطننا ونبعد عن أصدقائنا ونزوج لغريبين يعاملاننا كالإماء ، فى حين تعطى بسوكى - ثمرة جهد أمنا الواهن الأخير للحمل - أفخم قصر فى الوجود ورباً زوجاً لها ، وهى لا تعرف حتى كيف تستعمل ثروتها الطائلة . هل رأيت ، عمرك ، مثل هذه الأكوام من الجواهر وهذه الصوانات الملأى بالثياب المطرزة ؟ أوه ! ! بل إن أرض القصر ذاتها صنعت من الذهب المرصع بالدر والياقوت ! فلو أن زوجها كان مثل إله فى منظره كما تقول فهى لا شك أسعد امرأة فى الدنيا كلها ، ولو أنه ظل على هيامه بها كما هو الآن فسوف يجعل منها ربة ، آه .. ألم تكن تسلك كالربة فعلاً ؟ إنها - على كل حال - ليست سوى لحم ودم ورغم هذا تأمر الريح فتطيع ، ولها قصر ملئ بالحشم غير المرئيين . لكم أمقتها ! إن زوجى أكبر سناً من أبى ، وأظهر صلعاً من القرع ، وضئيل كالولد الصغير ، وهو يوصد الأبواب على كل شئ فى البيت بالسلاسل والأقفال».

قالت الأخت الصغرى : «زوجى أسوأ من ذلك ، فهو يتوجع من عرق النسا الذى يمنعه من النوم معى أكثر من مرة واحدة كل ظهور قمر جديد ، وأصابعه متصلبة ذات عقد من أثر النقرس ، وعليّ أن أقضى نصف وقتى في تدليكها . هل تذكرين يدى البيضاوين الجميلتين ؟ حسن . انظرى حالتهما الآن بسبب عفص مكمداته العفنة ومراهمه الكريهة ، ولصوقه القذر ! إننى مساعدة طبيب أكثر منى ملكة . وأنت، يا عزيزتى ، صبورة أكثر مما يجب . أو - لو سمحت لى بهذا القول - أنت فى الواقع مسترقة بقبولك هذه الحالة الفظيعة ، أما أنا شخصياً فلا أستطيع ببساطة ، تحمل رؤية أختي الصغرى تحيا هذه الحياة الباذخة التى لا تستحقها . أنا سعيدة بأنك لاحظت كيف عاملتنا بتعال ، وكيف باهت بأموالها ، وكم كانت شحيحة بهداياها . ثم عندما ملت زيارتنا استدعت الريح وطيرتنا خارج قصرها . لكن سوف لن أدعى امرأة بعد الآن إن لم أعمل على دحرجتها من عليائها فى القريب العاجل وإيقاعها فى حفرة بلا قرار ، فإن كنت تحسين بالمرارة كما أحس ، وكما يجب ، من الطريقة التى أهانتنا بها فلمَ لا نوحد القوى ونرسم خطة ما للإطاحة بها ؟» .

قالت الأخت الكبرى «أنا معك ، واقترح أولاً وقبل كل شئ الا نري أحداً ، حتى أبانا وأمنا ، هداياها هذه ، ولا نخبر أحداً أبداً انها لا تزال على قيد الحياة ، يكفى سوءاً أن نراها ترفل فى نعيم حظها الحسن دون أن نطلق أخبارها فى بيتنا لتنتشر بعدها فى المدينة كلها ، يجب أن تدرك بسوكى أننا لسنا خدماً لها بل نحن أختاها الكبريان !» .

«طيب !» قالت الأخت الصغرى : «نعود إلى بيتينا الحقيرين وزوجينا الشيخين القميئين دون أن نخبر أمنا ولا أبانا بشئ ، وعندما تفكر إحدانا فى خطة محكمة لإذلال كبرياء بسوكى نأتى إلى هنا مرة أخرى وننفذها بكل جرأة» .

تعاهدت الأختان الشريرتان على هذا الأمر ، وأخفتا الهدايا الثمينة التى أعطتهما بسوكى ، وعندما اقتربتا من قصر أبيهما شرعت كل منهما فى تخميش وجهها وتقطيع شعرها فى حزن متكلف لعدم عثورهما على أى أثر لأختهما مما زاد فى حزن الملك والملكة أكثر من ذى قبل . ثم افترقتا ومضت كل منهما قافلة إلى بلاد زوجها يملأها الحقد الدفين وهى تقدح زناد فكرها لاستنباط حيلة تهلك بها أختها البريئة حتى ولو كان هذا يعنى قتلها .

فى تلك الأثناء قدَّم زوج بسوكى الخفى إنذاراً آخر لها، سألها ذلك ليلة: «هل تدركين أن عاصفة هوجاء تعتمل من بعيد ؟ سوف تهب عليك بعد قليل إن لم تتخذى أكبر الحيطة وسوف تأخذك أخذاً . إن هاتين الذئبتين الغدارتين تعدان العدة لهلاكك . سوف تحثانك على النظر إلى وجهى رغم أنى طالما قلت لك إنك ما إن ترينه حتى تفقدينى إلى الأبد ، فلو جاءت هاتان الحيتان الكريهتان لزيارتك مرة أخرى ، وأنا واثق من إنهما ستفعلان ، يجب أن ترفضى الحديث إليهما ، وإن كان هذا عسيراً بالنسبة لفتاة طيبة القلب ساذجة مثلما أنت كذلك ، فلتتجنبى على الأقل الرد على أى سؤال منهما عنى . تظاهرى بأنك لم تسمعيهما ، هذا أمر مهم جداً - إذ نتوقع أن نكون أسرة بعد قليل ، ورغم إنك لا تزالين أنت ذاتك مجرد طفلة فسيكون لى فى القريب طفل منك يولد إلهاً إن كتمت سرى ، فإن أفشيته ولد بشراً مائتاً» .

غمر بسوكى الابتهاج حين سمعت إنها قد تلد رباً ، وبدأت مهتاجة فى عد الشهور والأيام التى يجب أن تنقضى قبل أن يولد . لكنها ما كانت تعرف سوى القليل عن حقائق الحياة ولِمَ تستطع أن تفهم لم كان لثلم عذريتها مثل هذا الأثر الغريب على قوامها .

كانت الأختان الشريرتان فى طريقهما مسرعتين إلي قصر بسوكى كرة أخرى تنفخ فيهما شياطين الحقد القاسى ، ومرة أخرى أُنذرت بسوكى :

«اليوم يوم الفصل ! عدوك قريب ، لقد عسكر وأطلق جنوده ونفخ النفير ، عدوك من جنسك ودمك . إنهما أختاك الكبريان مندفعتان نحوك بسيفين مسلولين هدفهما عنقك ، أى حبيبتى بسوكى ! أى أخطار تحيق بنا ! أشفقى على نفسك ، وأشفقى عليّ ، وعلى طفلنا الذى لم يولد بعد ! احفظى سرى طى الكتمان ، واحفظينا جميعاً من الهلاك الذى يتهددنا . ارفضى رؤية تلك المرأتين الشريرتين ، لقد سلبتا الحق فى أن تدعيا أختيك بسبب مقتهما القاتل لك ، امنعيهما من المجئ إلى هنا ، ارفضى الإنصات إليهما عندما تجعلان الصخور تردد صدى صوتيهما البائس مثل السيرينات المنحنيات على مهوى الوادى ، اعتصمى بالصمت المطبق» .

قالت بسوكى وصوتها تكسره العبرات : «يمكنك بالتأكيد الوثوق بى، عندما زارتنى أختاى آخر مرة أعطيتك برهاناً ساطعاً على وفائى وقوتى على حفظ السر ، وهذا ما سيحدث غداً . أرجوك فقط أن تأمر الريح الغربية أن تقوم بواجبها كذى قبل ، وائذن لى على الأقل أن ألقى نظرة على أختى - تعزية بسيطة جداً عن عدم رؤيتى لك أبداً ... يا حبيبى !! هذه الخصل الفواحة تنحدر حول رأسك ، وهاتان الوجنتان الناعمتان كوجنتى ، وهذا الصدر المشع بالحرارة الدافقة ، أوه ... لكم أشتهى أن أعرف كيف تبدو الحقيقة بأن أتفحص وجه طفلى ! أتضرع إليك أن تخفف ما بى من شوق - فإن رفضك مضر بالطفل جداً - واسعد حبيبتك بسوكى . أنت وأنا يحب كل منا الآخر كل الحب ، وأعدك إن سمحت لى برؤية أختى ، بألا أخشى الظلمة أو يعترينى الشوق العارم لرؤيتك حين أضمك بين ذراعى .. يا نور حياتى !!» وقد حطم صوتها ومداعباتها اللطيفة مقاومته ، فجفف عينيها بخصلات شعره وأعطاها ما طلبت . ثم اختفى كالعادة مرة أخرى قبل أن يطلع النهار .

أما الأختان الشريرتان فقد رسا مركبهما عند أقرب ميناء وهرعتا ، دون أن تتكلفا حتى زيارة أبويهما ، قاصدين الصخرة مباشرة ، وقفزتا منها بجرأة فائقة دون انتظار الريح لتنفخ ثيابهما . وعلى كل حال فقد كانت الريح الغربية مجبرة على طاعة الأمر رغم ما قد يكون اعتراها من تردد ، فأمسكت بهما من رداءيهما فى منتصف الطريق إلى قاع الوادى وحطت بهما سالمتين على الأرض .

جرت الأختان إلى القصر تصيحان : «أختاه ! أختنا العزيزة ! أين أنت؟» ثم عانقتا ضحيتهما عناقاً كانت تحسبه حباً عميقاً . وبعدها صاحتا وهما تضحكان ضحكاً صاخباً تخفيان به غدرهما: «ماذا حدث يا بسوكى؟ إنك لست نحيلة القوام كما عهدناك ، ستصبحين أماً عما قريب ، إننا نتحرق شوقاً لنرى أى نوع من الأطفال سوف يكون ، وسيبتهج أبوانا بهذا الخبر ، أوه ... كم نحب أن نرعى طفلك الذهبى ، فإن شابه أبويه ، كما ينبغى الأمر ، فسوف يكون كيوبيداً صغيراً كاملاً» .

وشيئاً فشيئاً اكتسبتا ثقتها ، ولما رأتهما متعبتين من الوقوف دعتهما للجلوس والراحة بينما يسخن الماء لهما ، وعندما انهتا حمامهما ، قدمت لهما ألذ عشاء تذوقتاه فى حياتهما طبقاً بعد طبق من المطاعم الشهية بدءاً بالسجق المتبل بالبهارات وانتهاء بالفالوذج ، فى حين كان عازف قيثارة خفى يلعب لهما طبق أوامرها وعازف ناى غير مرئى يطربهما ، وجوقة تشدو بأعجب الألحان . غير أن قلبى الأختين القاسيين لم تلنهما حتى الموسيقى السماوية ، وبمكر خادع أدارتا دفة الحديث ليجرى عن زوجها وسألتاها من كان ومن أين جاءت أسرته .

كانت بسوكى ساذجة جداً ، فاختلقت لهما قصة جديدة وقد نسيت ما حدثتهما به من قبل ، قالت إنه تاجر فى منتصف العمر من البلاد المجاورة ،

مفرط الغنى ، ذو شعر وخطه الشيب ، ثم أنهت الحديث بسرعة ، وحملتهما بالهدايا السنية وودعتهما فى عربة الريح .

فى طريقهما إلى بلديهما قالت الأخت الصغرى : «ماذا تعدين هذه الأكاذيب الفظيعة التى تحدثنا بها ؟ لقد قالت هذه المخلوقة السخيفة فى البداية إن زوجها شاب ذو ذقن صغيرة ، ثم ها هى تذكر أنه رجل فى أوسط العمر ذو شعر أشيب ! زلة لسان ... هيه ؟! يمكنك القول إما أن هذه الحيوانة تخفى عنا أمراً أو أنها لا تعرف هى نفسها ما شكل زوجها» .

قالت الأخت الكبرى : «مهما تكن الحقيقة يجب أن نهلكها بأسرع ما يمكن ، لكن إذا كانت فعلاً لم تر زوجها أبداً فمن الضرورى أن يكون إلهاً وسوف يكون ابنها إلهاً أيضاً» .

قالت الصغرى : ««لو ان شيئاً مثل هذا حدث ، لا سمحت السماء ، فسأشنق نفسى فى الحال ، لست أحتمل أن تكون بسوكى أماً لإله خالد . أحسب انه يجب إيجاد وسيلة ما الآن لأفضل طريق لخداعها ، وفى هذه الأثناء .. ماذا لو زرنا الوالدين ؟» .

ذهبتا إلى القصر حيتا أبويهما تحية مقتضبة ، وقد أبقاهما عنف انفعالهما ساهرتين الليل بطوله ، وما أن انبلج الصبح حتى أسرعتا إلى الصخرة وألقتا بنفسيهما منها لتنزلقا كالعادة إلى الوادى بمساعدة الريح الغربية ، وقد حكتا جفونهما بشدة لكى تستخرجا منها بضع قطرات من الدمع ، ومضتا إلى بسوكى وقالتا لها : «أوه .. يا أختاه ! إن الجهل فى الواقع نعمة ! ها أنت تجلسين سعيدة هادئة البال دون أدنى اشتباه فى النكبة الرهيبة التى حلت بك ، ونحن فى أشد العذاب من أجلك ، ترين أننا نسهر على مصلحتك كالشقيقات الحقيقيات ، ولما كنا نحن الثلاثة اقتسمنا دائماً السراء والضراء فإن من الخطأ أن نخفى عنك الخطر المحدق بك ، ذلك أن

الزوج الذى يأتى متستراً لينزلق ليلاً فى سـريرك ليس غير أفعوان ضخم ذى فكين واسعين فـاغرين ، وجسم يمكن أن يـلتف من حولك اثنتى عشـرة مرة ورقبة منتفخة بالسم الزعاف ، تذكرى ماذا قال موحى أبوللو مكتوب عليك أن تتزوجى حيواناً متوحشاً ضارياً .

لقد قابله عدد من المزارعين ، الذين يذهبـون للصيد فى الغابات المحيطة بهذا المكان ، عـائداً إلى بيته هذا من مرعـاه عند هبوط الليل ، كما رآه كـثير من الناس فى القرية المجاورة يسبح عبر النهر هناك ، وهم جميعاً يقولون إنه لن يدللك أكثر مما فـعل ، وحين تقترب شهـورك التسعة من نهايتـها سوف يلتهمك حـية ، إذ الواضح أن طعامه المفضل امرأة فى أيام الحـمل الأخيرة ، الأفضل لك إذن أن تقـررى إما أن تأتى وتعيـشى معنا وسوف نفـعل كل ما فى الوجود لإنقاذك - أو تفضلى الإقامة هنا مع هذا الأفعوان الجهنمى حتى تلقى نهايتك فى أمـعائه - أم لعلك استـهواك العيش هنا وحيـدة دون رفيق سوى الأصـوات المحيطة بك طيلة النهـار ، وفى الليل يعانقك أفعـوان سام فى سرية مقززة . إن كان الأمر كـذلك فهنيئاً لك بحياتك ، ونحن على كل حال أدينا واجبنا كشقيقتين محبتين بتحذيرك من النهاية الحتمية» .

ذهلت بسوكى المسكينة الساذجة عند سمـاعها هذا الكلام ، وفقدت كل سيطرة على نفسـها ، ارتعدت فرائصها وانقلب لونهـا إلى شحوب الموت ، واندفعت فى هاوية الشـقاء ، ناسية كل تحذيرات زوجـها وكل وعودها له ، وانفـجرت قـائلة : «يا أعـز الأخـوات ! شكراً على لطفكمـا ، إنكمـا على صواب تام فى تحذيركـما لى وأحسب أن من حدثكم بهـذا الأمر صادق فى حديثه ، الحـقيقة أننى لم أرَ وجه زوجى مطلقـاً وليس لدى أدنى فكرة عمن يكون أو من أين جاء ، إننى اسمعه يحـدثنى همساً فى الليل فحسب ، ومن العسير عليّ أن أكون زوجة من يكره ضـوء النهار مثلما يفعل زوجى ، ولذا فإن لدى كل سبب وجيـه أن أفترض كما تفعـلان ، أن لابد من كونه وحشاً

من الوحوش ، وفضلاً عن ذلك فهو ينـذرني دائماً مما سيحدث إن حاولت رؤيتـه ، فأرجـوكمـا أن تنصـحانى كـيف أسلك فى هذا الموقف المخـيف ، وأرشدانى أيتها الأختان العزيزتان، وإلا ضـاع الجهد الذى بذلتماه بلطفكما فى سبيلى» .

أدركت المرأتان أن استحكامات دفاع بسـوكى قد تهاوت وأن قلبها بات مفتوحاً للهجوم ، فاستغلتا الفرصة السانحة بضراوة .

قالت الـصغرى : «الدم لا يصـبح ماء يا عـزيزتى ! والتفكير فى الخطر المحدق بك ينسـينا الأخطار من حولنا نحن . لقد تدبرنا الأمـر نحن الثنتين مرات لا تحصى منذ الأمس ووصلنا إلى نتيجـة أن لديك فرصة واحدة فقط لإنقاذ نفسك ، وهى هذه : خذى مدية قاطعة حادة ، وزيديها حدة بشحذها على راحة يدك ، ثم خبـئيها فى مكان ما بجـانب السرير الذى تنامين عليه ، وخذى أيضـاً مصباحاً وامـلئيه زيتاً حـتى حافته واقـرضى ذبالته بعناية ، ثم أوقـديه واخفـيه فى غـرفة النوم ، قـومى بهـذا كله خفـية ، وعندمـا يزورك الوحش كالعادة انتظرى حتى يتمدد على طوله فوق السرير ، وستعرفين من نفسه العميق انه استغرق فى النوم تماماً .

عندها انزلقى من السرير والمدية فى يدك وامشى على أطراف أصابعك إلى مخبـأ المصباح ، وأخـيراً بمساعدة نور المـصباح ، نفذى عـملك النبيل ، أغرزى المدية بما أوتيت من قوة فى عنق الوحش السام وحزى رأسه ، ونحن نعدك بالوقوف قـريباً منك والمراقبة الحذرة . وفى اللحظة التي تنفـذين فيها نفسك بقتله نهرع إليك ونعـينك على الفرار بكل ثروتك وأموالك . بعدها نزوجك من إنسى مناسب لك» .

فلما رأت الأختـان أن بسوكى مصممة علـى اتباع نصيحتهـما غادرتاها بهدوء ، خـوفاً من أن تكونـا فى أى مكان قريب منهـا عند حلول الكارثة .

وقد نقلتهما الريح الغربية إلى الصخرة ، ومنها جرتا إلى سفينتهما بأسرع ما استطاعتا وأبحرتا فى الحال .

ظلت بسوكى وحيدة ، فيما عدا شيطانات الشر التى تتملك روح امرأة عزمت على قتل زوجها . كان بالها مضطرباً كالبحر الهائج . فى البداية كان عزمها ثابتاً وهى تهيئ لجريمتها ، ثم بدأت تتردد ويتنابها القلق متفكرة فى ما سيحدث إن نجحت وماذا سيكون إن أخفقت . سارعت .. ثم تباطأت ، غير شاعرة بالثقة التامة فى ما إذا كانت تقوم بعمل صواب . ثم تملكها الغضب مرة أخرى . وأعجب ما فى القضية أنها رغم نفورها من فكرة النوم وأفعواناً ساماً فقد كانت لا تزال تحب زوجها . فلما اقترب الليل حزمت أمرها فى النهاية وأسرعت تعد المصباح والمدية .

جن الليل ، وجاء زوجها إلى سريره ، وبعد أن أنهيا عناق وتقبيل بعضهما البعض غلبه النوم فنام . لم تكن بسوكى بطبعها امرأة قوية ولا شجاعة ، بيد أن قوة القدر القاسية جعلت منها امرأة فحلة جسوراً . كشفت غطاء المصباح ، وهى تمسك المدية بقبضة قاتلة ، وأذنت لنوره أن يشع فوق السرير . فى الحال كشف السر . هناك استلقى أرق وأحلى جميع المخلوقات «الوحشية» .. كيوبيد ذاته .. إله الحب الجميل ، رآه لهب المصباح فتراقص جذلاً ، واحنت المدية طرفها خجلاً ! .

صعقت بسوكى ، فقدت السيطرة على كل حواسها ، فوقعت على ركبتيها ترتعش ولونها فى شحوب الأموات . حاولت بيأس أن تخفى المدية بدفنها فى قلبها هى . وكان لها أن تنجح لولا أن تراجعت المدية عن الجريمة وتملصت من يدها ، مدهوشة يكاد يغشى عليها بدأت بسوكى تسترجع أنفاسها وهى تحدق فى جمال كيوبيد السماوى ، كان شعره الذهبى المغسول بماء الحياة لا يزال يتضوع بأريجه ، وخصله الكثة تتماوج على العنق العاجى

والخدين المتوردين ، يهبط رائعاً متشابكاً على جانبى رأسه - شعر مشع حتى أن لهب المصباح طرف للنور الباهر المنبثق منه . وعلى كتفيه جناحان ناعمان أكثر بياضاً من الثلج ، ساكنان إلا الزغب عند أطراف الريش يرف بمكر طيلة الوقت . أما باقى جسده فكان من النعومة والجمال بحيث أن فينوس لم تكن لتخجل من اعتباره ابنها . وعلى طرف السرير رقد قوس إله الحب وجعبته وسهامه .

لم يكن يشبع فضول بسوكى غير فحص قريب لأسلحة زوجها المقدسة، فجذبت سهماً من الجعبة ولمست رأسه بطرف إبهامها لترى حدته ، فضغطت عليه ، لارتعاش يدها أكثر مما يجب ، فوخز إبهامها وانبجست قطرة أو قطرتان من الدم ، فجأة وقعت بسوكى فى حب الحب ! فألقت بنفسها عليه يحرقها الوجد وتعصرها الرغبة وقد ازداد غرامها بكيوبيد عن ذى قبل ، وغمرته بالقبلات ، كان خوفها الوحيد أن يصحو سريعاً .

وفيما كانت ملتصقة به ، وقد أذهلتها المتعة ، طش المصباح الذى كانت لا تزال تحمله نقطة من زيته الحار - غدراً أو حسداً أو لهفة على لمس وتقبيل ذلك الجسد الرائع البديع - فسقطت على كتف كيوبيد اليمنى ، يا له من مصباح سافل دنئ ! يا له من إناء حقير فى هيكل الحب ! فالمؤكد أن أول مصباح عرف كان اختراع محب دنف رام إطالة متعة النظر إلى محبوبه طيلة الليل - فأحرق كتف رب نار الحب الموقدة .

قفز كيوبيد ألماً وألقى نظرة سريعة على المشهد المشين كله ، وأفرد جناحيه وطار دون أن ينبس بكلمة واحدة ، غير أن الفتاة التعيسة تعلقت بقدمه اليمنى بكلتا يديها والتصقت بهما ، وكان منظرها غريباً وهى تطير هكذا خلال السحب . لكن قوتها ما لبثت أن خذلتها فوقعت تتدحرج على الأرض من جديد .

لم يهجرها كيوبيد من فوره ، بل حط على قمة شجرة سرو قريبة حيث طفق يبكتها : «أوه .. يا بسوكى الساذجة الغريرة ! من أجلك عصيت أوامر أمى فينوس ! أمرتنى بأن ألهبك بغرام رجل لا قدر له ففضلت أن أهبط من السماء وأصبح أنا نفسى حبيبك ، أعرف جيداً أننى تصرفت دون تفكير .. فانظرى الآن إلى النتيجة ! كيوبيد ، القواس الشهير ، يجرح نفسه بأحد سهامه ويتزوج فتاة تحسبه وحشاً ضارياً ، تحاول أن تقطع رأسه وتعتم عينيه اللتين طالما شعتا بحبها . هذا هو الخطر الذى حذرتك منه مرات ومرات ورجوتك بلطف أن تتحوطى لنفسك . أما أختاك اللتان صيرتاك ضدى ونصحتاك هذه النصيحة الملعونة فسأنتقم منهما قريباً . أما عقابك أنت فسيكون ببساطة ، فى أن أطير بعيداً عنك» قال هذا ، ثم ارتفع محلقاً فى الجو ومضى إلى حال سبيله .

رقدت بسوكى دون حراك على الأرض تتبعه بناظريها وتنوح بمرارة، وحين غيبت خفقات جناحيه الثابتة كيوبيد عن بصرها صعدت إلى ضفة نهر كان يجرى بالقرب منها وألقت بنفسها فى الماء ، غير أن النهر اللطيف أخذها فوق موجة رقيقة - احتراماً للإله الذى تحس بسلطانه مخلوقات الماء كما تحس به السباع والطيور - ووضعها دون أن يلحقها أذى على بساط من العشب المزهر .

وقد اتفق أن كان بان ، إله الريف ذو الأقدام العنزية ، جالساً غير بعيد يداعب حورية الجبل ايكو ويعلمها كيف تعيد كل ضروب الأغنيات الحلوة. من حوله كان يطوف قطيع من الماعز يرعى العشب بنهم ، وكان بان علم بمصيبة بسوكى ، فواسى الفتاة المسكينة وقدم لها ما يستطيع للترويح عنها ، قال لها مهدئاً : «يا عزيزتى الحلوة ! على الرغم من أننى راع عجوز طاعن فى السن ومجرد رجل ريفى فقد مررت بتجارب كثيرة للغاية فى أيامى ، فإن كنت مصيباً فى تخمينى ، أو فى كهانتى كما يسميها الناس

العقلاء ، فإن مشيتك المترنحة ولونك الشاحب وآهاتك المتواصلة وعينيك الحزينتين تبين عن أنك فى حال حب عظيم . اسمعى .. لا تحاولى مرة أخرى الانتحار بالقفز فى هاوية أو ارتكاب أمر عنيف آخر . كفى عن العويل وحاولى أن تكونى مرحة ، وافتحى قلبك لكيوبيد ... أعظمنا نحن الآلهة .. فهو شاب مدلل تماماً ينبغى عليك أن تناغيه بالصلاة له بأرق الكلمات وأحلى الحديث» .

من حسن الطالع بالطبع أن يخاطب بان أحداً من البشر ، غير أن بسوكى لم تحر جواباً ، اكتفت بانحناءة احترام له ثم مضت فى سبيلها . زحفت على طول الطريق المحاذية للنهر مدة ، ثم قررت لسبب أو لآخر أن تتبع مسرباً أبعدها عن النهر ، وقادها المسرب عند غروب الشمس إلى مدينة اكتشفت أن أختها الكبرى كانت ملكتها فأعلنت عن مقدمها عند مدخل القصر وسرعان ما أذن لها فى الدخول .

بعد تبادل العناق سألت الملكة أختها بسوكى عن سبب مجيئها ، فأجابت : «هل تذكرين نصيحتك عن المدية والأفعوان الرهيب الذى اتخذنى زوجة وكان سيبتلعنى ؟ حسن لقد اتبعت نصيحتك ، ولكن ما أن أضأت مصباحى على السرير حتى رأيت منظراً عجباً : ابن فينوس المقدس.. كيوبيد ذاته .. مستلقياً هناك فى نوم هادئ . غلبنى الفرح والحبور. فقدت صوابى ولم أدر كيف أطفئ شوقى إليه ، ثم سقطت عرضاً نقطة من زيت المصباح الحارق على كتفه فأيقظه الألم على الفور ، ولما رآنى ممسكة بالمصباح والمدية صاح فى : «أيتها المرأة الشريرة ! اخرجى من هنا حالاً ! أنت طالق .. طالق .. طالق ! وسوف أتزوج بأختك الكبرى بدلاً منك» ثم نادى الريح الغربية التى أخذتنى خارج القصر وعصفت بى إلى هنا» .

لم تكد بسوكى تكمل قصتها حتى اندفعت أختها ، وقد أطارت الغيرة عقلها لنوم أختها مع إله فى فراش واحد وأحرقتها الرغبة فى تذوق طعم التجربة ، اندفعت إلى زوجها تنبئه بأن أبويها ماتا وأن عليها الإبحار إلى بلادها فوراً . وقد ذهبت من توها ، وحين بلغت الصخرة ، وكانت ريح أخرى تعصف ، صاحت بثقة كاملة : «ها أنذا يا كيوبيد ! امرأة جديرة بحبك ، يا ريح الغرب ! احملى سيدتك إلى القصر فى الحال !» ثم قفزت من الصخرة غير أنها لم تبلغ الوادى أبداً حية أو ميتة ، إذ مزقتها الصخور إرباً إرباً وهى تهوى فوقها ، وتناثر لحمها وأمعاؤها على جانب الجبل ، فنالت بذلك ما تستحق ، واحتفلت الطيور الجارحة والوحوش على بقايا أشلائها .

هامت بسوكى هنا وهناك حتى جاءت مدينة أخرى كانت ملكتها أختها الثانية ، فأخبرتها القصة ذاتها ، وقد أبحرت المرأة الشريرة فى الحال ، وهى تتمنى أن تحل محل بسوكى بين ذراعيّ كيوبيد ، وأسرعت إلى الصخرة وقفزت من فوقها ، فلاقت حتفها كما فعلت أختها من قبل ◊

الفصل التاسع

كيوبيد وبسوكي (3)

مضت بسوكى فى ترحالها من بلد إلى بلد باحثة عن كيوبيد ، بيد أنه كان فى السماء طريح الفراش فى جناح من قصر أمه الملكى يئن من فرط الألم . وفى تلك الأثناء غاص فى الماء نورس أبيض من تلك النوارس التى ترفرف على سطح البحر تضرب بأجنحتها أمواجه ، حيث قابل فينوس التى كانت تستمتع بغطسة فى البحر ، وأبلغها أن ابنها كيوبيد كان يلازم الفراش بسبب حرق بالغ أليم يشك فى برئه منه . أخبرها أيضاً عن كل ضروب الفضيحة عن آل فينوس تتردد على الأفواه . أخبرها كذلك أن الناس يقولون أن ابنها هبط إلى جبل ما من أجل عمل غير لائق وفتاة إنسية، وان فينوس ذاتها هجرت واجباتها القدسية وقصدت شاطئ البحر للراحة والاستجمام ، وأضاف النورس قائلاً : «والنتيجة أن (متعة) و (حسناء) و (دعابة) اختفت جميعها من الأرض ، وإن كل شئ بات قبيحاً وسخيفاً ومضطرباً للغاية . ما من أحد يبالى الآن بزوجته أو صحابه أو أطفاله ، وأن نظام الحب البشرى كله فى حالة ارتباك كامل حتى بات إظهار العاطفة الطبيعية أمراً يبعث على الاشمئزاز للغاية» .

ولقد نجح هذا الطائر الفضولى الثرثار فى إثارة فينوس ضد ابنها ، إذ هاج بها الغضب وصاحت : «إذن اتخذ ولدى الواعد محظية له .. هكذا؟ ! أخبرنى أيها النورس ، إذ يبدو أنك الكائن الوحيد الذى ظل يحمل حباً حقيقياً ، هل تعرف اسم المخلوقة التى أغوت طفلى الساذج المسكين ؟ هل

هى إحدى عرائس الفن ، أم إحدى الحسان من تلميذاتى ؟» .

كان النورس على أهبة الاستعداد لنشر الفضيحة التى سمعها على أوسع نطاق ، قال : «لا يمكنني القول على وجه التأكيد ، يا صاحبة الجلالة ، لكن إذا لم تخنى الذاكرة أظن الحكاية أن ابنك وقع فى حب عنيف لإنسية تدعى بسوكى» .

جنت فينوس غضباً وزعقت : «ماذا ؟! معها هى دون سائر النساء؟! مع بسوكى مدعية جمالى ومنافستى فى مجدى ؟! هذا أسوأ وأسوأ ! عن طريقى عرفها .. فهل يحسبنى هذا الولد الشقى قوادة له ؟!» ثم خرجت على الفور من البحر وأسرعت تحلق إلى غرفتها الذهبية حيث وجدت كيوبيد مريضاً ملقى على الفراش كما أنبأها النورس .

بمجرد أن دخلت زعقت بأعلى صوتها : ««أهذا هو السلوك اللائق ؟ شرفت عائلتك المقدسة وبنيت لنفسك صيتاً رائعاً !! تدوس أوامر أمك تحت قدميك كما انها لا سلطان لها عليك مهما يكن ، وبدلاً من أن تعذب غريمتها بعاطفة شقية ، كما أمرت أن تفعل ، لك من النذالة ما يجعلك تضاجع الفتاة أنت نفسك . فى سنك هذه أيها الحيوان الصغير الفاسق ! أحسبت أنه يسعدنى أن تكون لى كنة.. هيه؟! أظننت أيها النصاب المحتال، أيها الولد الفاجر ، أنك وريثى وأننى جاوزت سن الحمل والولادة ؟! فلتفهم ، من فضلك ، أننى قادرة تماماً على إنجاب ابن آخر ، لو شئت .. أفضل منك مائة مرة ، واننى على استعداد كامل لحرمانك من الإرث فى سبيله ، ولكى أجعلك تحس بالخزى أكثر فأكثر فسأتبنى .. قانونياً ، ابن أحد عبيدى وأسلمه جناحيك وشعلتك وقوسك وسهامك التى كنت تستخدمها بطرق لم أنوها أبداً . ولى كل الحق فى أن أفعل هذا ، إذ ليس شئ من أسلحتك هذه قدمها أبوك فولكان . الحق أنك كنت سيئ السلوك منذ أيامك الأولى ، وكان يحلو لك دائماً إيذاء الناس الطيبين ، ويا طالما أصبت

بسهامك من هم أكبر منك سناً ، وأنا - أمك - طالما أخجلتنى أمام العالم كله يوماً بعد يوم ، أيها الشقى العاق ، بأن رشقتنى فى كل جارحة من جسدى بسهامك الصغيرة الفظيعة . أنت تشخر لى وتدعونى (الأرملة) لأننى وأباك ، كما أحسب ، لسنا على وفاق الآن، ولا تبدى ذرة من احترام لزوج أمك .. مارس الذى لا يقهر .. بل إنك فى الواقع تبذل قصارى جهدك لمضايقتى بجعله يجرى خلف نساء أخريات وجعلى أنا أجن من فرط الغيرة . بيد أنك ستأسف عما قريب لاجترامك كل هذه الألاعيب ، وأنذرك بأن زواجك هذا سيترك طعماً حامضاً مراً فى فمك» .

لم يجب كيوبيد بكلمة ، فطفقت تتشكى تحدث نفسها فى صوت خافت : «هذا كله حسن . كلهم يضحكون منى وأنا لا أدرى ماذا أفعل ولا إلى أين أذهب . كيف يمكننى - بحق السماء - أن أمسك بتلك السحلية الصغيرة الكريهة وأطبق عليها ؟ أظن أن الأفضل أن أطلب مساعدة (صحوة) العجوز ، وهى التى كنت أبداً شديدة الفظاظة معها فى سبيل ابنى الفاسد هذا . هل يجب حقاً أن أمضى إلى تلك الخنزيرة الجلفة القذرة ... عدوتى الطبيعية ؟ إن مجرد التفكير فى هذا يرسل القشعريرة فى أوصالى . بيد أن الانتقام لذيذ من أى جهة جاء . نعم .. أخشى أن تكون الشخص الوحيد القادر على القيام بأى عمل لي . سوف تلقن هذا الحيوان الصغير درس حياته ، تصادر جعبته ، تثلم سهامه ، وتقطع أوتار قوسه ، وتطفئ شعلته . والأفظع من هذا أنها سوف تجز شعر رأسه الذهبى الذى كنت أجعده باهتمام بيدى هاتين ، وتقص جناحيه الرائعين اللذين بيضتهما يوماً بلبن صدرى المدهش . فلعلنى ، حين يتم هذا أرتاح نوعاً ما» .

ثم اندفعت خارجة من فورها وعدت إلى حماتها يونو وعمتها سيريس اللتين لاحظتا مدى غضبها وسألتاها لِمَ تفسد بهاء عينيها البراقتين بتقطيبه كالحة ، أجابت فينوس قائلة : «الحمد للسماء أننى قابلتكما . كنت فى

حاجة لكما لتهدئتى . هناك ما يمكنكما عمله لى .. رجاء . آمل أن تجدًا فى البحث فى كل مكان عن مخلوقة آبقة اسمها بسوكى - أنا واثقة من سماعكما كل شئ عنها وعن فضيحة العائلة التى سببتها بعلاقتها مع .. مع.. أنتما تعرفان !!»

كانت الربتان تعرفان بالطبع كل شئ عن الموضوع ، فحاولتا تطمين غضبها . قالت يونو : «يا عزيزتى ! يجب ألا تثقلى فؤادك بهذا الأمر كثيراً. لم تحاولين إفساد متعته وقتل الفتاة التى وقع فى حبها ؟ ما الاثم الفظيع الذى ارتكبه ؟ ليس جريمة بالتأكيد أن يضاجع فتاة جميلة !»

وقالت سيريس: «يا حبيبتى! تتصورين أنه لايزال صبياً لانه يحمل سنوات عمره دون أن تبدو عليه . لكن ينبغى أن تدركى أنه فى سن الشباب الآن. هل نسيت عمره ؟ الحق أننى ويونو نرى غريباً منك، أنت الأم والمرأة، أن تصرى على دس أنفك فى شؤونه الخاصة ، وحين تكتشفينه متلبساً بحالة حب تلومين الفتى المسكين على مواهبه وميوله التى ورثها مباشرة منك . أى إله أو بشر يمكنه الصبر عليك ؟ أنت تمرحين هنا وهناك تثيرين الرغبة الجنسية فى الناس بيد أنك تحاولين فى الوقت نفسه كبت الرغبة فى ابنك ! هل تنوين حقاً أن تغلقى المصدر الوحيد لضعف المرأة الكونى ؟»

لم تكن الربتان صادقتين فى دفاعهما عن كيوبيد ، وإنما كانتا تخشيان سهامه ، وحسبتا من الحكمة أن تذكراه بخير حتى وإن كان غائباً ، فلما رأت فينوس رفضهما الأخذ بما حل بها من ظلم أولتهما ظهرها فى كبرياء وأسرعت ثانية نحو أمواج البحر .

كانت بسوكى فى تلك الأثناء تائهة لا يقر لها قرار تصل الليل بالنهار بحثاً عن زوجها . كانت تأمل فى أن يرق قلبه لها ، مهما اشتد به الغضب . إما بملاطفته بلغة حبهما الخاصة أو بالركوع على ركبتيها فى توبة الندم

النصوح . وذات يوم رأت معبداً على قمة تل منحدر فقالت فى ذات نفسها: «هل يا ترى أجد زوجى هناك ؟» ثم مضت بهدوء صوب التل وقلبها يخفق بالحب والرجاء ، فبلغت المعبد بمشقة بعد أن صعدت جرفاً بعد جرف ، فألفته مليئاً بأكوام النذور من أكاليل الحنطة وحزمها وسنابل الشعير ، وكذلك المناجل وأدوات الحصاد الأخرى - وكلها مبعثر دون نظام كما لو كان ألقاها حصادون مهملون فى نهاية يوم صيف قائظ .

شرعت بسوكى فى ترتيب هذه الأشياء كلها بعناية ووضعها فى مكانها الصحيح ،وهى تحس بوجوب سلوكها باحترام أمام أى معبود يتفق أن تمر بمعبده ، وتطلب عون الأسرة السماوية كلها واحداً بعد الآخر، وكان ذلك المعبد خاصاً بالربة السخية سيريس وقد رأتها منهمكة فى العمل فنادتها عن بعد : «أوه .. يا بسوكى المسكينة ! فينوس غاضبة كل الغضب وهى تبحث عنك فى كل مكان ، تبغى أن تنتقم منك أبشع انتقام . يدهشنى أن تجدى الوقت لتنفقيه فى الاهتمام بشؤونى أو أن تفكرى فى أى شئ آخر على الإطلاق عدا النجاة بنفسك» .

تحدر شعر بسوكى على أرض المعبد فيما انحنت على قدمى الربة تبللهما بدموعها ، وتأوهت تسأل حمايتها : «ألوذ بك ، أيتها الربة ، بسنابل القمح فى يدك ، بحفل موطن الحصاد السعيد ، بمحتويات السر فى قفاف القش المحمولة يوم عيدك ، بتنانين عربتك المجنحة ، بأخاديد المحراث فى صقلية التى اغتصب منها إله قاس ابنتك بروسربين ذات مرة ، بعجلات عربته ، بالأرض التى أطبقت عليها، بعودتها خارج الأرض مضاءة الشعلة، وبأسرار أخرى يخفيها حرمك الأغريقى فى اليوسيس - ساعدينى .. أدعوك أن تعينى التعيسة المتبتلة إليك .. بسوكى .. اسمحى لى أن أختبئ لبضعة أيام فقط تحت ذلك الكدس من حزم القمح حتى يفتر غضب الربة العظيمة ، فإن لم يكن فاسمحى لى بقليل من الراحة لأننى - أقسم لك -

متعبة جداً جداً ، ولم أتوقف عن الترحال لحظة منذ بدأت» .

أجابت سيريس قائلة : «ان دموعك وصلواتك تنفذ إلى صميم قلبى وكم أود لو ساعدتك . لكننى ، فى الحقيقة ، لا يمكننى الإساءة إلى ابنة أختى . لقد كانت إحدى أفضل صديقاتى على مدى العصور المتطاولة ، وهى فى الواقع طيبة القلب لو عرفتها . الأفضل أن تغادرى هذا المكان حالاً واحسبى نفسك محظوظة لأننى لم ألق القبض عليك» .

خرجت بسوكى من المعبد وقد ازدادت حزناً على حزن ، فهى لم تكن تتوقع مثل هذا الرد ، بيد أنها سرعان ما رأت فى الوادى أسفل التل معبداً آخر جميلاً وسط غيضة مقدسة . كانت تخشى أن تفلت أية فرصة ، مهما ضؤلت ، فى سبيل تسوية أمورها ، فهبطت إلى المعبد ترجو حماية ربه مهما كان هذا الرب . هناك رأت نذوراً متنوعة رائعة تتدلى من أغصان الغيضة ومن باب المعبد ، من ضمنها ثياب فاخرة مطرزة بحروف من الذهب تكون اسم الربة التى قدمت اليها .. يونو .. وتسجل أفضالها على مقدمى هذه النذور .

خرت بسوكى ساجدة على ركبتيها ، ومسحت دموعها ، وبدأت فى التوسل وهى تحتضن مذبح الهيكل الذى كان لايزال حاراً بالقرابين الجديدة : «يا أخت جوبتر العظيم وزوجته ! لا أدرى أين أنت الآن . لعلك فى أحد معابدك فى ساموس – فأهلها يفاخرون بأنك ولدت فى جزيرتهم وقضيت طفولتك المثيرة هناك ، أو لعلك تزورين الآن مدينتك السعيدة قرطاجنة فوق هضبتها السامقة ، حيث تعبدين عذراء تمرح فى السموات فى عربة تجرها الأسود . أو لعلك تنظرين من أسوار آرغوس الشهيرة التى يشقها نهر اناخوس ، حيث تعبدين باعتبارك ملكة السماء وعروس الرعد . وحيثما كنت ، يا من يوقرك الشرق كله باسم زيجيا ربة الزواج ، والغرب كله باسم لوسينا ربة الولادة ، أبتهل إليك باعتبارك يونو الحارسة . أتوسل إليك أن

ترعيني في مصيبتي وتنقذيني من الأخطار التي تهددني . ترين - أيتها الربة - أنني منهكة جداً جداً ، وأنا أعرف أنك دوماً مستعدة لمعاونة النسوة الحبالى إذا ما حاقت بهن المتاعب» .

ظهرت يونو بكل جلالها العظيم وقالت : «يا عزيزتي ! لكم أود مساعدتك ، بيد أن التقاليد السماوية تمنعني . لا يمكنني معارضة رغبات فينوس زوجة ابني فولكان كما تعلمين ، والتي أحببتها دائماً كما لو كانت ابنتي ، إلى جانب أن القانون يمنعني من حماية أية جارية طريدة دون موافقة مالكها» .

ضاق الحال ببسوكي عند تحطم آمالها للمرة الثانية وشعرت بأنه لم يعد في قدرتها مطلقاً مواصلة البحث عن زوجها المجنح ، فقدت كل أمل في النجاة وقالت لنفسها : «أين المفر في هذا العالم ، أو حتى خارجه ، ومن أين أطلب العون إذا كانت حتى هاتان الربتان القويتان لا تقدمان لي شيئاً سوى كلمات العطف ؟ لقد اشتبكت قدماي في شراك القدر حتى ليبدو من العبث أن أطلب منهما أخذي إلى أي مكان آخر . أين ذاك المبنى الذي أختفي فيه عن عيني فينوس الراصدة حتى وإن أوصدت كل نوافذه وأبوابه؟ الحق ، يا عزيزتي بسوكي ، أن الواجب عليك الآن استعارة شئ من شجاعة الرجال . يجب أن تلغي كل أمل كاذب في النجاة وتستسلمي من تلقاء نفسك لمولاتك القاهرة . قد يكون الأوان فات لكن يجب على الأقل أن تحاولي تخفيف سخطها بالاستسلام المطلق لها . وإلى جانب هذا، وبعد بحثك الطويل دون جدوى ، فإن لديك فرصة ممكنة جداً أن تجدي زوجك في بيت حماتك» .

كان قرار بسوكي في أداء واجبها خطيراً ، بل انتحارياً ، بيد أنها هيأت نفسها للأمر بالتفكير في نوع الابتهال الذي ينبغي أن توجهه إلى مولاتها فينوس .

كانت فينوس فى تلك الأثناء قد رفضت استخدام أى بشر فى بحثها عن بسوكى ، وعادت إلى السماء حيث أمرت بإعداد عربتها . كانت العربة من الذهب الخالص المصقول ذات زخارف تجعل من قيمتها المادية صفراً إذا ما قورنت بقيمتها كعمل من أعمال الفن الرائعة، وكانت هدية زوجها فولكان يوم زواجها من ضمن سرب على أهبة الاستعداد طارت أربع حمامات بسعادة يقدمن أعناقهن الملونة بألوان قوس قزح إلى أعنة العربة المرصعة بالجواهر. وما أن امتطت فينوس عربتها حتى مضت بها فى سرعة البرق، ومن خلفها حلق حشد من طيور السنونو المراحة وطيور صغيرة أخرى تغرد بحلاوة تعلن عن مقدم الربة العظيمة.

توارت السحب ، وفتحت السماء ، واستقبلتها طبقة الجو العليا بفرح ، وكان حشمها الشادى بالألحان لا يخشون فى شئ تلك النسور الحوامة أو الصقور النهمة . وقد مضت فينوس مباشرة إلى قلعة جوبتر الملكية حيث طلبت خدمات ميركورى ، منادى السماء ، على الفور ، فى أمر عاجل للغاية ، وحينما حرك جوبتر حاجب عينه الياقوتى بالموافقة سرت فينوس وانسحبت من حضرته ، ثم أبلغت تعليماتهما المحددة لميركورى الذى كان يصاحبها آنذاك : «أخى العزيز ! تعلم أننى لم أقم فى حياتى بعمل مطلقاً دون مساعدتك ، وتعلم كم ظللت دون الحصول على خبر عن جاريتى الآبقة . ينبغى عليك الآن أن تعلن عن مكافأة لمن يجدها . واحرص على أن تطاع أوامرى فى الحال . يجب وصف شكلها وصفاً دقيقاً حتى لا يدعى أحد الجهل عذراً لإيوائها . هذا ملفها . اسمها بسوكى ، وفى الملف كل المعلومات المطلوبة عنها» ثم سلمته كتيباً صغيراً ومضت إلى مقرها على الفور .

فعل ميركورى ما أمر به ، مضى من بلد إلى بلد وهو ينادى : «يا هوه .. يا هوه !! من يمسك ويقبض على شخص أميرة هاربة ، احدى جوارى فينوس هانم ، اسمها : ب س و ك ي - أو يقدم أى معلومات تؤدى إلى

اكتشـافها ، فليذهب إلى ميـركورى .. منادى السماء .. فى مـعبده - طريق سيدة الريـحان - تل الشوفان - روما . والجـائزة المعروضة كمـا يلى : سبع قبلات حلوة من فم فينوس المذكورة نفسها ، ودفعة بالغة الحلاوة من لسانها العسلى بين شفتيه المنفرجتين !!» .

بالطبع سرت فى البشـر كلهم روح الغيرة المتنافسة عند سـماعهم اعلان هذه الجائزة ، وهذا ما وضع حداً كبيراً لتردد بسوكى . كانت قريبة من قصر مولاتـها عندمـا قابلتـها واحـدة من خدم القـصر اسـمهـا «العادة القـديمة» صرخت فى التو بأعلى صوتها «أيتها الشقية القذرة ! أنت ؟! عرفت أخيراً أن لك مولاة ! هيـه ؟ .. لا تتظاهرى يا صفيـقة الوجه بأنك لم تسـمعى بما سببته لنا من كرب عظيم فى بحثنا عنك . طيب ! أنا سعـيدة إذ وقعت بين يدى أنا وليس فى يد أحـد غيرى مـن الخدم .. لأنك سالمة هنـا .. سالمة بين فكى الجحيم ! ولن يتأخر عقابك أيضاً ، أيتـها الحقيرة العنيدة الوقحة !» ثم غرزت أصابعـها فى شعر بسـوكى وجرتها إلى حضـرة فينوس جراً - رغم أن المسكينة جاءت بمحض اختيارها وإرادتها .

انفجـرت فينوس فى ضـحكة هستـيرية تأتى مـن امرأة بالغة الـغضب . هزت رأسـها مـتوعـدة وحكّت أذنها - الأذن اليـمنى التى يقـال أن خلفهـا يوجد عرش الانتقام : «آه ..» هكذا صـاحت : «تنازلت اذن لتقديم فروض الاحـترام إلـى حمـاتك .. أليس كـذلك ؟! أم لعلك جـئت لزيارة فـراش مرض زوجك بعد أن سـمعت أنه لايزال مريضاً جـداً من أثر حرقك إياه ؟ لكن .. لترتاحى . أعدك بالترحيب الواجب على الحماة الطيبة أن تستقبل به كنتهـا !» ثم صفقت بيديهـا تستحضـر عبديها .. «قلق» و «حـزن» .. فلما حضرا راكضين اسلمتهما بسوكى للعقاب ، فقاداها خارج حضرتها وطفقا يجلدانها بقـسوة ويذيقانهـا صنوف العذاب الأخرى ، ثم أعاداها كـرة ثانية إلى حضرة فينوس .

ومرة أخرى وهوهت فينوس بالضحك : «انظروا إليها» هكذا زعقت: «انظروا إلى هذه الزانية ! إن بطنها المتفخ هذا يجعلنى أشعر بالرثاء لها . إنها ، وحق السماء ، لتعذب قلب الجدة فى صدرى ! جدة ؟! حقاً !! ما أروع أن أكون جدة فى عمرى هذا ! وما أروع التفكير فى ابن هذه الجارية المنفرة سيدعى حفيد فينوس ! كلا .. هذا بالطبع كلام فارغ ، زواج رب وبشر مائت ، احتفل به فى أعماق الريف دون شهود ودون موافقة والد العروس ، لا يمكن أن يعترف به قانوناً . طفلك ، يا بنيتى ، سيكون ابن حرام وغداً حتى إن سمحت لك بأن تلديه» .

ثم اندفعت نحو بسوكى المسكينة تمزق ثيابها قطعاً وتشد ملء يدها من شعرها ثم أمسكت بها من كتفيها وهزتها هزاً عنيفاً حتى كادت تطير رأسها من جسدها وتفك أوصالها . بعدها طلبت كميات من القمح والشعير والدخن والعدس والفول وحب الخردل والجلبان ، وخلطتها جميعاً فى كدس هائل . ثم قالت : «منظرك يبدو مخيفاً أيتها الجارية ! والسبيل الوحيد لك للحصول على محب هو العمل الشاق . سأختبرك الآن بنفسى لأرى جدّك . هل ترين هذا الكوم من البذور المخلوطة ؟ استخرجى كل نوع على حدة ، وضعيها فى أكوام صغيرة منفصلة ، وبرهنى على سرعة أصابعك بأن تجعلى كل حبة فى مكانها الصحيح قبل هبوط الليل» ثم مضت مسرعة ، لا تلوى على شئ ، لتحضر صبحية زفاف إحدى العرائس.

لم تحاول بسوكى البدء فى عملها المروع ، بل جلست تحدق ساهمة إلى أن اتفق مرور نملة صغيرة جداً من نمل الريف أدركت الذى كان يجرى، وقد جعلت الشفقة على بسوكى ، زوجة إله الحب العظيم ، تلك النملة الصغيرة تصب اللعنات على رأس الحماة القاسية ، وتنطلق بسرعة لتجميع كل نملة فى المنطقة : «أشفقن عليها يا أخواتى ! أشفقن على هذه الفتاة الجميلة يا بنات الأرض السخية المنهمكات فى العمل الدؤوب ! إنها زوجة الحب

نفسه وحياتها فى خطر داهم ، أسرعن .. أسرعن إلى النجدة !»

وقد جاءت النملات على عجل بأسرع ما تحملها أقدامها الستة ، موجة بعد موجة ، وبدأت العمل بحماسة لفصل خليط البذور حبة بعد حبة . وما أسرع أن انتهت النملات من إعادة ترتيب البذور بأناقة فى أكوام منفصلة ، ثم جرت هاربة فى الحال .

عادت فينوس ذاك المساء وهى نشوانة قليلاً ، تفوح منها رائحة طيوب نفاذة ، وقد عصبت رأسها بضفيرة من الورود . فلما رأت السرعة التى أنهت بها بسوكى عملها قالت : «أنت لم تقومى بهذا بخبطة يد واحدة ، أيتها الشقية ! هذا عمل من سحرته ، أيتها الحقيرة، لكننى سوف أريك ...» ثم رمت نحوها برغيف جاف ومضت عنها إلى فراشها .

فى تلك الأثناء كانت فينوس قد حبست كيوبيد فى غرفة نومه ، أولاً لتمنعه من القيام بألاعيبه الماكرة المعتادة فيزيد من سوء جراحه، وثانياً لكى تبعده عن حبيبة قلبه . وهكذا قضى العاشقان ليلة بائسة غير قادرين على أن يزور أحدهما الآخر ، رغم كونهما تحت سقف واحد .

وبمجرد أن أرسلت ربة الفجر فريقها يعبر السماء نادت فينوس بسوكى وقالت : «هل ترين تلك الغيضة على حافة ضفة الجدول هناك تتدلى منها الثمار على سطح الماء ؟ فيها تسرح خراف ذهبية لماعة دون راع يرعاها . أريد أن تأتى لى بضميمة من صوفها الثمين ، ولا أبالى كيف تحصلين عليها» .

نهضت بسوكى دون أدنى نية فى طاعة أوامر فينوس . لقد حزمت أمرها على أن تلقى بنفسها فى النهر وتنهى آلامها . غير أن قصبة خضراء ، مما يستخدم فى صنع مزامير بان ، طيرتها نسمة سماوية وهمست لها : «انتظرى يا بسوكى .. انتظرى ! أعلم كم عانيت من الام فظيعة . لكن

يجب ألا تلوثى هذه المياه المقـدسة بالانتحـار . وشئ آخر : يجب ألا تذهبى إلى الغيضـة حتى لا تعرضى حياتك للخطـر بين تلك الخراف . ليس بعد . فإن حرارة الشـمس تهيجها حتى لتـقتل كل بشر يغامر بالدخـول بينها ، إما بنطحها بقرونها أو بخبطه برؤوسـها الصلدة حتى الموت ، أو بعضة بأسنانها السـامة . انتـظرى يا بسوكى .. انـتظرى حتى يقـتـرب الأصيل مـن نهايتـه وتهدهد همسات الماء السارية هذه الخراف لتنام . اختبئى فى أثناء ذلك تحت شـجـرة السنط التى ترتوى من الماء نفسـه كـما أرتوى ، وبمجـرد أن تهـدأ الخـراف امضى إلى الغـيضـة واجمـعى ندف الصوف الـذهبى التى تلفينهـا معلقة بأطراف النبت هناك» .

كانت قصبة طيبـة لطيفة اتبعت بسوكى نصيحتها فـأثبتت صدقها . وفى ذلك المساء كـان فى مكنتهـا العودة إلى فـينوس بملء حجرها صـوفاً ذهبـياً ناعماً . ورغم هذا فإن قيامها بهذا العمل الثانى الخطر لم يرض فينوس التى قطبت جبينها وقـالت ببسمة قاسية : «لقد ساعـدك أحد ما مرة أخرى . هذا واضح . سوف أضع شـجاعتك وفطنتك مـوضع امتحـان أدهى وأمر . هل ترين قـمة ذلك الجـبل الشاهق هناك ؟ سـتلقين جـدولاً داكن اللون ينصب على جوانبه السحـيقة فى هاوية أسفله ، ومن هناك يفيض على مـستنقعات ستوجيا ويرفد «نهر النحـيب» الأجش الصوت . هذى جرة صغيرة . اذهبى الآن حالاً وأتـى بها مـلأى حتى حـافتـها بالماء البـارد كالثلج من منتـصف الجدول بالضبط حيث ينبجس من الصخرة» .

ثم أعطت بسوكى جرة من البـلور الصقيل وشيعتـها بتهديد مجـدد عما سيحدث لها إن آبت خاوية الوفاض .

انطلقـت بسـوكى من فـورها إلى قـمـة الجـبل ، الذى كـان يسـمى آرووانيـوس ، وفى ذهنها أنهـا قد تجـد هناك وسيلة على الأقل لوضـع حد لحياتهـا البائسة ، وعندما اقتـربت من القمة رأت أى عمل مفـزع خطير أعد

لها . كانت مياه نهر ستوكس تتفجر من منتصف مهوى شاهق منزلق شديد الانحدار ، وتصب فى قناة ضيقة شقت طريقها فى الصخر بمرور القرون ، ثم تفيض من حيث لا ترى فى هاوية أسفل الجبل ، وعلى جانبى المجرى رأت تنينين رهيبين يزومان ، لا ينامان أبداً ، يحرسانه دون أن يطرف لهما جفن ، وقد مدا عنقيهما الطويلين فوق الماء المقدس . وكانت المياه تتدفق بعنف فترسل أصواتاً كالكلمات بين الفينة والأخرى : «ابتعدى دى دى دى دى دى دى !» .. ماذا تريدين دين دين دين دين دين !» .. «أمشى شى شى شى شى شى !» .. «ما قصدك دك دك دك دك دك !» .. «الحذر ر ر ر ر ر ر ر !» .. «اذهبى بى بى بى بى بى !» .. «الموت موت موت موت موت موت !».

وقفت بسوكى جامدة كالحجر وقد طار عقلها شعاعاً . فإن فكرة الاستحالة المطلقة للنجاة حية من الفخ الذى نصبته لها فينوس كانت تغمرها حتى إنها لم تعد تستطيع التنفيس عن عذابها بالدموع - وسيلة الراحة الأخيرة عند المرأة حين تمضى الأمور بها على غير ما يرام . غير أن عين «العناية» اللطيفة الحادة تلمح الأرواح البريئة عندما يحيق بها العناء . وبناء على خاطر منها أرسل طائر جوبتر الملكى . النسر الكاسر، جناحيه هابطاً على حين غرة من السماء إلى بسوكى ، وقد تذكر بشعور من الامتنان ذلك الدين القديم الذى كان مديناً به لكيوبيد حين أعانه على حمل غانوميد ، الأمير الفروجى الجميل ، إلى السماء ليصبح ساقى جوبتر . ولما كانت بسوكى زوجة كيوبيد فقد صاح بها قائلاً : «أى بسوكى الطيبة الساذجة الغريرة ! كيف لك أن ترجى سرقة نقطة واحدة من ماء هذا الجدول المقدس المخيف ؟ لقد سمعت بالتأكيد أن جوبتر نفسه يخشى مياه نهر ستوكس ، وكما أنك تقسمين بالآلهة المباركة فإن الأرباب تقسم بهذا النهر القاهر . دعينى آخذ منك تلك الجرة الصغيرة» . ثم خطف الجرة من

قبضتها بسرعة وحلق بجناحيه القويين ، وهو ينعطف يمنة ويسرة متبعاً طريقاً متعرجاً بين صفي الأنياب المفزعين ولساني التنينين المتذبذبين برؤوسهما الثلاثة حتى بلغ المكان المطلوب ، وقد رفض الجدول فى البداية أن يعطى قطرة من مائه وأنذر النسر لكى ينجو بنفسه مادام فى إمكانه النجاة، غير أن النسر ادعى أن الربة فينوس كانت تبغى الماء وأنها عهدت إليه بإحضاره - وهو ادعاء كان له بعض الأثر على الجدول ، فملأ النسر الجرة بالماء وعاد بها سالمة إلى بسوكى التى غمرها الحبور .

آبت بسوكى بالجرة إلى فينوس ، بيد أنها لم تستطع أن تهدئ من هياجها حتى بهذا النجاح الأخير . كانت فينوس عاقدة العزم على امتحانها مرة أخرى امتحاناً أفظع. فقالت لها بابتسامة حلوة تحمل فى طياتها هلاكها: «لابد أنك ساحرة .. بل ساحرة ماكرة شريرة .. وإلا ما تمكنت أبداً من تنفيذ أوامرى بهذه الدقة ، لكن لا يزال لدى عمل آخر تؤدينه أيتها الفتاة العزيزة ! خذى هذا الصندوق من فضلك واهبطى إلى العالم السفلي .. إلى مكان الموت .. حيث يعيش بلوتو ، سلمى الصندوق إلى الملكة بروسربين وقولى لها : تحيات مولاتى فينوس ، وهى ترجو أن تعيدى إليها هذا الصندوق مع شئ من جمالك فيه - ليس كثيراً ، بل ما يكفى ليوم واحد على الأقل ، فقد خسرت بعض مخزونها هى من الجمال نتيجة جلوسها طيلة الليل مع ابنها المريض حتى لم يبق لها الكثير . ثم ارجعى بالصندوق من فورك ، إذ يجب أن أستعمل تزاويقها قبل ظهورى فى (المسرح الأولمبي) الليلة» .

بدا الأمر وكأنه خاتمة كل شئ ، إذ أن أوامرها كانت تقضى بالذهاب إلى «العالم السفلى» فى طرطروس . فقد رأت بسوكى أنها كانت مرسلة إلى حتفها بجلاء ودون خفاء ، وفى الحال قصدت برجاً سامقاً ، وقد قررت أن أقصر طريق وأسهله إلى «العالم السفلى» أن تلقى بنفسها من أعلى

البرج ، لكن البرج نطق فجأة بلسان بشري : «أيتها الطفلة المسكينة !» قال : «هل تنوين حقاً الانتحار بإلقاء نفسك من فوقي ؟ كم أنت متسرعة فى فقدان الأمل قبيل نهاية امتحانك ! هل تدركين أنك بمجرد خروج روحك من جسدك تذهبين فعلاً إلى أعماق طرطروس ، لكنك إذا أخذت ذلك الطريق مرة فلا رجاء فى الإياب أبداً ؟ انصتى إليّ .. إن مدينة لاكيدايمون الإغريقية الشهيرة غير بعيدة عنا اذهبي إلى هناك حالاً واطلبى أن تقادى إلى تايناروس ، وهو مكان تجدينه خارج الطريق العامة يقع على شبه جزيرة فى الجنوب ، ومتى وصلت تجدين أحد منافذ تهوية العالم السفلى ، ضعى رأسك فيه وسترين طريقاً تمضى إلى أسفل دونما مارة عليها . ادخلى من المنفذ فى الحال وستقودك الطريق مباشرة إلى مكان بلوتو ، ولا تنسي أن تأخذى معك رغيفين من خبز الشعير مخبوزين بماء عسلي ، واحداً فى كل يد ، وقطعتين من النقود فى فمك .

فإذا ما قطعت شوطاً كبيراً من الطريق لقيت جحشاً أعرج محملاً بالأخشاب ، وسيطلب منك قائده الأعرج أن تمدي له قطع حبال ليربط بها قسماً من الحمل الذى أوقعه الجحش . تجاوزيه صامتة ، ثم أسرعى حتى تبلغي نهر الأموات ، حيث يطلب منك خارون رسم الدخول ويدخلك عبر النهر فى قاربه المرقع وسط حشود من الأرواح . ويبدو أن إله الطمع يعيش هناك ، إذ أنه لا خارون ولا أبوه بلوتو يقدمان شيئاً مقابل لا شئ . (يتوقع من رجل فقير على حافة الموت أن يعد رسم مروره ، فلو عدم قطعة نقود منع من الموت الحقيقى ، وترك يطوف كئيباً إلى الأبد على هذا الجانب من نهر ستوكس) ما علينا .. أعطى الوغد الزنيم إحدى قطعتيك ، ودعيه يتناولها من فمك لا من يدك ، وبينما تنقلين عبر النهر البطئ الحركة تطفو جثة رجل عجوز ، سوف يرفع إليك يداً متعفنة ويرجوك أن تحمليه فى القارب ، ولكن يجب أن تحرصى على ألا تستسلمي لأى شعور

بالشفقة نحوه - هذا ممنوع ، وحين تبلغين الشاطئ تقابلين ثلاث نساء بعيداً عن ضفة النهر ، ينسجن قماشاً ، وسوف يطلبن مساعدتك ، لمس القماش أيضاً ممنوع .

كل هذه الخيالات والرؤى فخاخ نصبتها لك فينوس وغايتها أن تسقطى أحد الرغيفين اللذين تحملينهما ، ويجب أن تعلمى أن فى فقدانهما أو أى منهما القضاء المبرم - فهو يعني عدم عودتك إلى هذه الدنيا - بل تقدمينهما لسيربيوس الكلب المتوحش الضخم الجهنمى ذي الرؤوس الثلاثة فوق أعناق ثلاثة تنبح كلها فى وقت واحد ، ذلك الذى يخيف الموتى ، رغم أن الموتى ليسوا فى حاجة إلى تخويفه إذ ما هم سوى ظلال ، وليس فى قدرته إيذاء الظلال .

إن سيربيوس هذا حارس سرمدى على باب قصر بروسربين المظلم حيث تعيش هى وزوجها بلوتو فى ذاك المكان الموحش . ألقى له بأحد رغيفيك وستجدين من اليسير عليك أن تجتازيه إلى حضرة بروسربين ذاتها، وسوف ترحب بك ترحيباً حاراً ، وتقدم لك كرسياً ذا حشايا وتحضر لك وجبة شهية ، فاجلسى على الأرض ، واطلبى كسرة خبز عادية ولا تأكلى شيئاً عداها ، ثم أبلغى رسالتك وستعطيك ما جئت من أجله .

حين تخرجين ألقى للكلب المتوحش رغيف الخبز الباقى رشوة له لكى يسمح لك بالمرور ، ثم ادفعى للمراكبى الجشع قطعة النقود الذهبية الباقية أجرة عودتك عبر النهر ، وحين تبلغين الضفة الأخرى سالمة اتبعى الطريق التى ذهبت منه حتى ترى نجوم السماء المألوفة مرة أخرى . إنذار مهم أخير : حاذرى أن تفتحى الصندوق الذى تحملينه أو تلقى عليه نظرة ، فوعاء الجمال السماوى المخبوء ذاك ليس لك أن تطلعى على ما فيه » .

كان برجاً طيباً ملهماً وقد أخذت بسوكى بنصيحته ، مضت فى الحال

إلى تانياروس حيث هبطت الطريق ، مسلحة بقطعتي النقود والرغيفين إلى «العالم السفلى» تجاوزت الرجل والجحش الأعرجين فى صمت ، دفعت لخارون قطعة النقود الأولى ، سدت أذنيها عن صرخات الجثة العائمة ، رفضت الاستجابة لرجاء النسوة الناسجات ، هدأت الكلب المرعب بالرغيف الأول، ودخلت قصر بروسربين ، وهناك رفضت الكرسى الوثير والوجبة المغرية ، وجلست بتواضع عند قدمي بروسربين ، راضية بكسرة خبز عادى ، ثم أبلغتها فى النهاية رسالتها ، فملأت بروسربين الصندوق بتكتم ، وأغلقته ثم أعادته إليها . أوقفت بسوكى نباح الكلب بالرغيف الثانى ، دفعت لخارون قطعة النقود الثانية ، وعادت من «العالم السفلى» وهى تحس بصحة ونشاط أكثر مما كانت وهى فى طريقها إليه . ولما رأت نور النهار مرة أخري شرعت تصلي بحمد جماله، ورغم أنها كانت على عجل من أمرها لإنهاء مهمتها فقد سمحت لفضولها ، بغباء ، أن يغلبها ، قالت فى ذات نفسها : «أكون غبية لو أحمل ملء هذا الصندوق من الجمال المقدس دون أن أقترض ولو نزراً قليلاً منه لاستعمالى الخاص ، يجب أن أفعل أى شئ ممكن فى سبيل إرضاء حبيبى الجميل» .

فتحت الصندوق ، بيد انها لم تر فيه جمالاً ولا أى شئ سواه ، وإنما زحف خارجاً منه نوم ستوجى بالفعل تلبسها ولفها بسحابة كثيفة من النعاس ، فوقعت على الأرض وظلت ممددة كالجثة الهامدة دون حراك ، وإلى جانبها الصندوق .

أما كيوبيد فقد استرد عافيته من جراحه ولم يعد يطيق غيبة بسوكى لحظة أخرى ، فطار عبر نافذة غرفته الضيقة حيث سجنته أمه ، وحمله جناحاه ، وقد ازدادا نشاطاً بفضل راحتهما الطويلة ، أسرع من ذى قبل . ثم هرع إلى بسوكى وأزاح بعناية سحابة النوم عن جسدها ، وحبس السحابة ثانية فى الصندوق . وبعدها أيقظها بوخزة سهم لا تؤلم : «يا فتاتى

المسكينة!» قال لها «ها هو فضولك كاد يهلكك مرة أخرى ، سارعى الأن وأتمى عمل ما عهدت به إليك أمى ، وسأتكفل ببقية المسائل» ، ثم طار ، ونهضت بسوكى على الفور لتسلم هدية بروسربين إلى فينوس .

أما كيوبيد الذى ازداد ولعة ببسوكى وشغل باله اهتداء أمه المفاجئ إلى معنى السلوك المحترم ، فقد عاد إلى ألاعيبه الماكرة ، طار فى الحال بأقصى سرعة إلى أعلى أعالى السماء وألقى بنفسه مبتهلاً عند قدمى جوبتر حيث عرض قضيته . قرص جوبتر خديه المتوردين وقبل يده .. ثم قال : «يا مولاى الطفل ! إنك لم تعاملنى أبداً بالاحترام الذى قرره لى مجلس الأرباب ، وأنت دائماً ترسل سهامك فى قلبى المقدس ، موطن القوانين التى تحكم العناصر الأربعة وجميع كواكب السماء وكثيراً ما دنسته بمسائل الحب الأنسية المائتة ، مما يخالف قوانين السماء ، ويعارض مرسوم يوليوس عن الفحش ، ويعكر صفو السلام العام ، وأنت تسئ إلى سمعتى وسلطتى بتوريطى فى دسائس حب دنيئة ، وتحول مظهرى المهيب إلى مظهر أفعى أو نار أو حيوان متوحش أو طير أو ثور مزرعة .. لكن مهما يكن الحال لا أستطيع نسيان كيف هدهدتك على ركبتى وكيف يمكننى أن أكون رقيق الفؤاد ، وعليه فسوف أفعل كل ما تطلب ، لكن أرجو أن تدرك وجوب حماية نفسك من (شخص ما) قد يحسدك على زوجتك الجميلة ، وأن تكافئه فى الوقت ذاته على ما سوف يقدمه لك من خدمة . أنصحك إذن أن تقدمنى إلى أية فتاة أخرى ذات جمال باهر حقاً يتفق أن تكون فى مكان ما على الأرض اليوم !» .

ثم أمر ميركورى أن يدعو مجلس عموم السماء مع غرامة تخلف عن الحضور مقدارها عشرة آلاف درهم . وكان الجميع يخشى أن يغرم مثل هذا المبلغ ، فامتلأ المسرح السماوى فى الحال ، وألقى جوبتر العظيم من عرشه العالى فى الجمع هذا الخطاب :

«أيها الأرباب المبجلون .. أيتها الربات المفخمات .. من أسماؤهم مدونة فى سجل عرائس الفن الأبيض ! إنكم جميعاً تعرفون ذلك الشاب هناك ، وهو الذى ربيته منذ طفولته ، وقد آن الأوان ، فى رأيي ، لأن تكبح طبيعته العاطفية بطريقة أو بأخرى . يكفى تذكيركم بالشكاوى اليومية التى تأتى من تحريضه هذا أو ذاك على الفاحشة ونحوها . حسن .. لقد قررت منع الوغد الصغير من فعل أي شئ من هذا القبيل ، وذلك بتكبيله بأغلال الزواج وأن يوثق بها فلا يجد منها فكاكاً ! لقد وجد ، وأغوى فتاة جميلة تدعى بسوكى ، وحكمى أنه يجب عليه أن يتملكها ويتزوجها ، ويدللها منذ هذه اللحظة وإلى أبد الآبدين» !

ثم التفت إلى فينوس قائلاً : «عزيزتى ! ليس من المناسب أن تحزنى أو تخجلى من أن تحط رتبتك أو مقامك فى السماء قرينة ابنك ، فسأعمل على أن يكون الزواج على أساس التكافل الاجتماعى ، شرعياً تماماً ، ومطابقاً مطابقة كاملة للقانون المدنى» . قال هذا وأمر ميركورى بإحضار بسوكى على الفور والمثول فى حضرته ، فلما وصلت أخذ قدحاً من ماء الحياة وقدمها إليها قائلاً : «اشربى يا بسوكى وكونى خالدة ! لن يفلت كيوبيد من بين ذراعيك بعد الآن ، بل يظل زوجك الوفى إلى الأبد !» .

عندما مدت مأدبة العرس ، وجلس كيوبيد فى الصدارة على كرسى الشرف ورأس بسوكى مرتاح على صدره . من بعده مباشرة جلس جوبتر مع يونو فى نفس الجلسة المريحة ، ثم بقية الأرباب والربات بحسب ترتيب المقامات . وقد قدم لجوبتر رحيق الحياة وطعام الآلهة بيد ساقيه غانوميد ، واهتم باخوس إله الخمر بُبقية الحاضرين ، وكان فولكان رئيس الطباخين يومها . أما «الحوريات» فقد زيّنّ القصر بالورود الحمراء وأزاهير أخرى تصلح للأعراس ، ورشت «الحسان» ماء الزهر ، وشدت «عرائس الفن» بترنيمة العرس يصاحبهن ناي ومزمار من ساتوروس وبنيكوس . وأخيراً

ترنم أبوللو وهو يعزف على قيثارته ، وكانت موسيقاه عذبة غاية العذوبة جعلت فينوس تتقدم وترقص بخطواتها الرشيقة أجمل رقص وأحلاه .

تزوجت بسوكي من كيوبيد بطريقة لائقة ، وفى الوقت المناسب أنجبت له طفلها .. بنتاً اسمها : لذة»

وقفت بجوار الفتاة الأسيرة أنصت إلى هذه القصة الجميلة ، ورغم أن التى روتها كانت عجوزاً ثملة ، نصف معتوهة ، فقد أسفت إذ لم تكن لدي وسيلة ما أسجلها بها كتابةً ♦

الفصل العاشر

هزيمة اللصوص

رجع اللصوص بكمية هائلة من الأسلاب ، وإن كان واضحاً أنها جاءت بعد معركة ضارية ، إذ كان بعضهم جريحاً ، فتقرر تضميد جراح هؤلاء على أن يمكثوا فى الكهف فى حين يخرج الآخرون ليأتوا بأكياس أخرى ملأى بالأسلاب كانوا طمروها بجوار البيوت التى سرقوها . وبعد أن نالوا طعامهم قادونى وحصانى عبر الطريق ، وعصيّهم تهبط على ظهرينا ، وأخذوا يقطعون تلاً بعد تل فى طريق دائرى حتى بلغنا المطمور عند المساء . كنت وحصانى فى منتهى التعب بيد أن اللصوص لم يسمحوا لنا بلحظة راحة . حمّلونا وقفلوا بنا راجعين فى سرعة عصبية حتى انهم ساقونى إلى صخرة ملقاة فى الطريق فانكفأت فوقها . هبطت الضربات عليّ ثقيلة متلاحقة ولم أستطع النهوض إذ كانت إحدى رجلى الخلفيتين قد رُضّت رضاً شديداً وكدم حافرى ، فصاح أحدهم : «إلى متى نبذر العلف الفاخر على هذا الجحش المتهالك ؟ وها هو الآن يظلع زيادة على ذلك» أجابه آخر : «نعم . لقد جلب لنا النحس منذ أخذناه.. جُرح عدد من رفاقنا البواسل وعدد آخر مات ، ولم تكن الغنائم طيبة هى أيضاً» .

فوافق قائدهم : «حسن جداً . حالما ينقل هذا الحمل ، الذى يبدو أنه لا يبغى حمله ، سأدفعه فى الجرف هدية للعقبان» .

«كلا .. هذه ميتة سهلة جداً لهذا الحيوان» .

وكانوا لا يزالون يتجادلون بابتهاج فى أفضل طريقة لقتلى حين وصلنا الكهف . أنزلوا الأحمال من فوقنا ، ودون أن يقدموا لنا طعاماً أو شراباً أو حتى يتجشموا عناء قتلى ، نادوا رفاقهم الجرحى وعادوا معهم ثانية على الفور إلى المطمور ليعوضوا الوقت الذى سبب ضياعه كسلى ، كما قالوا ، وأخذوا معهم حصانى وتركونى .

أزعجنى التهديد بالموت إزعاجاً لا مزيد عليه ، فقلت لنفسى : «لوكيوس ! لِمَ تقف ها هنا مستكيناً تنتظر نهاية سلسلة هذه الأحداث لتنزل بك وتلقى بك فى باطن الأرض ؟ لقد عزم هؤلاء اللصوص على قتلك قتلة شنيعة جداً ، ولن يجدوا عسراً فى تنفيذ وعيدهم .. هل ترى ذلك الجرف بصخوره الناتئة الحادة من جوانبه ؟ حين تدفع فيه سوف تمزقك الحواف إرباً . إن السحر الرائع الذى خلب لبك لم يعطك سوى شكل جحش وعنائه ، لم يعطك حتى جلد الجحش السميك ، فجلدك طرىّ كجلد علقة الخيل . لِمَ لا تكون رجلاً ، فى روحك على الأقل ، آخر الأمر وتنقذ نفسك ما دامت أمامك فرصة لذلك ؟ لقد حانت الآن اللحظة المناسبة - فجميع اللصوص غائبون ، هل تراك تخشى عجوزاً إحدى قدميها فى القبر يمكنك أن تقضى عليها برفسة واحدة من رجلك العرجاء ؟»

«ولكن أنىَ لى أن أذهب .. بحق السماء ؟» - هكذا تابعت حديث نفسى «من ترى يستضيفنى ؟ .. كلا هذا سؤال أبله لا يسأله سوى جحش ! أى مسافر لا يسعده امتطاء ظهر دابة ضالة صادفته فركبها ؟» ثم استجمعت قواي كلها وشددت سير الجلد الذى كنت مربوطاً به وانطلقت بأسرع ما تحملنى أرجلى الأربع .

كان للعجوز عينان كعينى الصقر ، فالتقطت نهاية السير عندما شددته ، وحاولت بشجاعة أذهلتنى من مخلوقة فى مثل سنها أن تعيدنى إلى الكهف. أشرعت حافريّ الخلفيين ورفستها فطرحتها أرضاً، غير أنها

شددت قبضتها على السير حتى وهى طريحة الأرض ، فصرت برهة أركض وأنا أجرها ورائى . لم يكن ثَمّ أحد سوى كاريتى التى خرجت من الكهف تجرى حين سمعت صرخات العجوز . كان مشهداً فذاً لابد أن ديركى كانت تبدو فى مثل هذا المنظر حين ربطها ربيباها زيثوس وأمفيون إلى ذيل ثور هائج انتقاماً من قسوتها ! وقد انتهزت كاريتى الفرصة بجسارة ، ففكّت السير من قبضة العجوز ، ونهنهت من سرعة خطواتى ، ثم امتطتنى برشاقة وبدأت تستحثنى من جديد . قويت رغبتى فى الفرار بعزمى على إنقاذ الفتاة ، كما قويت بضرباتها على كفلى . ضربت أربعتى الأرض كجواد سباق وحاولت أن أرد على كلمات تشجيعها العذبة بالنهيق المتصل. وكنت أحياناً أدير رقبتى ، متظاهراً بأننى أحك جنبى ، وأقبّل قدميها الحلوتين .

سحبت كاريتى نفساً عميقاً وهي تنظر إلى السماء نظرة اللهفة وشرعت تدعو : «أيتها الأرباب المباركة ! ساعدينى - أدعوك أن تساعدينى الآن ، فى هذه الساعة العصيبة ، وأنت يا ربة الحظ القاسية .. أدعوك أن ترحمينى.. أرجوك ! ألم تكتف بما أنزلته بى نكاية ؟ أقسم لك .. لقد تعذبت كل العذاب» ، ثم مالت برأسها وطفقت تهمس فى أذنى : «أيها الجحش .. أيها الجحش الأعزّ ! إنى معتمدة عليك فى سبيل الحياة والحرية، لو أعدتنى ساعة إلى أبوي وزوجى الرائع لرأيت إلى أى مدى سنمتنّ لك جميعاً .. لرأيت كيف نكرمك ! أفضل طعام فى الدنيا لك بمجرد أن تطلبه. سوف أمشط عرفك وأجدله بيدى هاتين ، ثم أفرق خصل جبهتك وأجعدها وأزينها ، وسأنفق الساعات أسرح شعر زيلك الأشعث البائس الذي طال به الإهمال وأنسقه . سوف أعلق على جسمك كله الرُقَى ، يا منقذى ، حتى تشع كسماء ملأى بالنجوم ، وسوف أقودك فى احتفال النصر وصيحات خدمى ترتفع بتمجيدك ، سأكرمك طيلة حياتى ، آتيك

باللوز وأطايب الطعام كل يوم فى ميدعتى الحريرية . لكن .. لا تظنن أن الطعام الفاخر والمتعة الكاملة والحياة الطويلة السعيدة هى كل جزائى لك ، سوف أقيم لك تذكاراً فى بيتى ، لوحة منقوشة تصوّر فرارانا ، وسأكلف كاتباً ماهراً ليسطّر القصة فى كتاب تقرأه الأجيال القادمة . سيكون العنوان - دعنى أفكر - سيكون : (فرار على صهوة حمار !) أو : (كيف نجت فتاة ذات دم ملكى من الأسر !) ليس الموضوع علمياً جداً بالطبع ، لكن سيكون لك مكانك فى التاريخ ، ستكون مثالاً حديثاً يقوّى إيمان الناس بالأساطير - أعنى قصة فريكسوس وكيف عبرت الدردنيل على ظهر كبش ، وكيف امتطى أريون دلفيناً ، وكيف وصلت يوروبا إلى كريت فوق ثور سابح ، وإذا كان جوبتير فعلاً هو ذلك الثور ذا الخوار فلم لا يكون جحشى أنا ذو النهيق أحد الآلهة، أو لعله إنسان مسحور !» .

مضت كاريتى تثرثر ، تتنهد قلقاً تارة وتدعو رجاء تارة أخرى ، حتى بلغنا مفترقاً فى الطريق شدتنى فيه من مقودى وبذلت جهدها لأحيد يميناً، أقرب سبيل إلى بيتها . وكنت أعرف أن هذا هو الطريق الذى سلكه اللصوص حين مضوا ليأتو ا ببقية السلب ، فرفضت أن أفعل ما أرادت وحاورتها - عقلياً : «يا فتاتى المسكينة ! إنك تسيئين الاستفادة من خدماتى جداً ! ما الذى تحاولين فعله ؟ أترغبين فى الركوب إلى العالم الآخر ؟ سوف تقضين علينا نحن الاثنين معاً لو أخذت تلك الطريق» .

أصرّت . قاومت . وفيما نحن نختصم مثل وريثين فى المحكمة يتنازعان حول تقسيم ملكية أرض أو ، إذا شئت ، حول حق شق الطريق، جاء اللصوص بسلبهم . كان القمر بدراً فعرفونا من بعد وحيّونا بصيحات الضحك الساخر ، وزعق أحدهم : «إلى أين بهذه السرعة على ضوء القمر يا عزيزتى ؟ ألا تخافين الأشباح والأرواح الهائمة ؟ يا لك من ابنة طيبة ، أقسم بشرفى ، تختلسين زيارة مفاجئة لأبويك العجوزين العزيزين !

حسن.. عيب علينا أن ندعك ترحلين وحدك - وعليه فسنأتى معك مرافقين لنريك أقرب طريق !» ثم أمسك بشكيمتى وأدارنى وهو يضربنى دون رحمة بهراوة مثقلة . كان طبيعياً ، وأنا أفكر فى الموت يتهددنى بمجرد وصولى الكهف ، أن تذكرت حافرى المرضوض وشرعت أظلع وأنا أهز رأسى عُلُواً وسفلاً ، فنخر اللص وضربنى بالهراوة ثانية : «إذن أنت تتعثر وتعرج المشى ؟ منذ لحظة كنت تطير مثل بيغاسوس !»

حين بلغنا السور خارج الكهف وجدنا العجوز معلقة من رقبتها فى غصن شجرة سرو ، فأنزلها اللصوص وجروها من نهاية الحبل ودحرجوها فى الجرف ، ثم أوثقوا الفتاة وبدأوا يلتهمون العشاء الذى طهته لهم العجوز الخبيثة (بمهارة جهنمية) كما لو كانوا يتندرون ، وشرعوا يتناقشون - مملوئى الأيدى والأفواه - فى كيف ينتقمون للإهانة التى ألحقناها بهم . وكما يمكن أن يتوقع المرء من جماعة عربيدة كهذه اقترحت كل صنوف العقاب ، رغم اتفاق الجميع على قتلنا .

«احرقوها حيّةَ» .

«اربطوها لتأتى عليها الوحوش» .

«ماذا لو صلبناها ؟» .

«ضعوها فى سلسلة العذاب المعهودة» .

أخيراً استطاع أحدهم أن يهدئ من هرج رفاقه ليصغوا إليه ، فقال فى صوت رخيم هادئ : «أيها الرفاق ! إن قواعد جماعتنا وسمعتنا تمنعنا من أن ننزل عقاباً يفوق الجرم ، أنا شخصياً أستحى فى هذه الأحوال أن نلجأ إلى الحيوانات المفترسة أو الصلب أو المحرقة أو أدوات تعذيبنا المعهودة ، أو أية وسيلة تؤدى إلى الموت فوراً ، سبيلاً للثأر من إهانتنا ، فاصغوا إذن إلى رأيي ودعوا الفتاة تحيا ، نمط الحياة التى تستحق . تذكرون أنكم قررتم هذا

الصباح أن تقتلوا الجحش . لقد كان أبداً بهيماً كسولاً لا هم له سوى بطنه ، وقد ادّعى العرج وأعان أسيرتنا وساعدها على الفرار . رأيي أن تذبحوه غداً، بدلاً من إلقائه في الجرف، وتبقروا جوفه ، وإذ فضّل الفتاة علينا تدخلونها كرشه وتخيطونه عليها .. أتركوا رأسها وحده خارج أحشائه ويمكن حشو بقية جسمها في بطن الجحش ، ثم ضعوهما معاً علي صخرة تلهبها الشمس أشد ما يكون. ميزة اقتراحى هذا أنهما سيعانيان كل العذاب الذى جازيتموهما به جزاءً وفاقاً ، سوف يموت الجحش كما استحق منذ مدة ، وسوف تنهش الوحوش رأس الفتاة وتلتهم جسدها الديدان . سوف تحترق كما لو كانت على المحرقة حين تبدأ الشمس اللاهبة فى شيّ جيفة الجحش . وحين تبلغ الكلاب والعقبان أحشاءها أخيراً ستتخيل نفسها على الصليب نعم .. انها لطريقة رائعة حين تعدّون مزاياها الأخرى ، فهى أولاً سوف تترك لتحيا فى بطن دابة عزيزة ، وثانياً سوف يمتلئ منخاراها بالنتن الكريه ، وثالثاً سوف تتعذب جوعاً وعطشاً ، ورابعاً لن تستطيع استعمال يديها لتقصير أمد عذابها بقتل نفسها» .

وافق اللصوص بالإجماع على أن هذا هو المطلوب ، وقد التقطت أذناني الطويلتان كل كلمة ، وفكرت : «آه .. يا جسدى المسكين ! غداً تتحول إلي جيفة !» .

وحين بلغ الليل آخره وأضاءت الأرض بعربة الشمس الفاخرة وصل رجل إلي الكهف وقف منهكاً عند مدخله . وقد عرفت من تحية اللصوص له أنه ينتمى إلي العصابة ، وبعد أن استعاد أنفاسه قال :

«الأمر على ما يرام بالنسبة لبيت ميلو ، لا خوف علينا من أهل هوباتا ، أتذكرون ما أمرت به بعد سلبكم المكان وعودتكم إلى هنا بالغنائم ؟ كان عليّ أن أتخلف لأتجسس واختلط بالناس متظاهراً بالغضب لما حدث ، وأرقب الخطوات التى تتخذ لمتابعة السرقة ومعرفة السارقين ، ثم أرجع

إليكم بتقرير مفصّل ، وها هو : الجميع فى هوباتا يتهمون رجلاً يسمى نفسه لوكيوس - واسمه الحقيقى غير معروف - بأنه هو الذى نظّم عملية السطو ، وقيل لى ان القضية واضحة تماماً وليست مجرد تخمين . لقد زوّر لوكيوس هذا رسائل تقديم باعتباره شخصاً عظيم الاحترام واستخدمها ليتحبب إلى ميلو الذى استضافه وعامله كفرد من أسرته ، فقضى وقتاً قصيراً فى بيته وكّون علاقة مع جاريته وتظاهر بحبّها ، وعرف بدقة أقفال البيت ومزاليجه كلها ، كما عرف أين كان يخبئ ميلو أمواله . وقيل لى إن أمارة مهمة على جرمه اختفاؤه ليلة السطو نفسها وانه لم يُرَ منذ ذلك الحين ويقولون إنه كان من السهل عليه جداً أن يهرب على جواده الأبيض الأصيل الذى اختفى معه أيضاً . وقد اُتهم سائسه الذى كان لا يزال فى البيت عند وصول الشرطة، بأنه ساعد فى الجريمة وفرار سيده ، وأمر القضاة بسجنه ثم بتعذيبه فى اليوم التالى ، وكادوا يقتلونه تعذيباً ، غير أنه فى الواقع لم يقر بشئ يدين سيده ، وقد أُرسل تفويض إلى بلد لوكيوس بأوامر للبحث عنه وإحضاره لمناقشة الحساب» .

كنت فى أثناء هذا التقرير أَئِنُ فى داخلى وأنا أقارن بين الماضى والحاضر .. ذلك السيد لوكيوس السعيد بهذا الجحش التعس المشرف على النهاية ، وخطر لى أن الحكماء الأقدمين كانوا على صواب حين قالوا عن ربّة الحظ إنها عمياء ، بل فاقدة العينين ، لطريقة ثوابها الطالحين أو الأشرار فهى لا تبدى مطلقاً أقل الإدراك فى اختيار من تفضل ، بل الحق أنها تفضل من الناس من لو كانت ذات عينين فى رأسها لارتّدت عنهم مشمئزة . وأسوأ أخطائها تشجيعها الناس على أن يروا فينا رأياً لا يتفق وطباعنا الحقيقية ، بل يناقضها تمام المناقضة ، فنرى الوغد يتمتع بعيش القديس بينما ينال الرجل الكامل البراءة عقاب الأشرار .. خذ حالتى مثلاً ، يبدو أن ربة الحظ بذلت أقصى الجهد لتحوّلنى إلى حيوان ، دابة حمل ، من أحط

الأنماط، يحسبه أعتى المجرمين - ويا لسوء الحظ ! - حيواناً بشعاً غير جدير بعطفه ، وفوق هذا كله وجدتنى متهماً لا بالسطو على بيت فحسب بل بسرقة مضيفى الكريم - وهى جريمة أنكر تضاهى تقريباً قتل الوالدين ، ولم يسمح لى حتى بالدفاع عن نفسى أو النطق بكلمة واحدة أنكر فيها ما نسب إليّ ، وما دامت التهمة وجهت إليّ فى حضورى فلم أعد أحتمل أن يحسب أحد صمتى تسليماً ضمنياً بها أو نتيجة تأنيب الضمير ، كنت أتعذب بالرغبة فى الكلام ولو أن أنطق بعبارة واحدة «هذا كذب !» .

زعقت بـ : «ها .. ها» مرة بعد أخرى ، غير أننى وجدت من المستحيل أن أكمل : «ذا كذب !» وأنطق بالجملة ، رغم ما بذلت من جهد لتهتز شفتاى المتدليتان وترتعش بأفصح النطق ... فواصلت دون انقطاع : «ها .. ها .. ها !» ثم ساءلت نفسى : «لم أمض فى شكواي من ربة الحظ ؟ هل ثَمّ شئ أبعث على العار من خدعتها الأولى حين جعلتنى رفيق حظيرة ورفيق عمل لحصانى ؟!» غير أن هذه التأملات أفسحت الطريق لفكرة واحدة وهى أن اللصوص على وشك التضحية بى واتخاذ جثتى سجناً لكاريتى حتى يمنعوا شبحها من مطاردتهم كما كانت ستفعل لو قتلوها قتلاً . فطفقت أردّد النظر مرة بعد أخرى إلى بطنى ، وبدت لى كأنها احتوت فى داخلها الفتاة العاثرة الحظ .

فكّ الجاسوس الذى جاء بخبر تهمتى الباطلة خيوط ثيابه وأخرج ألف قطعة ذهبية كانت مخبأة فيها نهبها ، كما أوضح من بعض المسافرين قابلهم فى طريق عودته . أضافها إلى المال المكنوز ، ثم شرع يسأل بلهفة عن بقية رفاقه ، فلما أنبئ بأن بعضهم ، أشجعهم فى الحقيقة ، قتل بطريقة أو بأخرى، وإن كان قضى ببسالة كبيرة ، اقترح أن يرتاحوا فترة من اللصوصية وينفقوا الوقت فى حملة تجميع رفاق جدد . قال إنه يمكن التأثير فى بعض شباب المنطقة وضمان ولائهم رهبةً ، نتيجة شعورهم بالخوف ، لكن يمكن

اجتذاب البعض الآخر رغبة فى الغنائم ، فيتقدم متطوعاً ، وقسم ثالث يسعده أن يستبدل حياة الدعة والكسل بالانتماء لعصابة تتمتع بالقوة الكاملة تقريباً . وأضاف إنه التقى بشحّاذ شاب طويل القامة متين البنية ، وقال له إن من الواجب عليه أن يحسن استخدام يديه بدلاً من مدّهما فى طلب الإحسان . لم لا يعين نفسه بهما للحصول على الذهب ؟ إن قلة الحركة جعلته مترهّلاً ، ومن المؤسف ألا يستفيد من مزايا الصحة والقوة ما دامتا له ، وبعد نقاش قصير اقتنع الشحاذ بأن يتطوع للخدمة مع العصابة ، وهو الآن ينتظر غير بعيد فى الطريق .

وافق اللصوص جميعاً على الإجازة المقترحة وقرروا قبول القادم الجديد الذى بدا مالكاً الصفات المطلوبة ، ثم البحث بعد ذلك عن أمثاله ليعيدوا للعصابة قوتها من جديد . فخرج الجاسوس وآب بعد قليل يصحبة الشحاذ. كان عريض المنكبين بشكل خارق للعادة ، وكان أطول من أضخم اللصوص ، ورغم أن ذقنه كانت لا تزال مجرد زغب فقد كان أوسم الحاضرين دون نزاع ، وقد بدا صدره المتين وعضلات بطنه واضحة من خلال خرق الثياب المهلهلة التى كان يرتديها .

كانت تحيته عندما دخل : «صباح الخير .. أيها السادة ! إن كنتم على أهبة قبولى بحالتى هذه لأنضم إلى جماعتكم فإنى لأفخر بأن أصبح رفيقاً لكم أخدم معكم تحت رعاية الرب العظيم مارس . أنا جسور جداً ويسعدنى توالى الضربات فى المعركة أكثر مما تسعدنى قطع الخشب تدس فى راحتى على سبيل الإحسان . غيرى يخشى الموت أما أنا فأزدريه . لا تحكموا علي بهذه الأسمال ، فلست صعلوكاً ولا متشرداً ، ولكننى زعيم سابق لعصابة لصوص شديدة المراس طالما نهبت وأرعبت مقدونيا . اسمى: هايموس التراقى - الذى جعل البلاد ترتعد فرقاً ، وأبي كان ثيرو - زعيم عصابة شهير كذلك . رضعت الدم البشرى ، وربيت فى كهف للصوص

وورثت شجاعة أبي واقتفيت أثر خطواته . غير أنني فقدت عصابتي عن آخرها وكل الكنوز الهائلة التي جمعناها ، المشكلة كانت حين غضب مارس مني ، إذ هاجمت أحد كبار عمّال الامبراطور ، وهو حاكم إقليم سابق بمرتب سنوى مقداره ألفا قطعة من الذهب ، وكان فقد منصبه نتيجة الحظ العاثر ، هل ترغبون في سماع القصة ؟» .

«نعم ! إبدأ من البداية يا شاب !» .

«حسن إذن . كان لهذا العامل تاريخ مشرف في خدمة الامبراطورية، وكان الامبراطور نفسه يقدره تقديراً عالياً . غير أن خصومه وَشَوْا به حتى نفى هو وزوجته السيدة بلوتينا - امرأة مخلصة طيبة جداً مع نفورها من حياة المدينة ، أنجبت لزوجها عشرة أولاد - وتشاركه مصاعبه بصدر رحب . وقبل أن تذهب وزوجها مخفورين إلى ميناء الرحيل قصّت شعرها وربطت أحزمة من النقود الذهبية وأثمن عقودها حول وسطها وارتدت ملابس الرجال . لم تخفها سيوف الجند المسلولة وكانت ترعى زوجها خير رعاية ، قاسمته المخاطر وفعلت كل ما استطاعت من أجله وسلكت بشجاعة مسلك الرجل الذى كانت تدّعيه . وقد انتهى أسوأ جزء في الرحلة حين شاهدوا مدينة زاكونثوس ذات مساء حيث حكم عليهما بأن يقضيا حياتهما في المنفى ، وأبحرا عبر خليج أكثيوم. هناك أنزلت السفينة ركابها إذ كان البحر متلاطم الأمواج، وقضى الزوجان الليلة في بيت صغير على الشاطئ.

كنا قد غادرنا مقدونيا ، واتفق أن كنا نقوم ببعض المهمات في تلك المنطقة ، فدخلنا البيت الصغير على الشاطئ وجردناه من كل ما فيه وانطلقنا سالمين . غير أن السيدة بلوتينا أطلقت النذير بمجرد أن سمعت صفق الباب وهو يغلق ، وجرت إلى غرفة نوم زوجها وهى تصرخ بأعلى صوتها ! اللصوص ! اللصوص ! ولم تكتف بإيقاظ حراسها الشاكّي السلاح وعبيدها منادية كلاً باسمه ، بل صاحت بالجيران ليأتوا إلى نجدتها ، وما كنا

لنتخلص دون خسارة لو لم يرتبك عبيدها ويعمهم الاضطراب وكل منهم يبحث عن مخبأ له .

بعدها عادت هذه السيدة الرائعة - ولن أعتذر عن وصفها بالرائعة إذ أن هذه هي الحقيقة - عادت إلى روما وتوسلت إلى الامبراطور ، وعرضت قضية زوجها أمامه عرضاً ممتازاً جعله يوافق على إرجاعه من منفاه بل وينتقم لما لحقه من أذى . وقد عبّر الامبراطور في الحقيقة ، عن رغبته في أن تمحى عصابة هايموس من الوجود ، وتعرفون معنى رغبة القيصر ! نفذت هذه الرغبة في الحال ، وأرسلت دوريات الجنود وراءنا تطاردنا ليل نهار حتى لم يبق لنا ساق . مُزقت العصابة تمزيقاً ولم ينج منها سوى رجل واحد: أنا ! استطعت أن أتسلل من بين فكي الموت ، وتنكرت كامرأة في ثوب زاهي الألوان ذي تنورة طويلة ، وعلى رأسي نقاب ، وقد ضغطت قدميّ في خفين صغيرين أبيضين من تلك التي تنتعلها بنات الأرياف . قفزت فوق ظهر حمار محمّل بحزم الشعير وركبته سالماً وسط قوات الحملة المطاردة . لم يكشف أحد تنكري ، إذ لم تكن ذقني نمت وقتها وكانت وجنتاي ناعمتين حمراوين كوجنتي صبي . وقد عشت حتى بعد هذا حسب سمعة أبي وسمعتي ، رغم إقراري بأن تجربتي مع الفولاذ البارد جعلتني عصبياً نوعاً ما. قمت بغارات متنكراً في زي المرأة، بمفردي علي بعض بيوت الريف وحتى بعض القرى المحصنة، وجمعت هذا المقدار الصغير من الذهب يعينني على الطريق» .

ثم مزق جوانب أسماله وأخرج ألفي قطعة ذهبية وقال : «ها هو إسهامي عن طيب خاطر في رأس مالكم - سموه بائنتي إن شئتم ، وأنا على استعدا إن قبلتموني لأن أقود جماعتكم وأتكفل بأن أغطي جوانب هذا الكهف الصخري بألواح الذهب الخالص في أمد قصير» .

لم يتردد اللصوص وانتخبوه بالإجماع رئيساً لهم وأخرجوا له عباءة

نظيفة نوعاً ليرتديها ، فنبذ أسماله وارتدى العباءة ، وعانق رفاقه الجدد واحداً بعد الآخر ، ثم اتخذ مجلسه فوق الحشية عند رأس المائدة حيث بدأ العشاء وأترع الشراب احتفالاً بانتخابه . ثم أخبره اللصوص بأمر الفتاة وكيف حاولت الهرب على ظهرى وعن الحكم الرهيب بالموت الذى أصدروه بشأننا . سألهم عن مكان الفتاة ، فلما أخذوه إليها وألفاها مثقلة بالأغلال انقلبت وعلى وجهه علائم الاستياء وقال : «حتى لو جرؤت على مخالفة قراركم فلست من البلاهة بحيث أفعل . مهما يكن فمن العار عليّ أن أخفى عنكم ما أشعر به نحو الفتاة والجحش وأرانى ملزماً ، باعتبارى رئيسكم ، أن أتخذ ما يصلح لكم مصلحة لي ، فاسمحو لى بأن أحدثكم بصراحة عما أفكر فيه ، على أساس أن قراركم هو القرار النافذ بالطبع إن رأيتم غير الذى أرى .. فى ظنى إن كان الانتقام وهو سلاح ذو حدين . إن قتلتم الفتاة بأن خطتم عليها بطن الجحش قد تشفقون غليلكم لكن ما من نفع تجنونه ، فى حين لو أخذتموها إلى احدى المدن وعرضتموها للبيع فإن فتاة جميلة صغيرة كهذه لا تزال محتفظة بعذريتها سوف تأتى بثمن غال . كثيراً ما عاملت رجالاً كباراً فى عالم تجارة المواخير وأعرف واحداً منهم مستعداً لدفع مبلغ مجز فعلاً فى سبيلها ليضعها في محل مناسب ذى مستوى رفيع لن أحسبها تهرب منه . وبذا تحققون انتقامكم أيضاً ، فهى بالتأكيد لن تستمتع بالرق فى ماخور . ولكم الحرية المطلقة الآن فى أن تقرروا ما تفعلون ، ولقد قدمت لكم النصيحة لأننى أراها فى مصلحتكم ليس إلا» .

لقد عرض الشاب الأمر اعتباراً لمنفعة العصابة ، غير أنه بسطه لمنفعتنا نحن أيضاً ، فكانت لحظات التفكير الثقيلة التي تلت عذاباً ممضاً . وأخيراً وافق اللصوص على اتباع نصيحة رئيسهم الجديد وفكّوا وثاق الفتاة على الفور ، وكانت منذ اللحظة الأولى التى رأت فيه الوغد الشاب وسمعته

يذكر تجارة الدعارة والمحل ذا المستوى الرفيع بدأت تنتعش وتعلو وجهها البسمات . أحسست بأن هذا جاوز الحد فعلاً وكدت أنقلب كارها لجنس النساء ، فما أشنع أن أرى فتاة صغيرة لا تزال عذراء ، ادعت منذ قليل انها مغرمة بالرجل الذى كان فعلاً زوجها لتحيا معه أكرم حياة ، تخلب لبّها فجأة فكرة العمل فى ماخور قذر ! كانت أخلاق الجنس الأنثوى بأسره فى الميزان ، وكان الحكم جحشاً !!

قال رئيس العصابة الشاب : «أرى أن ندعو مارس ونتضرع إليه أن ينيلنا ثمناً طيباً للفتاة ويعيننا أن نحصل على رفاق جدد آخرين . ليس لدينا - بقدر ما أرى - قربان مناسب ولا خمر كاف لحفل شراب جيد . أحتاج إلى عشرة شباب يأتون معي إلى أقرب بلدة نحضر منها اللحم والخمر الذى يعوزنا باعتبارنا كهنة إلهنا مارس» .

انطلق وعشرة من اللصوص ، وما عتموا أن عادوا بقرب ملئت نبيذاً وقطيع من الغنم والماعز . وقد اختير تيسٌ ضخم كثيف الشعر قرباناً لمارس رب المصارعين واللصوص ، أما باقي القطيع فللمأدبة . وكانت بقية العصابة قد جمعت الحطب لنار كبيرة وقطعت أعشاباً خضراء للمذبح ، وعلق الرئيس الجديد قائلاً : «سترون أننى أقودكم فى ميدان المتع كما أقودكم فى غارات النهب والسلب !» ثم مضي إلي العمل بخفة وأظهر قدراته المتنوعة بأن كنس أرض الكهف ثم سوّى الحشايا ، ثم شرع يطبخ اللحم ويتبله ، ثم قدمه أخيراً إلى رفاقه على أطباق أنيقة وهو يملأ أقداح الخمر الكبيرة ويعيد ملأها من جديد ، وكان بين الفينة والفينة يجد فرصة ليلّم بالفتاة ، بزعم إحضار شئ احتاجه من آخر الكهف ، ويآتيها بطعام اختلسه من المائدة وأقداح من الخمر ، وكانت تقبلها بسرور . وعندما أراد مرة أو مرتين أن يقبلها كانت فى غاية السعادة ، بل بادلته القبلات بشوق غامر ، قلت لنفسى : «يجب أن تخجلى من نفسك ، يا فتاتى ، إذ تطأين

حبك القديم تحت قدميك وتؤدين دور الفاجرة في وكر اللصوص هذا ! هل نسيت تليبوبلموس المخلص وحفل زفافك المبتور ؟ هل تفضلين فعلاً هذا الغريب ، هذا اللص المتعطش للدماء ، على الرجل الذى كنت ستقترنين به برضا أبويك ؟ ألا يخزك ضميرك ؟ وافرضى أن اللصوص الآخرين ضبطوك تقبلين هذا الرجل ، ماذا تفعلين عندها ؟ أتحاولين مرة أخرى الفرار على ظهرى وأن ترسلى بى إلى الموت من جديد؟ إنك حقاً تعرضين جلدى ، وجلدك أنت أيضاً للخطر إذ تلعبين هذه اللعبة الصغيرة ! ».

غير أن سخي ما عتم أن فتر حين أدركت ظلمى للفتاة ، إذ فهمت من شئ ما قاله الشاب وبلغ سمعى - ولم يكن بالطبع ليهتم إن كنت سمعته أو لم أسمعه - شئ غير مباشر لكنه كاف لأى جحش ذكى أن يفهمه . فهمت أن رئيس العصابة الجديد لم يكن هايموس اللص الشهير بل عريسها تليبوليموس ! وكان الذي قاله : «تشجعى .. حبيبى كاريتى ! بعد قليل يكون أعداؤك أسرى فى يدك !» وقد لاحظت أنه رغم امتناعه هو نفسه عن الشراب الكثير مضى يقدم للصوص مزيداً من النبيذ ، دون أن يمزجه بالماء بل كان يقدمه إليهم دافئاً ، فبدأوا يسقطون سكارى واحداً تلو الآخر . ولست أدرى - لعله وضع فى شرابهم عقاراً منوماً ، وعندما تمدّد الجميع فى سكرهم الشديد على الأرض أخيراً كالأموات شدّ تليبوليموس وثاقهم متعاقبين وربطهم جميعاً بالحبل كما شاء ، ثم أركب كاريتى فوق ظهرى وانطلق بها إلى أهلها .

ما كدنا نظهر للعيان حتى تدافع أهل البلدة جميعاً نحونا على ترقب - أبو كاريتى وأمها والأقارب والعتقاء والعبيد . لم يبق أحد إلا وجرى إلينا تعمهم الفرحة ، ثم كونوا مسيرة من خلفنا تتبعهم الجموع نساءً ورجالاً من كل الأعمار . كان المشهد لا ينسى ، عذراء تركب جحشاً بانتصار ! أما أنا

فقد غمرت الغبطة قلبى وقررت وضع نفسى ألصق ما أكون بهذه المسيرة بأن نصبت أذنى ووسعت منخرى وطفقت أنهق بقوة ونشاط . وكان الصوت الذى أطلقته مجلجلاً يشبه هزيم الرعد . وحين بلغنا منزل كاريتى جرت على السلّم إلى غرفتها ليحضنها أبواها ويقبلاها ، فى حين أخذنى تليبوليموس وعاد بى إلى الكهف مباشرة ، وكانه معه جمع من رفاقه شبان المدينة وعدد من دواب الحمل ـ كنت على أتم الاستعداد للذهاب إذ أردت أن أرى لفضولى الدائم ، أى نوع من الأسرى سيكون اللصوص ، فألفيناهم لا يزالون موثقين تماماً بوثاق النوم ورباط الحبال ، وكان الأول أمتن وأقوى . و هكذا اكتسح تليبوليموس ورفاقه الكهف ، وحملونا بالغنائم ودحرجوا بعض اللصوص فى هاوية قريبة دون أن يهتموا بفك وثاقهم ، وقطعوا رؤوس الباقين بسيوفهم وتركوا جثثهم ملقاة فى الكهف .

عدنا إلى المدينة منتصرين متهللين بتمام انتقامنا وسلمنا الغنائم إلى بيت المال . وبعدها اتصل حفل عرس كاريتى – الذى توقف فجأة – وانتهى بأن زُفّت إلى بيت تليبوليموس . كانت فتاة ممتازة اهتمت اهتماماً كبيراً جداً بشأنى ، كانت تدعونى منقذها ، وقد أمرت ليلة زفافها بأن تملأ مخلاتى إلى حافتها بالشعير وقدمت لى تبناً يكفى لإشباع جمل من بلخ . لكن .. كم من اللعنات الكالحة لى أن أصبّها على يافوخ فوتيس إذ حولّتنى إلى جحش وليس إلى كلب صيد ، عندما رأيت كلاب البيت تحشو بطونها حتى توشك أن تنفجر من بقايا اللحم على مائدة إفطار الزفاف الفاخرة ، أو المستلّ من المطبخ !

صباح اليوم التالى ..... ذكرت العروس المشرقة المحيّا لوالديها وزوجها مدى ما تحس به نحوى من دين عظيم ، وأبت أن تغير موضوع الحديث حتى وعدوا بمكافأتى بأعظم تكريم ممكن . فدعوا مجلساً من أحكم أصدقائهم وأكثرهم احتراماً ليقرروا نمط التكريم الذى أنال . اقترح واحد

منهم أن أوضع فى الاصطبل معفىً من كل عمل وأن أطعم أفخر الشعير والفول والعدس ، غير أن آخر كان أكثر اهتماماً بحبى للحرّية ، اقترح أن أُطلق فى المروج لأكون أبا عدد من البغال لسيدتى من مهراتها اللاتى يرعين هناك - وكان هذا هو القرار الّذى اتخذوه آخر الأمر ، فأرسلوا فى طلب القيّم على مزرعة تربية الخيول وأُسلمت إليه ، مع أوامر مشددة بحسن معاملتى . فرمحتُ فرحاً منه ، تغمرنى البهجة ، ترقباً لخلاصى من الأحمال والأثقال ، وحريتى فى أن أركض فى المروج حتى يأتى الربيع بأزاهيره فأجد من بينها الورود . وقد خطر لى أنه ما دام سيدى وسيدتى أظهرا مثل هذا الامتنان لى وأنا جحش ، فلعلهما يظهران امتناناً أكبر حين أستعيد هيئة الإنسان ♦

الفصل الحادي عشر

في مزرعة الخيول

أخذني القيّم معه إلى مزرعة تربية الخيول على بعد أميال فى الريف ، حيث تبيّن لى أننى لن أنال حريتى ولا شئ آخر من الأطايب التى وعدت بها ، بل العكس تماماً . إذ ربطتنى زوجته الشريرة السليطة إلى طاحونة وجعلتنى أطحن الغلال للعائلة بالعرق الناضح من جلدى المسكين الذى كانت توالى ضربه بأغصان الشجر ذات الأوراق . ولم تكتف بأن صيّرتنى أكدح فى سبيل أهل بيتها ، بل جعلتنى أطحن الغلال لجيرانها كذلك وتحصل على قدر من المال عن طريق جهدى . بل إنها حرمتني الشعير الذى وعدته وأجبرتنى على أن أدور وأدور طاحناً إياه لتبيعه أهل القرية المجاورة ، وكانت تأتينى عند حلول المساء ، وبعد أن أُنهك تماماً ، بأقراص من النخالة القذرة تموج بالديدان ، عشاءً لى .

كان هذا أمراً بالغ السوء ، غير أن ربة الحظ لم تلبث أن ابتلتنى بامتحان أشد – وأظنها فعلت ذلك لتسمح لى أن أتباهى فيما بعد (بالسلوك الممتاز فى البيت وفى الحقل) كما يقولون ! إذ تذكّر القيّم على المزرعة الأوامر التى صدرت له ، هو لم يتذكرها بسرعة طبعاً ، أطلق سراحى فترةً مع بقية الخيول فى المرعى ، ها أنذا حرٌ أخيراً . تواثبت جذلاً هنا وهناك وبرطعت فى المروج فى طريقى إلى المهرات أتفحصها بعناية لأرى أيها كانت الأجمل والأحلى . غير أن آمالى لم تعتم أن تحطمت جميعها حين رُوّعت فحول المزرعة ، وكانت فى أفضل حالاتها لطول ما مكثت ترعى الكلأ فلا يمكن

بحال أن يباريها جحش تعيس مثلما كنت ، أقول إن الفحول رُوّعت بفكرة أن يشوب نقاء القطيع شائبة . فألقت بواجب الضيافة جانباً وأسرعت نحوى بشراسة لتعاملنى باعتبارى منافساً ممقوتاً . رفع أحدها مقدمتيه الضخمتين وأصلانى بحوافره ، بينما دار آخر من حولى دورتين ثم رفسنى رفسة فظيعة بكل ما فى رجليه الخلفيتين من قوة ، فى حين أطلق ثالث صهيلاً منذراً ، ونصب أذنيه وعضنى بأسنانه البيضاء الحادة . تذكرت عندها أسطورة الملك ديوميد التراقى ، ذلك الجبار القوى الذى عرض ضيوفه التعساء ، شحّاً منه بالتأكيد ، لهياج الخيول الوحشية ، ليوفر الشعير بإطعام حيواناته الشرهة اللحم النيء .. نعم .. لقد عانيت من الفحول وقتاً عصيباً حتى وجدتنى سعيداً بالعودة سالماً إلى طاحونة الغلال ، أدور حولها وأدور ويدير رأسى الدوار !

بدت ربة الحظ نهمةً لا تقنع ، فدبرت عذاباً جديداً لى أدهى وأمرّ ، إذ خصصنى قيّم المزرعة لجلب الحطب من قمة جبل عال . ولعل الصبى الذى أوكلنى إليه كان أكثر الصبيان شراً على وجه البسيطة ، فهو لم ينهكنى بأن جعل جسدى يتصبب عرقاً صعوداً إلى الجبل ، وهبوطاً منه مذيباً حوافرى على الصخور المدببة فحسب ، بل كان يضربنى بقسوة واستمرار حتي كنت أحس بالألم فى نخاع عظامى . كان يضربنى دائماً فى نفس المكان ، على كفلى ، حتى تشقق جلدى وتقيح وظهرت فيه فتحة كبيرة ، أو لعله أخدود، ومضى يضربه رغم الدم الذى يسيل منه. وكان يكوّم حملاً هائلاً على ظهرى يحسبه من يراه مخصصاً لفيل كبير . وكان الحمل غير متوازن أيضاً ، فإذا ما مال إلى أحد الجانبين عدّله بإضافة أحجار كبيرة على الجانب الأخف بدلاً من أن ينزل بعض الأعواد من الجانب الأثقل ، ولم ترضه مصائبى هذه، فكان يحفظ قدميه من البلل إذا ما عبرنا مجرىً من الماء بأن يقفز على ظهرى كما لو أن وزنه شئ زهيد بالنسبة للحمل الفظيع المكوّم من فوقى !

فإذا حدث أن وقعت علىّ ضفة المجرى المنحدرة لم يكن ليعيننى كما ينبغى أن يفعل - بأن يشدنى من شكيمتى أومن ذيلى أو يزيل جزءاً من حملى حتى أستعيد أرجلى على الأقل - لم يكن هذا الصبى الجحش حقيقة ليفعل شيئاً من هذا مهما بلغت شدة تعبى ، بل يدق شعر جلدى بعصا غليظة بادئاً بعينى حتى ينتهى إلى ذيلى ، فيكون لضرباته أثر العقار المنبه !

حيلة شيطانية أخرى كان يلعبها معى بأن يأخذ حزمة من أفظع الأشواك السامة الحادة يجرها ويصلها بذيلى ، فإذا ما مشيت تأرجحت على عقبىّ وسامتنى سوء العذاب . كنت أجدنى فى مشكلة مرعبة ، إن جريت تجنباً لضرباته شدتنى وخزات الأشواك القاسية ، وإن وقفت لأتفادى الألم أجبرتنى ضرباته دون رحمة مرة أخرى على مواصلة السير. كان يبدو أن هذا الولد الكريه لا يفكر فى شئ سوى كيف يقتلنى بطريقة أو بأخرى ، وكان يحلف أنه سيفعل فى نهاية الأمر . ثم حدث أمر أهاج ذهنه الحيوانى إلى حيوانية أنكى . إذ فقدت يوماً هدوئى فرفعت خلفيتى ورفسته ، وكان انتقامه إجرامياً بمعنى الكلمة ، أخذنى إلي الطريق وعلى ظهرى حمل ثقيل من نبات الكتان مربوطاً ربطاً وثيقاً، وعندما مررنا بمنتجع رعاة سرق جمراً من موقد ووضعه فى وسط الكتان. نشبت النار في الأعواد الجافة وارتفع لهيبها يحرق ظهرى ، ولم أرَ سبيلاً ينجينى من الموت حرقاً . وكان من المستحيل أن أقف ساكناً أفكر فى طريقة أقاوم بها النار . لكن ربة الحظ جاءت إلى نجدتى لتبقى عليّ من أجل مخاطر أكبر ، إذ لحظت غديراً كبيراً وحلا من أثر مطر هطل فى الليلة السابقة ، فاندفعت إليه وتمرغت فيه . انطفأت النار فى الحال وقمت مرة أخرى دون حمل ودون جروح خطيرة . بيد أن الشيطان الصغير ألقى لوم شرّه كله عليّ أنا . قال للرعاة أننى تعمدت أن أتعثر بنار عشائهم لكى أشعل النار فى الكتان ، ثم سألهم وهو يضحك : «إلى متى نضيع العلف على هذا الحيوان الجهنمى ؟!» .

بعـد بضعـة أيام فكر فى خطة رهيبة ، إذ توقف عند أول كـوخ صادفه وباع حملى من الخشب ثم قادنى إلى البيـت ولا شئ فوق ظهرى قائلاً : إنه لم يعد يتحكم فى أحاييلى المعيبة وأنه يأبى أن يأخذنى ثانية إلى الجبل لجلب الأخشـاب .. «هل ترون هذا الحيوان الكسـول البطئ الخطوات؟ إنه حقيـقة جحش ! يكاد يودى بحياتى - إلى جانب ألاعيبه الخبيثة القذرة الأخرى ... لعلكم ترون هذا أمراً مضحكاً ، لكننى أشتبك كل يوم فى جملة معارك من أجله ، وسوف أجدنى يوماً متهماً بجرم كبير ....» وقـد روى قصصاً كاذبة أخرى على هذا النسق غير المهذب ، وزاد من استيائى أننى كنت مجبراً على ملازمة الصـمت ، حتى استطاع في النهـاية أن يثير الرعاة ، فـوافقوا جمـيعاً على وجـوب هلاكـى. صاح أحـدهم : «نعم ! لِمَ لا نقـتل هذا الحـيوان المختلط؟ إنـه لا يستحق الحـياة . هيـه .. يا ولد .. اقطع رأس هذا الماجن - هذه فى الحقـيقـة صفته - وارم بأحشائـه إلى كلابنا . لكن احتـفظ باللحم لنتعشى به . يمكننا أن نغـمر جلده بالتراب ونعيده إلى قـيّم المزرعة ونقول له إن الذئاب افترسته .. بسيطة .. هيه ؟!»

شـرع الصبى يشـحذ سكينه عـلى حجـر وهو يزوم متـوعداً حين تذكـر رفستى إياه . بيد أن راعياً آخر قال - قبل أن ينفذ الصبى الحكم : «كلا ! من الإثم قتل جحش بديع كـهذا وفقدان خدمته ، لمجـرد أنه ماجنٌ لعوب ، ماذا لو خصيـناه ؟ بهذا ننهى المشكلة وتهدأ طباعـه ويسهل قياده . سـوف يسمن ويتحسـن حاله أيضـاً .. فإذا لم يكن لديـكم مانع سوف أذهب إلـى السوق لمدة قصيرة ثم أمضى إلى البيـت وأحضر أدوات الخصى معى وأنا زعيم بأن أعيده إليكم حيواناً وديعاً كالخروف» .

عندما رأيت أننى انتشلت من بين فكي الموت لكـى أعانى عقاباً أشنع لا يخطر علـى بال شـرعت أنتـحب فى صـمت ... وفـكرت مـرة أخـرى فى الانتحار بأن أجوع نفسى حتى الموت ، أو ألـقى بها من جرف كبير . وكنت

مـصـمـماً علـى أن أموت دون أن يمـثّل بى على الأقل ، غـيـر أننى لم أكن وصلت إلى قـرار عـملى صـبيـحـة الغـد حين أخـذنى الصبى الفظيع إلى مسارى المعتاد نحو الجبل . شدنى إلى فرع شجرة بلوط ضخمة ومضى عني مسافة قريبة ليقتطع حـملى من الخشب ، فجأة أبرزت دُبّة رأسها المهول من كهف غير بعيد . كاد المنظر المباغت أن يطيـر صوابى رعباً ، فتراجعت بقوة مسـتنداً إلى كفلى فانـقطع وثاقى . اندفعت هارباً ليس ركـضاً على أرجلى فحسب ، بل متدحرجاً علي منحـدر الجبل حتي بلغت سفحه ، ولا شئ فى بالى سوى النجاة من الدُبّة المهولة ومن الصبى الأشد هولاً .

فى تلك الأثناء تصـادف أن كـان أحد المسـافـرين مارا رأى أننى شـارد فـأمسك بى ووثب فـوقى وطفق يضـربنى بعـصاً فى يده عـبـر سبـيل غيـر مطروق . حملته مبتهـجاً يدفعنى الأمل فى الخلاص من الخصّائين ولم أبال بضرباته فـقد تعـودت على شديد الضربات . بيـد أن ربة الحظ السيـئة أبداً منعتنى من النجـاة بهذه السهولة وأطبـقت عليّ فخّاً جديداً ، إذ سـرعان ما قابلنا الرعـاة وكانوا خرجـوا يبحثون عن بقـرة شاردة . أمسكوا بشكيـمتى التى عـرفوها علي الفـور وشرعـوا في جريٍ منهـا . قاومـهم راكبى بـشدة وسأل : «لماذا تشـدوننى بهذه الطريقة السـمجة ؟ ارفعـوا أيديكم .. رجاءً ! يبدو أنه لا خلاق لكم ولا احترام للقانون !» .

صاح أحـد الرعاة باحتقـار : «القانون ؟! إنك سارق جـحشنا .. قل لى أين أخفيت جسد الولد الذى كان يقوده .. قتلته .. أليس كذلك ؟»

وبضـربة واحدة طرحـوه أرضاً وشرعـوا يركلونه ويلكمـونه وهو ملقى على الأرض رغم حلفـه على الأيمان الغليظة بأنه لم يرَ معـى ولداً ، ثم قال إنه وجـدنى ضـالاً وانه أمسك بى وركـبنى ليـعيـدنى إلى أصـحـابه طلبـاً للمكافأة . «أقسم بالآلهـة أننى أتمنى لو لم تقع عيناي أبداً على هذا الجحش الملعـون ! يا ليـتـه يسـتطيع الكلام ويشـهـد ببـراءتى ، لو أنه قـادر على أن

يخبركم بكل ما يعرف لخجلتم من الطريقة التى عاملتمونى بها».

لم يلق الرعاة بالاً لاعتراضه بل قادوه من حبل حول عنقه إلى حيث كان الصبى يحتطب . لم يعثروا عليه فى أى مكان ، وأخيراً وجدوا بقايا وقطعاً من اللحم البشري متناثرة هنا وهناك ، أدركت أن هذا من فعل الدبة وكنت بالتأكيد سأنبئ به لو كنت مستطيعاً الكلام ، غير أن كل ما استطعت فعله هو الفرحة الصامتة لثأرى الذى تأخر طويلاً . فجمع الرعاة بقايا الصبى ودفنوها . أما راكبى الشهم فقد دعوه «السفاح الدموي» مصرين على أنه قتل الصبى وانهم قبضوا عليه يسرقنى ، وأخذوه إلى قريتهم حيث أوثقوه على نية تقديمه للمحكمة فى الغد بتهمة القتل . بعدها ظهر أبوا الصبى وشرعا يعولان وينوحان ، وكان صراخهما فى قمته حين جاء الراعى الذى وعد بخصيي يتحرق شوقاً للقيام بهمته .

قال أحدهم له إن الوقت غير مناسب للعمل .. «كلا .. هذا الجحش الوغد ليس مسؤولاً عن فاجعة اليوم ، تعال غداً واقطع رأسه أو ما شئت أن تقطع ، يسعدنا أن نعينك» .

وهكذا أرجئت الكارثة مرة أخرى وأحسست بالامتنان للصبى الذى أكسبنى موته فى الوقت المناسب يوماً آخر على الأقل . غير أنه لم يسمح لى بأن أقضى حتى تلك الفترة القصيرة فى راحة وامتنان ، إذ اندفعت أم الصبى يعلو نواحها إلى حظيرتى . كانت تزعق وتصرخ لنهاية ابنها الفاجعة وهى تقطع شعرها الأبيض بكلتا يديها وتحثو عليه الرماد . ثم شرعت تخبط صدرها وتقول بكمد : «أنظروا إليه ! هذا الوحش عديم الفؤاد .. هذا البطين ورأسه مغروز فى المعلف ! أمن الحق أن يمضى يحشو معدته بالطعام والشراب دون أن يفكر فى المصير الذى حاق بصاحبه ؟ هو لا يهتم مثقال ذرة بعجوز مثلى . بل له من القحة ما يجعله يحسب أنه سيبرأ وينجو من العقاب عن جميع آثامه ، هكذا المجرمون .. لا يتوقعون أبداً مهما بكّتهم

ضميرهم أن يمسك بهم . باسم الآلهة المقدسة يا أشنع ذوات الأربع - حتى لو كنت قادراً على الكلام ، هل تظن حقاً أنك قادر على اقناع أغبى الأغبياء بآنك غير مسؤول عن قتل ابنى الغالى ؟ كان يمكنك الدفاع عنه بأسنانك وحوافرك التى طالما هاجمته بها .. فلماذا لم تدافع بها عنه ؟ كان لك أن ترمح به فوق ظهرك وتنقذه من يدى ذلك السفاح الدمويتين .. ما أبأس عملك حين ألقيت براكبك - رفيق خدمتك ، قائدك ، صاحبك ، صديقك الطيب الذي كان يطعمك ! ألا تعلم أن تخليك عمن يواجه خطر الموت عمل مناف لجميع مبادئ الأخلاق وجريمة تستحق العقاب ؟ حسن أيها السفاح، لن يطّول مقامك هنا تتفرس فى حزنى وكمدى . سوف أريك أى قدر من القوة يكمن فى صدور المحزونين !» ثم فكت ميدعتها وربطت بخيوطها سيقانى الأربع اثنتين اثنتين أوثق ما استطاعت لتمنعنى من الثأر . بعدها التقطت قضيباً كبيراً كان يستخدم لتأمين باب الحظيرة وطفقت تلهبنى به حتى اضطرت لألقائه إعياءً ، ثم أسرعت إلى البيت ، وهى تشكو أن ساعديها تعبا قبل أن تستوفى انتقامها منى ، وأخذت من الموقد عوداً مستقلاً لتحرقنى به . لم يكن لدى من وسيلة للدفاع عدا ما استعملته بعد محاولتى الأولى للفرار ، فجّرتُ رشاشاً من الروث السائل فى وجهها وأبعدتها عنى نتنة عمياء العينين . لو أننى لم أفعل ما فعلت لانتهى الأمر بالنسبة لى كما حدث لمليغر عندما خَطَفت أمُه ألثايا الميسمَ الملتهب انتقاماً من قاتل أبنائها الآخرين .

عند اقتراب الفجر وصل أحد عبيد سيدتى ورفيقتى فى العذاب ، السيدة كاريتى ، بخبر يقول انها وزوجها تليبوليموس قد ماتا . كانت قصة غريبة ومفجعة للغاية تلك التى رواها عند موقد النار ، قال : «يا سياس الخيل ، ويا أيها الرعيان ! ماتت مولاتنا المسكينة كاريتى فى ظروف فظيعة ، غير انها لم تمض إلى العالم السفلى بدون رفقة مناسبة كما ستسمعون .

سوف أقص عليكم القصة برمتها منذ البداية ، إنها تستحق فعلاً أن يسجلها من هو أكثـر موهبة مني ، مـؤرخ عظيم منح نعمة البـراعة فى الكتابة بيـسر ونثر جميل» .

وهذه روايته :

«فى البلدة المجـاورة لنا كان يعـيش فارس ثرى يدعى ثراسـولّوس وهو شاب فاسد شغله الشاغل الشراب وارتياد المـواخير العامة ، ولعلكم سمعتم به ، وكـان على صداقـة بزمـرة من قطاع الطرق وربما شـاركـهم أحيـاناً فى جـرائمـهم . نعم .. هكذا كـان والجمـيع على علم بهـذا ، وحـينمـا بلغت مولاتنا سن الزواج كان ثراسولّوس أحد خطابها اللجوجين وقد صمم على الفوز بها ، لكن رغم أنه أكرم منافسيه أرومة وانه قدم لوالديها الهدايا السنية فقد رُدّ على عقبيه باحتقار لسمعـته السيئة . ثم اقترنت السيدة كاريتى ، كما تعرفون بتليبوليموس ، الرجل الفاضل الجدير بها ، غير أن ثراسولّوس أبىَ، وقد أهاجه الصدّ وازداد هيامه بكاريتى أكثر من ذى قبل ، أن يهجر كل أمل فى نوالهـا وتحيّن الفرصـة لارتكاب جريمة دمـوية . لم يكن يشغل بـاله أمر آخـر ، ومـرت فـتـرة قبـل أن ينفـذ خططه ، ويوم أن تمكن تليـبـوليـمـوس بالشـجاعة والدهاء مـن أن ينقذ مولاتـنا كاريتى من مـغارة اللصـوص كان ثراسولّوس لسـان الحشد الذى تقدم بتـهانيه . قال إنه جـاء ليعبر عن فـرحة أهل بلدته باجتماع شمل الزوجين الشابين ورجائهم فى زواج مبارك بالرفاد والبنين . وقد أدخله مولاي ومولاتى البيت واحتـفيا به احتفاءً يليق بمكانته ، وأخفى هو خططه الشريرة بذكـاء حتى صار عندهما بمثابة أعـز الأصدقاء . وكان يزداد منهمـا قرباً بالزيارة تلو الأخرى ، وكثيراً مـا دعى للعشاء مما زاد غـرامه بمولاتنا المسكيـنة .. ولا عجب ، فـإن نار الحب تبـدأ صغـيرة تبـعث الدفء ، فإذا ما أرثتها بحضور المحبوب ارتفعت ألسنة لهبها لتحرقك دون شفقة . وقد أمضى ثراسولّوس زمناً طويلاً يتدبر كيف يبدأ علاقة حب سرية

مع مولاتنا المسكينة ، غير أنه وجد العيون الكثيرة ترقبه ولاتمكنه من ارتكاب الفاحشة ، ووجد السيدة كاريتى جاهلة كل الجهل بفن خداع الأزواج حتى إن تمكن من إقناعها بأن تعطيه ما أراد . ووجدها وتليبوليموس عاشقين مدلهين مخلصين كل منهما للآخر من رابع المستحيلات التفريق بينهما ، فلم يقدر على شئ . بيد أنه كان يتحرق شوقاً لامتلاكها وأبى أن ينظر إلى الأمر نظرة القنوط رغم كل هذه العقبات الصعبة ، تعرفون أن ما يبدو عسيراً حين يقع المرء فى الحب أول الأمر يغدو فى وقت قصير يسيراً للغاية . هذه ، بالمناسبة ، قصة مفيدة جداً تبين لنا إلى أى مدى تدفع الرغبة العارمة الإنسان .

ذات يوم ركب تليبوليموس وثراسولّوس لصيد الوحوش ، إذا جاز أن ندعو الأرانب وحوشاً - فإن السيدة كاريتى تأبى أن يمضى زوجها لصيد حيوان ذى قرن أو ناب . نُصبت شباك الصيد حول تل كثيف الشجر وهيئت كلاب الصيد الأصيلة للطراد . كانت كلاباً مدربة تدريباً فائقاً انطلقت فى الحال ولم يكن لكائن أن يفلت منها ، ومضت برهة تتشمم فى صمت ، حتى إذا ما دلّى أحدها لسانه أخيراً جلجلت أصوات الموسيقى تملأ الغابة . غير أن الذى بدأت تطارده الكلاب لم يكن أرنباً ولا ظبياً ولا أحد الحمر ولا أيلاً - بل كان خنزيراً بريّاً مهولاً لم يُرَ له مثيل من قبل ، حيواناً قوى العضل سميك الجلد ، قذراً ، بدا شعره كالقنفذ وقدحت عيناه شرراً . اندفع كالصاعقة يعلو الزبد شدقيه مكشراً عن أنيابه ، وقد حاولت الكلاب أن تمسك به فلم تلبث أن غدت قطعاً ، ثم اندفع يمزق شبكة الصيد وأفلت .

لم نكن نحن قارعى الطبول معتادين مثل هذه الرياضة الخطرة ، ولَم يكن لدينا من سلاح أو وسيلة من وسائل الدفاع فتبعثرنا مرتبكين واختبأنا فى الأعشاب الكثيفة وخلف الأشجار ، هنا حانت فرصة ثراسولّوس ليلعب لعبة الغدر .. قال لتليبوليموس : «لم نقف هنا وندع ذلك الحيوان

الرائع ينجو ؟ هل هى المفاجأة فحسب ؟ أم أننا خائفان

كأولئك العبيد الأنذال الذين فروا كجمع من العجائز ؟ لِمَ لا نركب ونطارده ؟ خذ أنت الرمح ولآخذ أنا مزراق صيد الخنازير» وهكذا انطلقنا يرمحان فى إثر الخنزير . غير أن هذا كان واثقاً من أنه ندٌ لهما معاً ، فدار حول نفسه ثم وقف يحدق فيهما بنظرة متوحشة مرعبة يعمل فكره بأيهما يبدأ . أرسل تليبوليموس رمحه فأسكنه ظهر الخنزير ، غير أن ثراسولّوس أغفل اتباع رفيقه ورمى ، بدلاً من هذا ، جواد تليبوليموس بالمزراق فضعضه ، وغرق فى بحيرة من دمه متدحرجاً وألقى بصاحبه من فوق ظهره. وعلى الفور هجم الخنزير على تليبوليموس يشق ثيابه ويثخنه بالجراح كلما حاول القيام ، أما ثراسولّوس - ذلك الشيطان - فقد جرى نحو تليبوليموس دون أن يحس بالندم عما فعل ، وكان هذا يصرخ طالباً النجدة محاولاً حماية ساقيه المطعونتين ، ورماه برمحه . اختار الفخذ الأيسر منه ، آمن موضع يضربه إذ يعرف أنه لن يميز ضربته وطعنة ناب الخنزير ، بعدها لاحق الخنزير وقتله دون كبير عناء .

عندما قضي الأمر نادانا ثراسولّوس من مخابئنا فجرينا إليه لنجد سيدنا فارق الحياة . وقد ازدهى ثراسولّوس فرحاً بموت الرجل الذى كان يمقت ، غير أنه أخفى مشاعره وشرع مثلنا يلطم - كنا جميعاً نبكى بحرقة وبحزن حقيقى - وهو يحضن جسد ضحيته ويقبله ويؤدى دور النادب بشكل واقعى ، فيما عدا أنه لم يستطع أن يعتصر من جفنيه دمعة واحدة .

انتشر خبر موت تليبوليموس بسرعة وكان أهله أول من بلغهم الخبر ، وحالما سمعت السيدة كاريتي به - ولم تسمع المسكينة خبر سوء أبداً - جنت . جرت عبر طرقات المدينة المكتظة بالناس وعبر الحقول كالسكرى، وهى تصيح باسم زوجها القتيل ، وقد ولّى كل من رآها وتبعها بصرخات التعاطف معها ، وسرعان ما تدفقت المدينة كلها كالنهر من ورائها إلى مكان

الجريمة . وحين بلغته انكفأت علي جسده الميت تكاد تلفظ أنفاس الحياة التى شاركته إياها ، لولا أن أفلح صحابها فى أن يجروها بعيداً عنه لتظل رغم مشيئتها ، على قيد الحياة .

حسن . نقل الجثمان إلى الضريح وشيعت الجنازة المدينةُ عن بكرة أبيها. وكان ثراسولّوس هناك ، انتحب بصوت عال وأعول وضرب على صدره ، بل نجح فى أن يبكى . ترون أن الدموع التى لم تستطع أن تخرج فى بدء ادعائه الحزن أعانتها الآن فرحة المناسبة . أخفى مشاعره الحقيقية بكل ضروب عبارات المودّة وهو يخاطب تليبوليموس بحنان : «يا صاحبى ، رفيق صباي الغالى ، يا صديقى ، يا أخى .. واحسرتاه يا أخى المسكين تليبوليموس !» وكان بين الفينة والفينة يمسك بيدى السيدة كاريتى ليمنعها من لطم صدرها وليطامن من شجنها بكلمات العطف المرتعشة ، مستشهداً بعدة أمثال تاريخية عن عدم اليقين فى مسألة القدر . لكن هذا لم يكن بالطبع سوى ذريعة ليضع يديه القاتلتين على سيدتنا المسكينة مدغدغاً شهوته الممقوتة .

وما أن انتهت مراسم الجنازة حتى حاولت اللحاق بتليبوليموس فى قبره، ولم تبال كيف تلحق به ، وانتهت إلى أيسر السبل وأقلها عنفاً ، ذلك السبيل الأقرب إلى النوم الهادئ ، أعنى رفضت أن تطعم شيئاً مهملة نفسها مختبئة فى غرفة مظلمة مبتعدة عن نور النهار إلى الأبد . لم ييأس ثراسولّوس وصار يتوسل إليها ثم يقنع صحابها وخدمها وأخيراً والديها بأن يتوسلوا مثله حتى أقنعها بأن تنعش جسدها التعيس الذابل بحمام وشئ من القوت . وكانت سترفض هذا لولا احترامها لأبويها ، وظلت نظرتها يملأها الحزن وإن كانت أهدأ قليلاً ، ومضت فى دورة حياتها اليومية يحرقها العذاب الباطن . كان الشوق إلى تليبوليموس يأكل فؤادها ليل نهار ، وقد أمرت بأن تحفر صورة الإله ديونوس على ملامحه وتقربت إليها بالتكريمات

القدسية ، فصارت حتى راحة الدّين بؤساً خاصاً بالنسبة لها .

لم يطق ثراسولّوس الذى يطابق اسمه رسمه - إذ معناه : الاندفاع - لم يطق الانتظار حتى يتلاشى جنون حزنها شيئاً فشيئاً بالاستسلام للقدر وتكف دموعها عن أن تسحّ . كانت لا تزال فى مرحلة شق الثياب وشد خصل من شعرها حين بدأ يعرض عليها أمر الزواج ، وكانت عجلته غير اللائقة اعترافاً سريعاً تقريباً بخيانته المكتومة . صدمت السيدة كاريتى بعرضه الذى نزل عليها نزول الصاعقة حتى سقطت مغشياً عليها كما لو أنها صعقت أو ضربها شعاع من نجم خبيث . فلما أفاقت وتذكرت ما حدث صرخت صرخة عالية ، لكنها امتنعت عن أن تعطى الوغد جوابه حتى يتيسر لها الوقت الكافى لتتدبر الأمر مليّاً . وفى تلك الأثناء زارها شبح القتيل وحيدة فى فراشها حين نامت كاشفاً وجهه الشاحب الملطخ بالدم وقال لها : «زوجتى أنا - لن يدعوك هكذا أحد سواى ، إلا إذا قطعت العلائق التى وحدتنا بميتتى الفظيعة وأمحت صورتى من ذاكرتك - آه .. إن كان الأمر كذلك فلتتزوجى مرة أخرى بكل ترحيب ، اسعدى ، واتخذي من يرضيك زوجاً لكن ليس ذلك الغدّار ثراسولّوس . لا تقتربي منه ، ولا تأكلى على نفس المائدة معه أيضاً ، فما بالك بمشاركته فراشاً واحداً ؟ إن يديه ملطختان بدمى .. دم من دعاه أعز الأصدقاء ، هذه الجروح الدامية التى غسلتها بدموعك ليست كلها من فعل أنياب الخنزير ، فإن أعمقها وأفتكها جاء من رمح ثراسولّوس» ثم أوضح لها الشبح بالتفصيل كل ما حدث ، وكانت الدموع حين ذهبت للنوم تنحدر على وجنتيها الجميلتين ، فانتفضت من هذا الكابوس يمضها العذاب الأليم ، وانفجرت ثانية تعول من الحزن ، وشقت ثوب نومها وصارت تمزق ذراعيها الحلوتين بأظافرها حتى سالت منها الدماء .

لم تخبر أحداً وقتها بأمر الشبح وتظاهرت بجهلها بجريمة القتل ، غير

أنها عزمت فى سرها على عقاب ثراسولّوس الكريه قبل أن تحرر ذاتها فى النهاية من عبء الحياة الذى لا يطاق . وقد جاءها مرة أخرى يجدد توسله فكانت ممثلة أكثر مما حسب ، رغم صمم أذنيها عند إلحاحه ، وتركته يمضى فيه دون رادع حتى رجته آخر الأمر أن لا يضيف شيئاً . قالت له : أرجوك يا ثراسولّوس ! يجب أن تذكر أن محيّا زوجى الحبيب الذى كان بمثابة أخيك لا يزال حيّاً فى مخيلتى ، حتى لأكاد أشم رائحة جسده العطرة ، فهو حي فى فؤادى . لطف منك لو أتحت لى الوقت حتى أستفيق من صدمة موته وتركت بقية شهور العام تنقضى قبل أن تقول شيئاً آخر . ترى أن زواجنا السريع يسئ إلى سمعتى وهو خطر عليك ، إذ سيحق لشبح زوجى أن يحنق وربما تسبّب فى هلاكك» . وتعهدت له بأن تتزوجه حينما تنتهى مدة النواح . غير ان هذا أيضاً لم يكف ليكبح جماح جشعه وقلة اصطباره ، فشرع يعرض أموراً مسيئة ولم يقابل بالرفض . وآخر الأمر تظاهرت بالاستسلام وقالت : «على أية حال .. هناك شئ واحد أصر عليه ، وهو ألا يعلم أحد فى هذا البيت إن ضاجعتك قبل الزواج» .

خدعته تماماً .. فوافق فى التو على ليلة الغرام المختلسة ، لكنه ذكر أنه لا يكاد يستطيع صبر الانتظار حتى يهبط الليل ، ولم يكن ليهمه شئ من الدنيا وقتها أكثر من امتلاكها .

قالت له : «اسمع يجب أن تأتى إلى مخدعى عند منتصف الليل ، وحدك ، متستراً ، لا تحدث صوتاً أبداً حتى تبلغ الباب ، ثم أطلق صفيراً خافتاً وانتظر ، ستكون وصيفتى العجوز جالسة خلف الباب لتدخلك وسوف تقودك فى الظلام إلى غرفتى» .

ما كان أطول النهار عند ثراسولّوس المخدوع بهذا المزيج من النحيب والهوى الخفيف ! وحين غربت الشمس أخيراً جاء إلى مخدعها كما طلبت منه وتلمس طريقه إلى غرفتها .. «هس .. هكذا قالت له العجوز

التى أمرت أن تعامله بأدب زائد : «هس ..يا سيدى !» ثم جاءت ، دون أن يسمع لها صوت ، بأقداح وكوز نبيذ ممزوج بعقار منوم ، وقالت له : «ينبغى على سيادتك أن تنتظر قليلاً لو تفضلت ، فقد دُعيت مولاتى لترى أباها المريض ، لن تجعلك تنتظر طويلاً ، اشرب هذا وتهيأ لها حينما تعود» ، لم يرتب فى شئ وشرب القدح وسرعان ما كان يغط فى نوم عميق .

ما أن استلقى على قفاه دون حراك حتى أسرعت الوصيفة إلى السيدة كاريتى التى دخلت علي عجل بخطوة عازمة وانحنت عليه يرعدها الغضب: «أنظرى إليه» هكذا قالت : «أنظرى إليه - رفيق زوجى الوفى ، هذا الصياد الجسور الذى يظن أنه سيتزوجنى ! أنظرى إلى يده ، التى سفكت دمى ، أنظرى إلى صدره الذى أفرخت فيه عشرات الخدع لهلاكى، أنظرى إلى عينيه اللتين أتعسنى الحظ بأن أحلو فيهما . يبدو أنه حدس المصير المعد له حين قال إنه لا يصبر حتى يهبط الظلام . نم عميقاً ، أيها القاتل ، نم دونما خوف ! لم أجئ بسيف أو رمح ، هل تحسب أننى سأكرمك بميتة مثل ميتة زوجى ؟ كلا .. عيناك ستموتان فى رأسك وهو حيٌ ، ولن ترانى أبداً إلا فى الأحلام ، أوه .. سوف أجعلك تحسد تليبوليموس على ميتته ! لن تنظر إلى الشمس أبداً مرة أخرى ، ستحتاج إلى يد لتقودك أينما ذهبت ، لن تضع ذراعيك أبداً حولي ، ولن تحقق الزواج الذى وعدت به نفسك . لن تعرف راحة الموت ولا لذة الحياة بل ستطوف كالروح الضائعة بين العالم السفلى والعالم العلوى ، وستبحث عن اليد التى أعمتك ولن تعرف أبداً - هذا ما ستلقاه أقسى شئ تطيقه - من تتهم بالفعل . إننى الآن مدينة لروح زوجي بقربان شراب من دمك المسفوح من عينيك ، هذا ما سيأخذ بثأره» .

وبعد وقفة قصيرة شرعت مرة أخرى : «يا عجبى ! لِمَ أؤجل الأمر ؟ لِمَ أسمح بهذه الفضلة القصيرة من الزمن قبل أن يبدأ العَذاب ؟ لعلك تحلَم

الآن بأنك معى فى الفراش ؟ هذا خطير ، فإن اسمى : السمّ ، هلم .. حان الوقت لتصحو من ظلمة النوم إلى ظلمة أنكى . حان الوقت لأن ترفع وجهك الأعمى وتعرف أننى انتقمت ، وأن تدرك سوء طالعك وتحسب مبلغ مصائبك.

عروس ذات خفر ! أنا ؟! عيناك تسحراننى .. هيه ؟! ما أحلى لهب شعلات الزفاف ! ستكون زبانية الجحيم وصيفات عرسك ، وسيكون شاهده العَمَى ، الحارس الأسود على باب ضميرك المصطخب!» .

بعد هذه الدفقة من البلاغة سحبت دبوساً نحاسياً من شعرها وصارت تغرزه فى عينى ثراسولّوس . ثم تركته هناك ليصحو من نومته المخدرة يمزقه الألم والعمى ، والتقطت سيفاً كان لتليبوليموس واندفعت تجرى به مجنونة عبر المدينة إلى ضريحه . وانطلقنا نحن العبيد فى إثرها نصيح كل منا بصاحبه :

«إنها جنت .. إنها جنت ! خذوا منها السيف بحق الآلهة !» وقد خرج حشد هائل من أهل المدينة متعثرين من فرشهم والتحقوا بنا . لكنها وقفت عند ضريح زوجها الميت وأبعدتنا عنها بالسيف المسلول .

كنا جميعاً نبكى وننتحب ، فزجرتنا : «ليس هذا أوان الدمع أو الندب ، لماذا تندبون وقد أديت عملاً مجيداً منذ قليل ؟ لقد ثأرت لموت زوجى ، عاقبت الرجل الذى دمر زواجنا ، عاقبته كما يستحق ، وعليّ الآن أن أجد طريقى بهذا السيف إلى حبيبى تليبوليموس» .

أخبرتنا بكل شئ عن شبح زوجها وكيف خدعت ثراسولّوس ، ثم أغمدت السيف تحت ثديها الأيمن . فسقطت تشخب دماً وغمغمت ببضع كلمات غامضة ، وماتت بنبل كما عاشت . وقد أخذ أقاربها جثمانها على

الفور وغسلوه بعناية وسجوه بجانب محبوبها تليبوليموس، واجتمع شمل الاثنين إلى الأبد .

وحين بلغ خبر موتها ثراسولّوس لم يجد صورة من صور الانتحار فظيعة بقدر كاف للتكفير عن الكارثة التى سببها ، وقد حدثه قلبه المذنب بأن مجرد الموت علَى حد السيف طريقة بالغة النقاء ، فسأل أن يحمل إلى الضريح حيث وقف ينتحب وهو يكرر ويعيد : «ها أنا .. أيتها الروحان اللتان ظلمتهما ! جئت دون أن أدعى فى انتظار انتقامكما» . وترك نفسه يموت هناك جوعاً ♦

الفصل الثاني عشر

مع الكهنة الخصيان

كانت دموع الفلاحين المنصتين وآهاتهم تتخلل الرواية الفاجعة عن النكبة التى حلت بسيدهم وسيدتهم . غير أن هذه الدموع والآهات كانت فى أغلبها تعبيراً عن رثاء الذات ، إذ خشوا أن يؤول الأمر بهم إلى الأسوأ إذا ما تبادلت الأيدى العقار . فقرروا جميعاً الفرار ، وجرد القيّم على المزرعة ، ذاك الذى أسلمت إليه بأوامر مشددة بحسن معاملتى ، جرد البيت من كل شئ قيم ، وحملنى وبقية الدواب بالأسلاب ورحل على عجل . نساء وأطفال ، وديكة ودجاج ، وإوز ، وجداء ، وكلاب صغيرة - باختصار كل ما لا يقدر على مجاراة الركب - سعينا على أقدامنا ، ولم أبال شخصياً بثقل حملى وأنا أحس بالراحة لنجاتى من سكين الخاصى الرهيبة .

اجتزنا الجبل المشجر والسهل على جانبه الآخر ، وحين استطالت ظلال المساء على طريقنا بلغنا بلدة عامرة رجانا أهلها ألا نواصل رحلتنا تلك الليلة أو حتى الصباح التالى إذ كانت المنطقة تعج بمجموعات من الذئاب الضخمة بلغت من الجسارة حد الفتك بقطاع الطرق والمسافرين على الطرقات ومهاجمة بيوت المزارع لا تهاب أهلها المسلحين كما لا تخشى - بالطبع - قطعانهم . وقد أنذرنا بأن السبيل الذى نرغب فى سلوكه مزروع بالجثث نصف الملتهمة والهياكل العظمية وأن علينا التقدم بكل حذر ممكن ،

وألا نرحل إلا فى ضوء النهار - فكلما ارتفعت الشمس هدأت الذئاب - وأن نمضى فى كتلة متراصة واحدة دون أن يشرد منا أحد .

وعلى كل حال ، فقد صرف أصحابنا الأوغاد الأنظار عن هذا الإنذار فى خضم عجلتهم العمياء لكيلا يتبعهم أحد ، وحملونا ثانية دون أن ينتظروا طلوع الفجر ومضوا بنا قدماً . كنت مدركاً الخطر تمام الإدراك ، ولا أريد أن أجد مخلب ذئب فى ديرى ، فأخذت سبيلى إلى وسط الدواب بالضبط . وقد دهش الجميع إذ رأونى أسبق عدة خيول ، وليس هذا راجعاً لشئ سوى خوفي لا إلى خفة طبيعة رجلى . وخطر لى أن بيغاسوس الشهير لا ريب مر بنفس التجربة ، فالسبب لتسميته (الحصان المجنح) كان دون شك لرعبه من أن تأكله خيمايرا نافثة اللهب من خياشيمها حتى وثب إلى عنان السماء ! .

كان أصحابنا قد تسلحوا ، كما لو أنهم ماضون لمعركة حامية الوطيس ، بالمزاريق والدبابيس والرماح والهراوات . بعضهم التقط أحجاراً من الطريق وبعضهم حمل خوازيق حادة ، وكان أكثرهم يهز شعلات ملتهبة ليخيف الذئاب . لم ينقصنا سوى صوت البوق لنكون جيشاً يسير ! لكننا لم نر ذئباً واحداً حتى من بعيد - إما بسبب عددنا الكبير أو للضجة الكبرى التى أحدثناها بسبب المشاعل . ومن الممكن بالطبع أن تكون الذئاب قد جلت إلى منطقة أخرى . وهكذا قمنا بهذا العبور الخطير - إذا كان خطيراً كما بدا وكنا جميعاً بكل تأكيد مرتعبين - قمنا به بأتم سلامة فيما يتصل بالذئاب ، لكن عندما وصلنا قرية صغيرة كان من الطبيعى للغاية أن يعتبرنا أهلها فرقة من قطاع الطرق ، وإذ هم فى ذعرهم يطلقون جمعاً من كلاب الحراسة المهولة ، كلاب متوحشة أشرس كثيراً من أى ذئب أو دب ، وأرسلوها نحونا تتبعها الصيحات وفى إثرها الصرخات حثاً لها على مهاجمتنا .

اندفعت كلاب الحراسة نحونا وهاجمتنا من كل جانب ، تتناهشنا دون

تميز وتطرح الدواب والرجال أرضاً . كان بالتأكيد مشهداً عجيباً رغم أنه يبعث على الرثاء جداً : منظر اقتحام الكلاب حشدنا كله وهى تنهش وتعض أينما اتفق ، تجول وتصول بين الدواب وترضّ من وقف فى وجوهها من الرجال وتعلو أجساد المطروحين مزمجرة .

ثم جاء ما كان أشد وأنكى ، إذ أمطرنا أهل القرية ، المتمركزون على أسطح منازلهم وعلى التل القريب ، بوابل من الحجارة حتى لم نعد نستطيع معرفة ما الأفضل منهما ، الكلاب المهاجمة الشرسة أم وابل الحجارة المتوالى . وقد ضرب حجر رأس امرأة كانت على ظهرى فشرعت تصرخ وتعول تنادى زوجها ، فجرى إليها ومسح الدم عن جرحها وهو يصيح بأهل القرية : «باسم السما .. لم هذا كله ؟ لم تهاجمون مسافرين مساكين كادحين لم يؤذوكم أبداً ؟ أى نوع من البشر أنتم ؟ إنكم لا تسكنون مغارات مثل الحيوانات المتوحشة ولا كهوفاً كالهمج ، فلِمَ تستمتعون بسفك دم الأبرياء ؟ هل تحسبوننا لصوصاً ؟»

توقف على الفور تقريباً وابل الحجارة ، ونودى على كلاب الحراسة وصاح أحد أهل القرية من مجثمه أعلى شجرة بلوط : «حسن .. حسن ، لسنا قطاع طرق نحن أيضاً ، لا نبغى منكم شيئاً ، خشينا فقط إنكم تهاجمون القرية .. هذا كل ما فى الأمر ، اذهبوا الآن موفّقين ! انتهت المعركة !»

وهكذا مضينا وقد عُضّ بعضنا وكدمت الحجارة بعضنا الآخر ، وليس منا من لم يصبه الأذى ، حتى بلغنا حرجاً ذا مسارب خضراء بهية وأشجار سامقة أمر فيه القيم بالتوقف للراحة واستعادة الأنفاس . ألقى أصحابنا بأنفسهم على الأرض حيثما اتفق أن كانوا واقفين وتمددوا دون حراك برهة حتى ارتاحوا ، ثم شرعوا يتفقدون جراحهم ، كل منهم يعتنى بنفسه ، يغسلون الدم في جدول كان يجرى فى الحرج ، ويضعون مختلف الأدوية ،

ثم يضمدونها ، ويكمدون الكدمات بالماء .

فجأة ظهر شيخ على قمة التل وقطيع من الماعز يرعى حوله ، حياه أحد أصحابنا وسأله عما إذا كان لديه شئ من اللبن أو الجبن الطازج للبيع ، فهز السيخ رأسه مرتين أو ثلاثاً قبل أن يجيب : «أنَّى لكم أن تفكرون فى طعام أو شراب أو شئ من هذا القبيل ؟ ألا تعلمون أى مكان أنتم تنزلون ؟» ثم استدار ومضى بمعيزه .

نبه تساؤله وانصرافه بغتةً أصحابنا ، فبدأوا يتساءلون عما فى المكان من خلل . غير أنه لم يكن ثم أحد ليوضح لهم الأمر ، حتى برز شيخ آخر ، كان عجوزاً طويل القامة محنى الظهر يجر قدميه بمشقة نحونا وهو يتوكأ على عصا . فلما وصل المسرب حيث كنا ننزل وقع أرضاً على ركبتيه وعيناه تذرفان الدموع وشرع يعانق أصحابنا واحداً بعد الآخر متوجعاً : «أتضرع إليكم أيها السادة الذين ساقهم الحظ إليّ وأدعو لكم بطول العمر والصحة والعافية حتى تبلغوا سنى .. أعينوا عجوزاً مسكيناً فقد عزاءه الوحيد فى الحياة ، انقذوا حفيدى الصغير من براثن الموت ! انه صبى عزيز صغير ، كنا نسير معاً عبر الطريق عندما سمع عصفوراً يزقزق على سياج وحاول أن يمسك به ، فسقط فى حفرة عميقة أخفتها الأعشاب النامية الكثيفة وانغرز فيها . أعرف من صراخه انه لا يزال حيّاً ، لكنكم ترون اننى شيخ عجوز مرتعش لا أقوى على إخراجه منها . يمكنكم أنتم أيها الشبان الأقوياء أن تساعدونى بسهولة ، ارحموا عجوزاً مسكيناً عاثر الحظ ! فإن هذا الصبى آخر من بقى من أهلى على قيد الحياة» ثم طفق يشد شعره الأبيض ، وكان طبيعياً أن تأثرنا جميعاً بتوسلاته ، فقفز أحد الرعاة ، وكان أصغر وأجسر وأشدّ الجماعة ، بل الوحيد الذى لم يصبه خدش فى معركتنا ذات الجانب الواحد ، وسأله عن مكان الصبى ، فأشار الشيخ إلى دغل يبعد عنا قليلاً وقاده حثيثاً نحوه ، وعندما أنهينا - نحن الحيوانات - رعينا

وأكمل أصحابنا طعامهم وتضميد جراحهم آن الأوان لمواصلة الرحيل . وانطلقت النداءات تدعو الراعى الذى طال غيابه كثيراً ، ولم يظهر أُرسل صاحب له ينذره برحيلنا مرة أخرى ، وعاد الرجل على الفور تقريباً شاحب الوجه يرتعش بقصة غريبة بالغة الغرابة ، إذ وجد جثة الراعى الشاب ملقاة على ظهرها ، وقد أكل نصفها ، وأفعى ضخمة ملتفة من حولها ولا أثر للعجوز الشقى .

جلىٌ إذن ان هذا ما عناه الرجل صاحب الماعز ، فقد كان يحذرنا من الهامة المرعبة التى كانت تسكن المسرب . أسرع أصحابنا قدر ما يملكون بمغادرة الموقع المميت ، وهم يلهبوننا بعصيهم ، وقطعنا المسافة التالية من الرحلة بسرعة مضاعفة .

قضينا تلك الليلة فى قرية حدثنا أهلها بقصة مخيفة ، أجدنى ملزماً بأن أضمنها هذا الكتاب إذ هى تتعلق بأثر بشع لا يزال فى الضيعة التى حللنا بها :

تقول القصة إن قيّم الضيعة السابق ، وكان مقترناً بأمه ، أحبّ امرأة حرّة من غير بيت سيده واتخذها خدينة له . فلما سمعت زوجته بالأمر جن جنونها ، فأحرقت دفاتر حسابات وكل ما احتوته غرفة الخزين ، ولم يهدئ هذا من ثائرتها ، فعقدت نهاية حبل حول عنقها ونهايته الأخرى حول عنق طفلها الصغير وبدلاً من أن تقتل نفسها شنقاً اندفعت نحو بئر وجّرت وراءها الطفل التعيس . وقد أهمّ موتها صاحب الضيعة حتى قبض على القيّم الذى تسببت خيانته فى الكارثة وأمر بأن يجرد من ثيابه ويطلى جسده كله بالعسل ويوثق وثاقاً متيناً إلى شجرة تين نخرة كانت تعج بالنحل من داخلها وخارجها . وما أن شم النحل العسل حتى بدأ يجرى فوق جسده والتهمه شيئاً فشيئاً بقضمات صغيرة متوالية لا حصر لها حتى آتى على لحمه وأحشائه وكل ما فيه ، وقد عاش العذاب برهة ، ولم يبق منه من

آخر الأمر سوى هيكله مجرداً ، رأيناه أبيض جافاً لا يزال مربوطاً إلى شجرة التين .

كانت أفئدة الذين حدثونا بالقصة لا تزال مثقلة بهّم القيّم ، وكنا سعداء بمغادرة القرية البائسة . فارتحلنا طيلة اليوم فوق أرض منبسطة وبلغنا تلك الليلة بلدة رائعة طيبة عزم أصحابنا المتعبون على اتخاذها مقراً دائماً لهم . كانت مكاناً جيداً للإفلات من المطاردين وكانت عامرة بالخيرات ، وهناك أذن لنا ، نحن الدواب ، بثلاثة أيام نستعيد فيها قوانا ، أخذنا القيّم بعدها ليبيعنا .

صاح الدلال بأسعارنا بأعلى عقيرته ، ورغم أن الخيول كلها وجميع رفاقى من الحمير وجدت سريعاً مشترين يدل مظهرهم على اليسر فقد تجاوزتنى الأنظار بازدراء أسخطتنى الطريقة الفظة التى فحصنى بها الناس وتأملوا بها أسنانى ليعرفوا كم أبلغ من العمر ، إذ غرز أحدهم أصابعه القذرة الكريهة فى لثة أسنانى مرة بعد مرة حتى أمسكت بيده بين أسنانى وكدت أقضمها نصفين . وقد منعهم هذا من أن يعرضوا لى ثمناً واعتبرونى جحشاً شريراً بالفعل . ثم شرع الدلال يرسل كل ضروب النكت السخيفة عنى ، وهو يصيح حتى كاد يمزق حنجرته : «انظروا إليه أيها السادة ! ما معنى أن أطلب منكم عرض ثمن لهذا الحمار الأحمق العجوز الممسوح الحافر ، المضمون الكسل فى كل شئ سوى الرذائل ذى الجلد الذى يشبه الغربال ؟ ماذا لو أهديتُ هذا الحيوان لمن كان منكم لا يهمه تبذير التبن من أجله ؟ !» وانفجر المتفرجون ضاحكين.

بيد أن ربة الحظ القاسية ، تلك التى أخفقت فى إرضائها أو تسكين غضبها مهما بلغ عمق عنائى ، عبست فى وجهى مرة أخرى ووجدت لى بالطبع مشترياً يمكنها الاعتماد عليه فى إطالة عذابى . كان خصيّاً عجوزاً أصلع تتدلى بقية من شعره الأشيب فى خصل طويلة على عنفقته، واحداً

من تلك الطغمة التى حولت ربة سوريا العظيمة إلى متسوّلة ينادى بها فى الطرقات من بلد إلى بلد صحبة الصنوج والصاجات . وقد وضع هذا المخلوق الكريه ليبتاعنى ، فسأل الدلال عن تاريخ حياتى ، وأجابه هذا متفكراً : «حصلنا عليه من سوق رقيق كابادوشيا ، إنه شاب قوى رائع كذلك !» .

«عمره ؟» .

«خمس سنوات ، طبقاً للمنجم الذى أعلن مولده ! لكن لعل لديه معلومات أدق هو نفسه من المسجل العمومى إذا ما اهتممت بالتشديد عليه ليخبرك بالأمر ! كلا.. يا سيدى ، حتى لا أشوه القانون الكورنلى Cornelian بأن أبيعك عبداً معروفاً بأنه مواطن رومانى يمكننى أن أتخلى عنه . سوف تجده عاملاً نشطاً مفيداً فى الطريق .. لِمَ لا تعرض ثمناً؟» .

وقد توالت أسئلة الخصي حتى بلغ النقطة المهمة : هل أنا هادئ فى الركوب أو القيادة ؟ فأجاب الدلال «هادئ ؟! هذا ليس جحشاً .. بل كبش القطيع الوديع، رقيق جداً لتفعل به ما تشاء! ليس كحميركم العضّاضة الرفّاسة بل حيوان يجعلك تقسم أنه رجل مهذب أمين متخفّ فى جلد جحش، يمكنك التثبت بسهولة، ارفع ذيله وادفع بأنفك وانظر ..».

رأى الوغد العجوز أنه يسخر منه وفقد السيطرة على أعصابه فصاح : «عليك اللعنة أيها الدلال المخبول ، يا كتلة من اللحم العفن لا حس لها ! فلتخرج ربة السماء عينيك من محجريهما ، هى والمباركة سازيوس وبيللونا والأم إدوين كذلك ، وفينوس وصاحبها أدونيس ، وبقية الأرباب جميعاً ! ذلك سيوقفك عن السخرية السخيفة منى . هل تحسب أننى أوكل ربتى إلى ظهر أى بهيم حرون ؟ افرض أنه طرحها أرضاً فما الذى

سيحدث لى أنا المسكين ؟ يجب عليّ عندها أن أركض هنا وهناك وشعرى تطيره الريح بحثاً عن طبيب يهتم بكدماتها» .

فاجأتنى رغبة ملحة فى أن أشب كالمجنون كى أبعده عن شرائى ، بيد أنه قطع عليّ الطريق بأن عرض سبعة عشر درهماً وعدّها فى الحال. وكان القيّم فرحاً بخلاصه منى كما كنت أنا فى قمة الكدر ، فالتقط قطع النقود وأسلمنى لسيدى الجديد بشكيمتي .

قادنى الخصى ، واسمه فيلبوس ، إلى منزله . ولما بلغ الباب صاح : «انظروا يا بنات .. أنظروا ! اشتريت لكم خادماً رائعاً جديداً !» وكانت (البنات) مجموعة من الكهنة الخصيان المقززين اندفعوا فى صيحات مصطنعة وضحكات فرحة مهووسة ظانين أن فيلبوس عنى حقاً ما قال ... فلما اكتشفوا أننى جحش ولست رجلاً ... شرعوا فى غمرة خيبة أملهم يطلقون التعليقات الساخرة غير المهذبة ... ثم أخذونى وربطونى إلى المعلف ....

فى صباح اليوم التالى تهيأ الكهنة الخصيان للخروج فى جولتهم المعتادة وقد ارتدوا جميعاً ثياباً ذات ألوان مختلفة وكان منظرهم يبدو كريهاً تماماً ، وقد لطخت وجوههم باللون الأحمر وطليت محاجر عيونهم لتبرز لمعان العيون ولبسوا طاقيات مخروطية الشكل وأقبية معصفرة وحللاً كهنوتية وزنانير من حرير ونعالاً صفراء . وارتدى بعضهم عباءة بيضاء ذات أشرطة أرجوانية متقاطعة ضيقة . وغطوا الربة بوشاح حريرى ووضعوها فوق ظهرى ، وأطلق نافخ البوق نفيره ، وبدأوا يلوحون بسيوف وصولجانات ضخمة ويتواثبون كالمجانين وأزرعهم عارية حتى الأكتاف.

بعد مرورنا بجملة دساكر وصلنا بيتاً ريفياً كبيراً ورفعوا عقيرتهم بالصراخ عند بوابته واندفعوا داخلين وهم يرقصون من جديد . كانوا يلقون

برؤوسهم إلى الأمام حتى يهبط شعرهم الطويل على وجههم ، ثم يديرونها بسرعة حتى يصبح الشعر دوائر كالحلقات حولها ، وهم يعضون أطرافهم بوحشية بين الفينة والفينة . وعندما يبلغون الذروة يقطعون أذرعهم بمُدى حادة كانوا يحملونها وقد أطلق أحدهم العنان لينجذب أكثر من الآخرين ، صعّد زفرات حرّى من زعمق أعماق رئتيه كما لو تملكته روح الربة وتظاهر بالجنون المطبق . (وهذه فكرة غريبة أن يضعف الحلول الإلهى أو يشوش حواس البشر بدلاً من أن يمدهم بالخير ، فلو واليت القراءة لرأيت كيف تدخلت «العناية» اخر الأمر لتعاقب هؤلاء المشعوذين) وقد بدأ باعتراف زائف بالذنب وهو يصيح بنغمات كهنوتية قائلاً إنه أخطأ فى حق شرائع ديانته المقدسة ، ثم دعا يديه لتقوما بالعقاب اللازم له ، وجذب سوطاً من أحد السياط التى كان يحملها هؤلاء المخانيث دائماً ، وكان سوطاً ذا جملة أهداب طويلة من الصوف المبروم مربوطة بكعب الغنم ، وشرع يجلد نفسه بشدة ، فصارت الأرض من حوله زلقة من الدم الذى نزفته ضربات المُدى والجروح التى سببتها العظام الطائرة ، غير أنه احتمل الألم بصبر عجيب . وقد أشعرنى المشهد بالقلق ، إذ ما العمل لو أصاب هذه الربة السورية الوحم بدم جحش كما تتوحم بعض النسوة بلبن الحمارة ؟!

وأخيراً أصابهم الكلل ، أو رأوا أنهم جرّحوا أنفسهم بما يكفى ذلك اليوم ، فتوقفوا . وتنافس الحشد المجتمع فى متعة إلقاء النقود من جيوب أرديتهم المفتوحة ولم تكن قطعاً صغيرة بل قطع فضة أيضاً ، كما أعطوهم دنّ خمر وجبناً ولبناً ودقيق شعير وحنطة ، دعك من منحة شعير لى باعتبارى دابة الربة الخاصة ، وحُشيَ هذا كله فى أكياس العطايا التى كنا نحملها ، وانطلقتُ مضاعف الحمل ، وصرت من توى معبداً يمشى وخزانة طعام تسير !

طفنا المنطقة كلها بهذه الطريقة إلى أن جاء يوم ، بعد أن جمعنا عطايا

تفوق العادة فى إحدى القرى ، قرر فيه أصحابى (أو صاحباتى) أن يمتعوا أنفسهم متعة حقيقية . فأخذوا أولاً كبشاً بديعاً سميناً من أحد الفلاحين بأن حدثوه بنبوءة لغو أو نحوها ، وتعهدوا بتقديمه قرباناً لتهدئة جوع الربة ، ثم أعدوا كل شئ للوليمة ، وذهبوا إلى الحمام وعادوا بأحد العمال تبدو عليه العافية ، وجلس الجميع إلى المائدة . غير أن الكهنة لم يكونوا طعموا سوى لقيمات من الطبق الأول قبل أن يثبوا ويتجمعوا حول حشية ضيفهم ....

لم أستطع صبراً وحاولت أن أصيح : «النجدة ! النجدة ! اقبضوا على هؤلاء الخبثاء !» لكن لم يخرج من فمى سوى آخر حرف من الجملة «آ، .. آ، .. آ، !» يجلجل ويتردد صداه بشكل يحق لكل جحش أن يفخر به .

كان التوقيت مناسباً تماماً ، إذ تصادف أن كانت جماعة من الشباب تبحث عن حمار سرق الليلة الفائتة ، وكانوا يمرون بالخانات واحداً آخر وهو يفتشون الحظائر ، وحدث أن سمع أحدهم نهيقى وظن أننى البهيم المسروق مخفياً فى مكان ما داخل البيت ، فاندفعوا داخلين - على غير انتظار .. وقطعوا حبل الحفل . أيقظوا الجيران وأنبأوا الجميع بما وجدوه من أمر مقزز، وشرعوا يحيون الكهنة ساخرين ويثنون على عفتهم الدينية الحقيقية ، وقد انتشر الخبر من فم إلى فم وهاجت مشاعر الجميع ، أما أصحابى فقد جن جنونهم ، فحملوا أمتعتهم ، وغادروا البلدة على عجل عند منتصف الليل .

قطعنا مسافة طويلة قبل ظهور الفجر وعندما أشرقت الشمس ألفينا أنفسنا فى موقع منقطع حيث تشاور الكهنة طويلاً وقرروا آخر الأمر ألاّ يبدوا رحمة نحوى . فرفعوا الربة عن ظهرى ووضعوها على الأرض ، ثم نزعوا شكيمتى وربطونى إلي شجرة وطفقوا يضربوننى بالسوط ذى العظام حتى كادوا يقضون عليّ .

وقد أراد أحدهم أن يقطع عرقوبى بفأس انتقاماً للفضيحة التى نشرتها

عن عفته ، غير أن الآخرين عارضوه ، لا شفقة منهم عليّ ، بل لأنهم لن يجدوا مركوباً آخر للربة الراقدة إن هم قتلونى . وهكذا أعادوا تحميلى وساقونى وهم يضربوننى بجوانب سيوفهم حتى بلغنا بلدة كبيرة، هناك سمع أحد وجهائها ، وكان رجلاً شديد التديّن ، سمع صلصلة صناجاتنا ودق دفوفنا وصوت البوق الفروجى المجنون ، فخرج للقائنا وعرض ، بكل خشوع ، أن يسكن الربة فى منزله . دخلنا جمعياً معها ، بينما كان هو يحاول كسب رضاها بتقديمْ أعمق تقديس ممكن لها وأفخر القرابين التى أمكنه تدبيرها . وهناك كان لى أن أنجو من أحرج مأزق فى حياتى ، وهذا ما حدث :

كان أحد مستأجرى أرض مضيفنا قد هاداه بكفل وعل ضخم سمين اصطاده هو نفسه . وقد علق الطاهى هيفاستيون الكفل على باب المطبخ قريباً من الأرض وتمكن كلب ضال أن يشده ويحمله ، فلما اكتشف هيفاستيون خسارته ، التى لا يلومنّ فيها أحداً إلا نفسه ، شرع يبكى بحرقة. ولم يكن ثَم شئ يمكنه عمله ، كما لم يجرؤ على تصوّر ما سيحدث عندما يطلب سيده عشاءه ارتعب رعباً شديداً حتى دعا ابنه الصغير وقبله قبلة وداع رقيقة ثم التقط حبلاً ومضى ليشنق نفسه . سمعت زوجته ، التى كانت تحبه حباً جماً بالخبر المفزع فى الوقت المناسب، فانتزعت الحبل من يديه وسألته : «هل أنت أعمى يا حبيبى هيفاستيون ؟ هل أربكتك هذه الحادثة حتى لم تعد ترى الباب الذى تركته «العناية» مفتوحاً لك ؟ إن كنت لا تزال تملك ذرة من عقل بعد اكتشافك الرهيب فأرجوك ، أرجوك ، أن تستعملها ! أتعرف جحش الكهنة ، الذى جيء به اليوم ؟ خذه إلى إلى الخلاء واذبحه ، ثم اقتطع كفلاً كذلك الذى فقدته ، واطبخه حتى ينضج تماماً وأخْفِ طعمه بأقوى التوابل وقدمه على أساس أنه كفل الوعل على مائدة السيد» .

عمت الفـرحة الطاهى الخبـيث بأمل انقاذ حيـاته على حساب حـياتى ، ودعا زوجته بأنها أذكى امرأة فى الدنيا ، ثم شرع يشحذ سكاكين مطبخه .

مر الوقت . لم يـكن بمقدورى أن أمكث حيث كنت وأدبـر خطة لإنقاذ نفسى . قـررت النجاة من السكين التى أحسـست بها قريبـة جداً من حلقي بأن أهرب على الفـور . فـقطـعت مـذودى وركـضت بأسـرع مـا حـملتنى أرجلى غـير ناس أن أرفس بحـوافرى في أثناء ركضـى ، اندفعت كالـسهم عبر أول ممر ، ودخلت جـرياً غير متـردد غرفة الطعام حـيث كان رب البيت يؤاكل الكهنة لحم قربان ، فأوقعت عـدداً كبيراً من الأطباق وحطمت بعض الموائد كذلك ، وقد أزعجـه دخولى الوقح أشد الازعاج وكذا ما سـببته من ضرر ، فـصاح بعبدانه : «أبعـدوا هذا الحيوان النطّاط ، أوصـدوا عليه مكاناً حـصيناً لا يـكدر فيـه لهـوه هدوء ضيـوفى» ، أمـا وقد أنقـذنى ذكـائى من السكين فقد كنت فرحاً بالفعل أن يقفل الباب عليّ بأمان .

لكن ، لا فلاح لأحد مهما بلغ من الحكمة إذا قررت ربة الحظ غير ذلك. لا يمكنه أبداً أن يلغى أو يعـدل مصيـره الذى قدرته له «العناية» . إن حـيلتى التى بدت وكـأنها انقـذتنى من الموت العاجل أسلمـتنى إلى خطر آخـر كاد يأتى علي ، فقد اندفع أحـد عبيد البيت ، كـما علمت فيما بعـد ، إلى غرفة العشاء يرجـه الرعب يخبر بأن كلباً مسعـوراً دخل البيت منذ قليل من باب خلفى كان يطل على زقاق ، فـهجم فى البداية على كلاب الحراسـة هجوماً ضارياً ، ثم دخل الحـظائر لينفس عن هياجـه فى الخيول ، ثم خـتم بالعبـيد أيضـاً . عض مورتيلوس البـغـّال ، وهيفـاستيـون الطاهى ، وهوباتاريوس الساقى ، وأبولـلـونيوس طبيب البـيت ، وعدداً كبـيراً آخـر من الحشم الذين حاولوا إخراجـه من البيت . وقد شرعت علامات السـعار تظهر على بعض الدواب التى عضها .

أصاب الخبر جـميـع الحاضـرين بالفزع وحـسب أصحـابى الكهنة من

سلوكى الوحشي أن العدوى أصابتنى أنا أيضاً ، فأمسكوا بكل ما كان فى متناول أيديهم من سلاح وهم يتصايحون بهوس : «اقتلوه .. اقتلوه بحق الأرباب !» حقيقة .. كانوا هم المجانين ولم أكن أنا ، وكانوا بكل تأكيد سيقطعوننى إرباً بالمزاريق والرماح والفؤوس التى دفع بها العبيد فى أيديهم لو أننى لم أستشعر ريح الخطر وأفلت قبل هبوب العاصفة فخرجت من الغرفة التى أودعت فيها واندفعت إلي غرفة النوم المخصصة لأصحابى . خافوا أن يتبعونى فأوصدوا الباب من ورائى ووضعوا حارساً طيلة الليل خارجه على أمل أن يجدونى ميتاً فى الصباح ، بدلاً من أن يشتبكوا معى فى القتال ، نتيجة الداء الرهيب . حسن .. لقد أقفل الباب على ، لكننى أخيراً وجدتنى وحيداً أتمتع بحريتى فانتهزت هذه الفرصة المباركة التى منحتنى إياها ربة الحظ وتمددت على السرير أنعم بما افتقدته زمناً طويلاً ، نوماً طيباً بالطريقة الإنسانية .

كان ضوء النهار قد انتشر عندما صحوت ، فنهضت منتعشاً بعد ليلتى الرائعة وسمعت أصحابي يتجادلون خارج الباب . كان أحدهم يقول : «لكن يا وُدّى ، لا يمكن أن يظل الحيوان المسكين مسعوراً حتى الآن بالتأكيد؟ إننى واثق من أن الجرثومة خرجت وتركته على أطيب حال كالعهد به» .

«أوه .. لكن يا وُلدّى لا أقدر على مخالفتك أكثر مما فعلت !» وقرروا أن يبصوا من شق فى الباب ، فرأونى أقف هادئاً وديعاً مثلما كنت . تجرأوا على فتح الباب ليتفحصونى عن قرب ، واقترح أحدهم ، عينته السماء ليكون منقذى ، طريقة بسيطة لمعرفة ما إذا كنت مسعوراً أم لا ، وهى أن يوضع إناء مليء بماء رائق أمامى ، فإن شربته دون تردد كالعادة كان هذا دليلاً مؤكداً على أننى لا أزال فى تمام الصحة ، أما إن تراجعت فى رعب ظاهر فهذا يعنى أننى لا أزال فى قبضة الكلب . وقال إن كتب الطب

المعتمدة توصى بهذا الاختبار وانه رآه جُرّب فصحّ مراراً .

وافقوا جميعاً وأتونى على الفور بإناء كبير مليء ماءً صافياً رائقاً من أقرب نافورة ووضعوه أمامي ، وهم ممسكون أسلحتهم بقوة . كنت أشعر بالظمأ الحارق ، فمضيت ثابتاً إلى الإناء وأدخلت فمي كله فيه وشربت كل قطرة من الماء ، وهو ما أصلح حالى بأكثر من وجه . ثم وقفت هادئاً وسمحت لهم بأن يربتوا علي ويخبطوا أذني ويقودوني هنا وهناك من مقودى ويفعلوا بى ما يشاءون لكى أقنعهم بأن الأمر كله مجرد خطأ وأننى دابة ذلول وأن رأسى تتمتع بتمام العافية .

فى اليوم التالى ، وهذان الخطران العظيمان من ورائى ، حُمّلت من جديد بمتاع الربة وسرنا نساوق صوت الصنوج والصاجات فى جولات تسوّلنا المعتادة . مررنا ببضعة دساكر ومراكز حربية وأتينا قرية قال لنا سكانها إنها بنيت على آثار مدينة قديمة شهيرة ، فنزلنا أول خان بلغناه حيث سمعنا حكاية جيدة عن أحد القرويين ، وكان رجلاً فقيراً خدّعته زوجته أكبر خدعة ، وأحب أن تسمعوها أنتم كذلك .

طيب .

كان هذا الرجل يعيش على كسبه القليل من عمله حداداً بالقطعة ، ولم تكن زوجته تمتلك شيئاً هى الأخرى غير انها امرأة فاجرة للغاية . وما أن مضى الرجل إلى عمله ذات صباح باكر حتى دخل أحد عشاق زوجته البيت ... وحدث أن عاد الحداد الطيب ، فوجد الباب موصداً فهز رأسه مفكراً – ما كان أطهر زوجته لتتحوط هكذا ضد من يتلصص عليها ! ثم صفر من تحت الطاقة كعادته ليعلن عن عودته . كانت زوجته امرأة واسعة الحيلة ... فأخفت عشيقها تحت قصعة فى ركن الدار . كانت قصعة وسخة بالية وفارغة ، ثم فتحت الباب وبدأت تعنف زوجها: «أنت أيها الكسول !

تعود إليّ متسكعاً كالعادة صفر اليدين فارغ الجيوب ! متي تبدأ العمل لمعاشك وتأتى البيت بشئ نأكله ؟ ماذا عنى .. هيه ؟ أجلس هنا كل يوم من الفجر حتى الغروب إلى مغزلى حتى أكاد أذيب أصابعى ولا أكسب سوى ما يكف يزيت القنديل ، ما أبأس هذا الجحر ! أود لو أننى صاحبتى دافنى ، تستطيع أن تأكل وتشرب طيلة اليوم ...»

صاح الحداد وقد جُرح شعوره : «هيه .. ما هذا كله ؟ ما غلطتى إذا كان على متعهد العمل أن يقضى اليوم فى المحكمة ويسرحنا حتي الغد؟ ولا تظنى أننى لم أفكر فى عشائنا . هل ترين تلك القصعة العتيقة عديمة النفع التى تزحم دارنا الصغيرة ؟ لقد بعتها لرجل بخمسة دراهم ، سيأتى بعد قليل ليدفع المال ويحملها ، فأعينينى إذن لأخرجها له» .

لم تتلجلج مطلقاً ، وفكرت بسرعة فى خطة تهدئ بها ما قد يثور لديه من ريب ، ضحكت بطريقة فجة وقالت : «يا سلام ! يا لك من زوج رائع ! وما أشطره فى المساومة ! يخرج ويبيع قصعتنا بخمسة دراهم ، أنا لست إلا امرأة لكننى بعتها بسبعة دراهم دون أن أخرج قدماً من الدار ! »

غمرت الفرحة الحداد : «من الذى أعطاك هذا الثمن الطيب ؟»

«هس .. صه أيها الغبى ! انه لا يزال داخل القصعة يتفحصها ليرى إن كانت تستحق الثمن»

التقط عشيقها الإشارة على الفور فبرز من القصعة وقال : «أقول لك ، يا سيدتى ، إن قصعتك عتيقة جداً ومشقوقة من عدة أماكن» ثم استدار إلي الحداد وقال : «لست أدرى من أنت ، أيها الرجل القميء غير أننى أشكرك لو قدمت لى شمعة ، يجب أن أحك داخل القصعة لأرى إن كانت ما أحتاج إليه . ليس لدى نقود أرميها ، فهى لا تنمو على شجر التفاح هذه الأيام .. هيه ؟!» .

أوقد الحداد المغفل شمعة دون إبطاء وقال : «كلا .. كلا يا صاحبى، لا ترهق نفسك هكذا ، انتظر قليلاً ريثما أنظف القصعة تنظيفاً جيداً لك» ثم خلع عباءته ، وأخذ الشمعة ، ورفع القصعة وقلبها ثم دخلها وانشغل بالعمل .

..... ثم دُفع للحداد دراهمه السبعة ، وإن كان عليه أن يحمل القصعة على ظهره إلى بيت عشيق زوجته !

***

مكث أصحابى بضعة أيام فى ذلك المكان حيث كان الناس معهم فى غاية اللطف ، وقد جمعوا على الأخص مالاً كثيراً باحترافهم قراءة الغيب ، وكان هؤلاء المدلسون الأتقياء قد ألفوا فيما بينهم على أفواههم باسم الربة كهانة تصلح لكل الأغراض ، وخدعوا بها كثيراً ممن جاءوا يستنصحونها حول مختلف الشؤون . تقول كلماتها :

«ضع النير فى عنق الثور واحرث الأرض يرتفع القمح الذهبى ويحصل الغرض»

فلنفرض من أن رجلاً جاء يسأل الربة إذا كان عليه أن يتزوج ، الجواب واضح ينبغى له أن يضع النير حول عنق الزوجة وينال حصاداً طيباً من الأولاد ، فإذا شاء نصحاً فى شراء أرض : يؤدى الثور ذو النير والقمح النامى المهمة خير أداء ، فإن كان الأمر يتعلق بسفر فى عمل ما : ينبغى أن يربط الثور ، وهو أقل الماشية هدوءاً ، ويشير القمح الذهبى إلى عودة حميدة . أما إذا جاء السؤال من جندى أُخطر بمهمة خطيرة أو قائد عسس أُمر بمطاردة اللصوص فقد كان الكهان يفسرون النبوءة بأنها تعنى أن عليه وضع رقاب أعدائه فى النير وانه سيجنى حصاداً وافراً إذا حان وقت تقسيم السلب أو الغنيمة بين المنتصرين .

ولقد جنى الكهان بكل تأكيد حصاداً وفيراً بهذه الطريقة غير الأمينة فى التنبؤ بالغيب ، ثم أصابهم الكلل ذات يوم من هذه الاستفسارات الدائمة التى لم يكن لديهم سوى جواب واحد جاهز لها . وهكذا ارتحلنا من جديد عند هبوط الليل . كانت رحلة أسوأ بكثير من تلك الرحلة التى أخذنى فيه قيّم المزرعة ، إذ كانت الطريق ملأى بالحفر العميقة والأخاديد الممتلئة ماءً حتى حافتها ، وكانت مغطاه فى بعض المواقع بوحل لزج وكنت بلغت أخيراً قطعة من طريق صلد ، مرهقاً مكدوم الأرجل من كثرة ما وقعت ، حين برز لنا جمع من الفرسان المسلحين بغتة ، أمسكوا بأعنة خيولهم ثم أمسكوا بخناق فيلبوس وأصحابه وبدأوا فى لكمهم بقبضات أيديهم : «خذ هذه ، وهذه ، وهذه !» وقد علا صياحهم : «أيها الأشرار الأنجاس !» ثم أوثقوهم وسألوا : «أين قدح القربان الذى تجاسرتم على سرقته من معبد يونو متذرّعين بأداء طقوس قدسية خلف الأبواب المغلقة ؟ أملتم أن تنجوا من العقاب على إثمكم بتسللكم من المدينة قبل ظهور النهار .. أليس كذلك ؟» .

وفى هذه الأثناء جاء إليّ أحد الفرسان الخيالة ، ووضع يده فى جيب رداء الربة وأخرج القدح المفقود وأمسك به عالياً ليراه الجميع . غير أن هذا البرهان الساطع علي السرقة أيضاً لم يسبب لهؤلاء المخاليق الكريهين أى حرج ، إذ قلبوا الأمر كله مزحة وصاحوا : «يا للحظ العاثر ! أليس هذا من جملة الحوادث المؤسفة التى تحدث للشرفاء مثلنا ؟ ها نحن - سدنة الدين- نجد أنفسنا مهددين بالموت من أجل قدح صغير حقير أعطته يونو تذكاراً لأختها الربة السورية !» .

مهما يكن الأمر ، فقد أعيدوا وأودعوا سجن البلدة جزاء أكاذيبهم وبهتانهم .. ووضع القدح والتمثال المقدس اللذان حملتُ بكل احترام ، فى معبد يونو ، وفى اليوم التالى اقْتدتُ ووضعت فى يد الدلال ◆

الفصل الثالث عشر

في الطاحونة

اشتـراني خبّـاز من القرية المجـاورة بثمن يزيد سـبعة دراهـم عـما دفـعه فيلبوس ، وأخـذني محملاً إياى بكيس قـمح ثقيل كان اشتـراه ، عبر طريق مليء بالحجارة وجذور الأشجار إلى مخبزه الذى كان طاحوناً أيضاً .

كان هناك عدد كبير من الدواب لجر الأرحاء الكثيرة طيلة الليل والنهار، إذ لم تكن الطاحونة لـتتوقف أبداً . وقد عـاملنى بما ينبغى أن يعـامل القادم الجديد بأن أعطانى معلفاً مليئاً وإجازة كذلك ، وفى ظنى أنه لم يرد أن يثبط همتى بـأن أعرف على الفور مـا كان فى انتظارى غـير أن فرصـة الخلو من العمل ووفرة الطعام لـم تدم أكثر من اليوم الأول ، إذ ربطت فى اليوم التالى إلى مـا بدا لى أضـخم رحىً فى الطـاحونـة وغُطيت عـيناي ووُضـعت فى طريق دائرى صغـير ، وكان عليّ أن أدور وأدور دون تـوقف . أما وأننى لم أفقد فطنتى بـعد فقد أبيت أن أقبل هذا النظام دون اعـتراض ، وعلى الرغم من أننى طالما رأيت أدوات كـهذه تعمل من هذا النوع ، حـين كنت إنساناً ، واننى أدرت رحىً أصغـر من هذه فى بيت زوجة قيّم المزرعة ، فـقد أدعيت الجهل المطبق بواجـباتى ووقفت جامـداً مكانى كما لو كنت مـصاباً بدوار . تصورت انهم سيسندون إليّ عملاً آخر أقل عناءً إذا ما رأوا عدم صلاحيتى لجر الرحـا ، أو ربما يطلقوننـى فى المرعى . بيد أن ذكـائى زاد عن حده ، إذ بينما كنت واقـفاً معمّى العينين غـير منتظر شراً جاء جمـلة رجال يحملون عصيّاً . صـاحوا فجـأة - بإشارة معـينة - وبدأوا يلهبـوننى جلداً ، أربكن

الصوت والهجوم المباغت ، وبدلاً من أن أقف متدبراً ما ينبغى علىّ عمله ارتفع لهاثى بحبلى المشدود وانطلقت أركض بنشاط ، وانفجر الجميع ضاحكين من تغير سلوكى المفاجى .

وحين قرب النهار على نهايته ولم أعد أقوى على المضى خطوة واحدة من شدة التعب فكوا رباطى وأعادونى إلى معلفى . كنت على وشك الإغماء جوعاً وكللاً وفى أشد الحاجة إلى الراحة ورغم هذا فقد جعلنى الخوف والفضول أهمل ما قدموه لى من طعام - وكان الطعام كثيراً - لا تأمل الحياة فى تلك الطاحونة الكريهة بفزع مفتون . أيتها الآلهة ! ما كان أقمأ تلك المخلوقات التى كانت ترعانا ! كانت جلودهم تبدو ندوبها من آثار الجَلْد كما لك أن ترى بسهولة من خلال ثقوب قمصانهم المهلهلة التى تفضح أكثر مما تستر ظهورهم ذات الندوب ، وكان بعضهم لا يرتدى غير مئزر . كانت جباههم ورؤوسهم نصف المحلوقة تحمل حروفاً وسُموا بها وفى أقدامهم الأغلال . كانت وجوههم صفراء صفرة مفزعة ورموشهم معجونة بدخان أفران الخبز ، وعيونهم عمشاء ملتهبة حتى لا يكادون يبصرون من خلالها ، وقد علاهم الغبار كمصارعى الحلبة ، غبار الدقيق وليس غبار التراب .

أما رفاقى الدواب فيا لها من سلسلة من البغال الهرمة والحمير المخصية ! ويا لها حين دلّت رؤوسها على أكوام التبن ! كانت رقابها مغطاة بالقروح ذات الصديد ، وكانت تكح دون انقطاع وأنفاسها تئز عبر خياشيمها . كان لحم صدورها بادياً لكثرة سجح الحبال عليها ، وقد برزت أضلاعها من جلودها المشققة لكثرة الضرب ، واستطالت حوافرها حتى كادت تشبه النعال لطول مشيها الأبدى تدور وتدور حول الرحىً . وكانت تعانى من الجرب !

أصابتنى حال هذه الدواب المفزعة بالكآبة ، ولعلنى سوف أكون شبيهاً

بها عـما قـريب ، حتى دلّيت رأسى مـثلها وأنا أتحسر لما انحـدرت إليه من مهـانة منذ تلك الأيام البعـيدة عندمـا كنت السيد لوكـيوس . وكـان عزائى الوحيـد تلك الفرصـة الفريدة التى أتيـحت لى لأرقب كل ما كـان يقال أو يفـعل من حـولى ، فمـا من أحـد أبدى تحـفظاً مـا فى وجودى . لـقد كـان هوميروس محـقاً حين شخّص أوديسيوس ، ذاك الذى قدمـه مثالاً للحكمة الرفـيعـة والفطنة الفـائقة ، باعـتبـاره (من زار مـدناً عديدة وعـرف شعـوباً مـختلفـة) وإنى لأشـعر بالامـتنان كلمـا تذكـرت تلك الأيام ، فقـد زادت مغـامراتى الكثـيرة ، مـتنكراً فى شكل جحش ، من خـبرتى زيادة واسـعة ، حتـى وإن لم تعلمنى الحكمة . وفى هـذه الطاحون التـقطت حكاية آمل أن تمتعكم كما أمتعتنى.

كان الخباز الذى اشـترانى رجلاً طيباً ، لكنه غير مـوفق فى زواجه ، فقد كانت زوجته أشرّ امرأة لاقيـتها فى رحلاتى كلها وهى عاملتنى بشكل سئ حتى كنت أتوجـع فى سرى شفـقةً له . لم تكن ثَمّ رذيلة واحـدة لا تتصف بها . كان قلبها خزّاناً أفرغت فيه كل ضروب المجارى القذرة . كانت خبيثة قاسية القلب ، حقودة ، شهوانية ، سكيرة ، أنانية ، عنيدة ، دنيئة فى سرقاتها الحقيرة كما كانت مسرفة فى عربدتها ، عدوة لكل ما هو صادق وطاهر ... كانت تبدأ يومها مبكرة بالشراب ، وتقضى الوقت كله داعرة ، وقد خدعت الناس كلهم ، بما فيهم زوجها ، خداعاً كاملاً .

كانت هذه الكلبـة تمقتنى مقـتاً لا تفسـير له وتضطهدنى بغلّ عـجيب . وكان من عـادتها أن تصيح من فـراشها قبل الفـجر : «هيه .. أيهـا الرجال! أخرجوا الجحش الجديد وشدّوه إلى الطـاحون !» وما أن تنهض من فراشها حتى تأمـرهم بضـربى ضـرباً مبرحاً بإشرافـها الشخصى . وكـانت تبعدنى عن المعلف وقت الافطار ، حين يحل وثاقنا ، زمناً طويلاً حتى يطعم رفاقى ويرتاحوا .

أثارت قسوتها فضولى الغريزى لأعرف حركاتها ، فعرفت أن شاباً كان يزور مخدعها دائماً وكنت أتحرق شوقاً لألقى نظرة على وجهه ، غير أن الغمّامات التى كنت ألبسها للعمل فى الطاحون منعتنى من هذا للأسف ، وكنت أحس بالثقة من أننى سأتمكن من ضبط هذه الزانية متلبسة بإحدى ألاعيبها . وكانت عجوز مقززة تعمل كاتمة أسرارها ووسيطتها وكانت الاثنتان لا تفترقان ، وما أن ينتهى طعام الإفطار حتى تتجرعا أباريق الخمر الصرف ، كما لو كانتا على رهان ، وكان موضوع حديثهما الوحيد هو كيف تخدعان الخباز المسكين . ورغم انى لم أغفر لفوتيس خطأها الفظيع بتحويلها إياى جحشاً بدلاً من أن تحولنى إلى طائر فقد كان لى عوضٌ واحد على الأقل ، وهو أن أذنى الطويلتين كانتا قادرتين على التقاط الحديث على بعد كبير .

وفى ذات يوم سمعت كاتمة السر العجوز تقول بصوت أجش : «سيدتى .. ما كان لك أبداً أن تختارى محبك ذاك دون استشارتى ، أرى أنه لايستطيع مجاراتك وأراك تتعذبين ، الحق أنه وُلِدَ جباناً وأن عبوس زوجك يرعبه حتى ليفقده عقله . قارنيه فقط بفلستايروس . ها هو رجل لك ! وسيم ، كريم ، قوى ، ويمكن الاعتماد عليه دائماً لخداع أى زوج ، إنه - وحقك - لجدير بأن يتمتع باهتمام كل نساء الدنيا . نعم .. لو كان من رجل فى بلاد اليونان كلها يستحق أن يضع على رأسه تاجاً من ذهب لكان فلستايروس - ولو حتى من أجل الحيلة التى احتال بها ذلك اليوم على زوج غيور ، هذا يوضح لك الفرق بين محب حقيقى وحبيبك» .

«إليّ بالقصة» .. قالت زوجة الخباز :

«تعرفين بارباروس .. أليس كذلك ؟ أعنى المستشار البلدى الملقب (العقرب) لطبيعته المقيتة ، طيب . لقد تزوج فتاة جميلة من أسرة كريمة ، وهو الأن يوصد بيته عليها متخذاً كل حيطة تتخيلينها حتى لا يصبح

أحد قريباً إليها أكثر مما يجب» .

«آه .. طبعاً . أعرف أريتى معرفة طيبة جداً ، لقد كنا فى المدينة معاً» .

«فى هذه الحالة يمكننى أن أصمت ، إذ لابد أنك سمعت بالقصة» .

«لم أسمع بكلمة واحدة منها ، وأشتاق لمعرفة ما حدث ، أبدأى من البداية ، يا خالة ، وامضى إلى النهاية» .

وهكذا بدأت العجوز، وكانت تملك ذخيرة رائعة من القصص، تحكى :

«كان على بارباروس أن يسافر فى مهمة لا مفر منها ، وأراد أن يفعل كل ما أمكن لتظل أريتى وفية له فى غيبته ، فأرسل يطلب عبداً له يدعى مورمكس ، أكثر من يوثق به من بيته ، وأمره سراً أن يراقبها قال له : «لو حدث خطأ ما يا مورمكس .. لو أن رجلاً لمس ثوبها بطرف إصبعه إذا مر بها فى الطريق ، فإنى سأغلك فى داموس مظلم وأجوعك حتى الموت» ، وأكد هذا التهديد بأيمان مغلظة أرعبت مورمكس فصمم على مراقبة أريتى بعين لا تنام . بعدها سافر بارباروس مرتاح البال ، أما مورمكس فقد بلغ به التوتر والتدقيق فى إطاعة الأوامر حتى انه لم يكن يترك أريتى تغيب عن ناظره لحظة واحدة . كان يوصد الأبواب عليها تغزل الصوف طيلة النهار ، وكان يصحبها إذا ما خرجت فى المساء إلى الحمام ممسكاً بطرف ثوبها وملتصقاً بها كالغراء . غير أن جمالها لم يكن لينجو من عينى زئر النساء مثل فلستايروس الذى أحس بتحدى سمعة عفتها المنيعة كما أثارته الحيطة الفائقة لصونها ، فوقع فى غرامها العنيف حتى كان على استعداد لركوب كل خطر للفوز بها . وأقسم على حصار القلعة التى كانت سجينة بها واكتساحها رغم دفاع قائد الحامية المنظم .

كان يعرف ضعف الطبيعة البشرية ، وأن الذهب يمكن أن يمهد كل طريق وعر ويحطم أبواب الفولاذ . وحين وجد مورمكس وحده ذات لحظة

اعترف لـه بحبه أريتى حبـاً عميقـاً ورجاه أن يجد طريقة تهـون من عذابه ، وأقسم له : «لأمـوتن قبل عودة باربـاروس إن لـم تعجل لإنقـاذى» وأضاف: «ومع هذا ، فلا خوف عليك : إنه عمل بـسيط جداً ، كل ما عليّ أن أتسلل إلى البـيت ليـلاً وحـدى وأخرج منه تـقريبـاً على الفـور» ، ثم دعّم رجـاءه الودود بإسـفين ارتأى أنه سيـشق هذه القرمـة الصلدة شقـاً واسعـاً، إذ أبرز لمورمكس حـفنة من القطع الذهـبيـة اللامـعة خـرجت لتـوها من دار صك النقود وقال له : «من الثلاثين قطعة هذه عشرون لمولاتك وعشر لك أنت» .

صعق الاقـتراح مورمكس حتى انطلق مـرتعباً دون أن يستـمع إلى كلمة أخرى . لكنه لم يستطع أن يمحـو من ذهنه صورة الذهـب اللماع ، ورغم أنه تركها وراء ظهره ولم يقف عن الجرى حتى بـلغ البيت ، فقد هيئ له أن معه قطع النقود الجميلة وكان يشدد قبضته عليها فى خياله . وقضى المسكين بقية يومه تعيسـاً . كان ممزقاً بمشاعر متضـاربة ، شعوره بالواجب تجاه باربـاروس والعذاب الأليم الذى ينتظره لو كشف أمره من ناحية ، ثم شعوره بالواجب تجـاه نفسـه وفكرة امتـلاكه النقـود الخـلابة لو مضى كل شئ على مـا يرام . وكان جـوعه لتلك الأشيـاء الذهبية الرائعـة يزداد كل ساعة ، يقـرصه الليل بطوله ويمنع عنه النوم ، صـاح الحذر : «قف !» وأومـأت النقود : «تـعال .. خذنا !» وعند الفجـر كان الطمع قد طرد الخوف ، نهض ، وابتلع إحـساسه بالعار ، وجرى إلى مخدع سيدته وأبلغها رسالة فلستايروس .

لم تكن أريتى من فصيلة النساء اللاتى يقـعن فى الحب بسهولة .. لكنها باعت عـفتهـا فى سبـيل كسب الحـرام القذر دون تردد . وغـمرت الفـرحة مورمكس بالمصيبة التى أنهت سجل خدماته المخلصة الطويل ، وطغت عليه الرغبة ، ليس فى طلب المال وحـده بل فى أن يمسكه بيديه ويملكه ، حتى انه مـضـى يعـدو إلى بيت فـلسـتـايروس وأنبـأه أن أريتى رأفـت به . دفع له فلسـتـايروس قطعه الذهـبيـة العـشر فى الحـال . ولك أن تتـصـور شعـور

مورمكس ! إنه لم يمسك فى حياته أبداً بدانقين من نحاس يفركهما معاً !

فى تلك الليلة جاء فلستايروس متخفياً متنكراً إلى مخدع أريتى ..... وعند منتصف الليل سمعت طرقة عالية على الباب ، إذ عاد بارباروس على غير انتظار . فلما لم يجيء أحد ليفتح له شرع يصيح ويدق الباب بحجر ، وقد جعله التأخر الطويل فى فتح الباب يزداد ريبة فصار يتوعد بأعلى صوته بأن يعذب مورمكس . أرعب وقوع الكارثة فجأة مورمكس إرعاباً قاتلاً فردّ بصوت مرتعش أنه أخفى المفتاح بحيطة حتى أنه لم يجده فى العتمة .

نبهت الضجة فلستايروس ، فارتدى ثيابه على عجل وخرج من الغرفة مسرعاً ، ناسياً لسوء الحظ نعليه . بعدها وضع مورمكس المفتاح فى القفل وأدخل بارباروس الهادر المتوعد الذى أسرع إلى مخدع أريتى بينما خرج فلستايروس دون أن يراه وأقفل مورمكس من ورائه الباب .

مضى مورمكس إلى فراشه وقد زال كدره . غير أن بارباروس وجد نعلين غريبين تحت سريره حين نهض فى صباح اليوم التالى ، فخمّن ما حدث . لم يبن عن ريبته لأريتى أو لأى من الخدم ، بل التقط النعلين وأودعهما جيبه ثم أمر بأم توثق يدا مورمكس وراء ظهره ، وحث الخطى بعدها إلى السوق يزمجر هياجاً مقطب الجبين مقترن الحاجبين وقد التوت سحنته من شدة الغضب . وكان حلف أن يقتنفى أثر العاشق عن طريق نعليه . تبعه مورمكس مخفوراً تصلصل أصفاده معذب الضمير رغم أنه لم يقبض عليه متلبساً بأية جريمة . انتحب وأعول محاولاً إثارة شفقة المارّة ، ولا أدرى ما الذى كان يفيده العويل .

تصادف بضربة حظ موفقة ، أن مرّ فلستايروس ، ورغم أنه كان على موعد مهم فى مكان آخر ، فقد شده منظر السيد الغاضب والعبد المرتعب

فى الحـال ، وتذكر غلطتـه التى غلطها فى أثناء فـراره العاجل مـن المخدع ، وخمّن ما حدث . وبدلاً من أن يفقد صوابه تصرف بحضور بديهته المعتاد ، إذ دفع الخفير جانباً واندفع نحو مورمكس صائحاً بأعلى صوته وهو يضرب بقبضته على وجهه، وإن كان ضرباً هيناً وزعق : «أيها العبد الكاذب الزنيم! أرجو أن يعاقبك مولاك ، ودعك من الأرباب التى أقسمت بأسمائها باطلاً بالأمس ، بما تستحق . لقد عرفتك ، أنت اللص الذى أخذ نعليّ فى الحمام، وحق السماء إنك لتستحق أن تظل هذه الأغلال فى يديك حتى تصدأ . إنك لتستحق أن يوصد عليك داموس مظلم بقية ما عشت».

أليس هذا ذكاءً من فلستـايروس ؟ وقـد جاء على البداهة ؟! أُخذ بارباروس تماماً ، فانقلب عائداً إلى بيته وأطلق سراح مورمكس وأعطاه النعلين وقال له : «خذهما إلى صاحبهما الحقيقى أيها اللص ، إذا شئت غفرانى لك ! .

لم تكد القصة تأتى على خاتمتها حتى انفجرت زوجة الخباز : «نعم - حقاً ، إن أريتى لامرأة محظوظة للغاية أن تنال عاشقاً مثل هذا ، أما صاحبى فجبان - لسوء الحظ - حتى انه ليرتعد عند أقل صوت يصدر من الطاحون. حتى الوجه المغمّى لذلك الحمار الأجرب هناك يخيفه» .

«لا عليك يا عزيزى ، انه فتى ذكى ، وأتكفل بجعله نضراً كالدهان، صلداً كالنحاس، مستعداً للموت فى سبيلك، أراك مرة أخرى هذه الليلة .. هيه ؟!» ثم ذهبت ، وهيأت زوجة الخباز عشاءً كبيراً يضاهى مأدبة كاهن ، وهى تصب نبيذاً فاخراً بعناية وتعد طبقاً متبلاً من اللحم الطرى والطبيخ الكثيف وترقب وصول حبيبها كما تنتظر أحد الأرباب . وكان زوجها -لحسن الحظ - مدعواً إلى العشاء عند صاحبه الغسّال فى البيت المجاور . وحين جاء المساء فُككْتُ من الرحى وأُذن لى بالمضى إلى معلفى عند الطرف الآخر من الغرفة الكبيرة حيث ستكون حفلة العشاء . كان رائعاً أن

أفك من العناء وأن تزال مغميات عينى ، وقد صرت حراً فى أن أستعمل عينى وأرقب كل ما ستفعله المرأة الخبيثة .

انعقدت الظلمة وغرقت الشمس وراء المحيط لتضئ جانب الأرض الآخر ، وبعد قليل جاءت العجوز بالعاشق . كان مجرد صبى لم يَنْمُ الشعر على عارضيه لكنه كان مكتمل الصحة وبالغ الملاحة . قبلته زوجة الخباز بشوق وأعادت التقبيل وأجلسته إلى المائدة . بيد أنه لم يكن لامس بشفتيه أول قدح ناولته إياه على سبيل فتح الشهية حين سمع صوت الخباز عائداً ساعات قبل موعده المنتظر . صاحت الزوجة الوفيّة : «لعنة الآلهة على هذا الرجل ! ياليته يتعثر عند العتبة وتكسر ساقه !».

كان الصبى جالساً باهت اللون من الرعب ، لكن صندوق نخل الدقيق كان غير بعيد بين معلفى والباب فأخفته تحته . وحين دخل الخباز قالت له بكل رباطة جأش : «ما أسعدنى برؤيتك .. يا حبيبى ! لكن لماذا رجعت بهذه السرعة ؟ من المؤكد أن صاحبك القديم صاحب المغسلة ....؟»

«لا أستطيع أن أطيقها أكثر مما فعلت» انفجر بتنهيدة عميقة : «زوجته الفظيعة تلك ! لم أكن لأصدق أبداً . كانت تبدو محترمة جداً ، حسنة السلوك جداً . بشرفى .. لقد كان الأمر كشفاً أقسم لك بصنم ربة القمح هناك ، لا أكاد أصدق شاهد عينى»

«خبرنى بما حدث» .

«كلا .. كلا .. إنى أخجل» .

«أوه .. أرجوك أن تفعل ، يجب أن تخبرنى بما حدث ، لن أرضى حتى أسمع كل شئ» .

استسلم فى نهاية الأمر وشرع يحكى قصة الخبر السئ عما جرى فى بيت جاره ، غير دارٍ بما يجرى فى بيته من سوء . قال :

«طيب ، تعرفين أن الغسّال واحد من أقدم أصحابى ، وانها زوجته بدت دائماً امرأة شريفة تماماً ينظر إليها الجيران باحترام وانها تدير شؤون زوجها بطريقة لائقة . بيد أنها منذ زمن غير بعيد وقعت فى غرام رجل وبدآ يجتمعان سراً ويبدو أننى وصاحبى قطعنا متعتهما الليلة بغتة حين عدنا من الحمام للعشاء . ولم تجد فى غمرة ارتباكها واضطرابها لمجيئنا المفاجئ مخبأ لحبيبها خيراً من قفص قش عال علقت عليه الثياب لتبيض فى دخان نار الكبريت داخله ، وبدا لها مكاناً آمناً فجاءت وجلست للعشاء معنا . كان العاشق مجبراً على التنفس فى دخان الكبريت الخانق، وتعرفين أثر الكبريت، فإن رائحته حادة نفاذة تجعل المرء يعطس ويعطس ، وقد سمع الغسّال ، الذى كانت حشيته على الجانب المقابل زوجته ، سمع عطسة من خلفها مباشرة فقال : «يرحمك الله ! يا عزيزتى» .. ثم فى العطسة الثانية والثالثة : «يرحمك الله ! يرحمك الله !» غير أن العطس توالى ، وبدأ الرجل ينتبه إلي الأمر ويشك فى أن ثم خطأ ما ، فدفع المائدة جانباً ونهض وقلب القفص حيث وجد غريمه يلهث ويكاد يلفظ نفسه الأخير .

جن جنون مضيفى الطيب وصاح بعبد من عبيده ليأتيه بسيفه . كان على وشك قطع رقبة البائس المسكين حين استطعت منعه بصعوبة بالغة ، أوضحت له أن غريمه سيموت بسرعة من الكبريت السام لو ترك وشأنه ، فإذا وجد مقطوع العنق وقع الجميع فى متاعب بما فيهم أنا نفسى .

لم تفد توسلاتى له بحق صداقتنا القديمة إذ كان يغلى عضباً ، غير أنه رأى قوة حجتى وسحب الرجل المغشى عليه خارج البيت إلى الزقاق ليموت فيه . ثم استطعت إقناع زوجته بمغادرة البيت على الفور وأن تلجأ إلى بعض الأصحاب حتى يهدئ الوقت من سورة غضبه . كنت واثقاً تماماً من منظره انها لو ظلت لفعل بها شيئاً يائساً ، قد يقتلها ويقتل نفسه أيضاً . كان هذا متعة كافية لليلة واحدة ، فقفلت راجعاً إلى البيت .. ها أنذا ! .

وقد تخللت الرواية شهقات فزع التعفف واللعنات الساخطة على لسان زوجة الخباز التى أخفت إثمها ببراعة . وصفت جارتها بأفعى الحشيش ، وبأنها داعرة لا تخجل ، وأنها خزى بالنسبة لبنات جنسها كلهن ، وانها امرأة لا تملك مزقة من الأدب أو شعور بواجبها نحو زوجها، وصاحت : «تصوّر كيف قلبت بيته إلى ماخور ! وأيضاً .. امرأة متزوجة محترمة تسلك سلوك أدنى الأوباش ، مثل هذه المرأة تستحق أن تُدْفَن حيّةً» ومع هذا فهى لم تكن مطمئنة البال تماماً ، كانت تبغى أن تخلص عشيقها من مكمنه السئ بأسرع ما تستطيع وحاولت أن تجعل الخباز يمضى إلى الفراش مبكراً .

«كلا يا زوجتى» قال لها : «إننى لم أتعشَّ فى بيت الغسّال ، وأنا جائع ، فلنأكل» .

على عجل قدمت له العشاء الذى أرادته للصبى تحت الصندوق وفى تلك الأثناء كانت مشاعرى تغلى لسلوكها حتى أحسست بالألم يسرى فى معدتى . هناك أولاً تلك القبل الشهوانية ، ثم ها هنا ثانياً هذا التظاهر الوقح بالفضيلة . كنت أتلهف أن أجد طريقة أعين بها صاحبى بكشف شر أعمالها ، كأن أرفس الصندوق مثلاً وأكشف عشيقها مقعياً تحته كالسلحفاة فى درقتها .

فكرت : «ما أشنع ما تعامل به الرجل المسكين !» وفى هذه اللحظة جاءت (العناية) لمساعدتى ، فقد حان وقت شرابنا وجاء الشيخ الأعرج الذى يرعانا ليقودنا إلى بركة الماء القريبة ، وهذا ما أتاح لى الفرصة التى كنت فى حاجة إليها لأرد صنيع زوجة الخباز . لاحظت حين مررت بالصندوق أصابع الصبى بارزة من تحته ، فوضعت طرف حافرى فوقها وهرستها هرساً . كان الألم مبرحاً ، فصرخ صرخة عالية ورفع الصندوق قافزاً ، ووقف ليراه الجميع ، وكشف القناع عن وجه زوجة الخباز .

لم يبد على الخباز أنه صدم باكتشافه كما توقعت ، إذ شرع لطيفاً هادئاً يطمئن الصبى المرتجف الذى بدا خوف الموت فى ناظريه ، ويرجوه ألاّ يخاف . قال له :«لا تحسبنى همجياً أو متوحشاً ، فأنا لا أنوى أن أخنقك بدخان الكبريت ، وأنت صبى مليح ، صبى بالغ الملاحة ، لا يليق أن آخذك إلي المحكمة ، عارٌ عليَّ أن يحكم عليك بالاعدام طبقاً لقانون الزنا ، ولا أنوى طلب الطلاق من زوجتى ، أو أن أقاضيها لقسمة الأملاك ، فهذا شأن يمكن تسويته خارج المحكمة بعقد مشاركة بسيط ، ويمكن لنا نحن الثلاثة أن ننعم بالراحة ... إننى وزوجتى لم نتشاجر أبداً حول أى شئ ، وكنا من العقل بحيث عشنا معاً على شرط أن ما يرضى أحدنا يرضى الآخر دائماً ، غير أنه من العدل ألاّ يكون للزوجة سلطة تفوق سلطة زوجها» .

ومضى يداعبه برقة حتى جعل الصبى المتمنّع يمضى معه . ولكى لا يخدش حياء زوجته أوصد عليها باب غرفة أخرى ... وثأر لما ألحقته به من سوء . وعند تباشير فجر اليوم التالى نادى اثنين من أقوى عبيد الطاحون رفعا الصبى ليجلده على ظهره العارى بعصا . وبعد جلده عشرتين من أشد الضربات قال له : «يا لك من صبى لطيف صغير كذلك ! يجب أن تخجل من رد عشاق فى مثل سنك ، ومن محاولتك تفريق شمل البيوت المحترمة ، سوف تشوه سمعتك ، يا ولدى ، والزنا جريمة خطيرة جداً جداً ، لاتنسَ هذا !» ثم جلده عشراً أخرى ، من أجل حسن الحظ ، وطرده من البيت . وهكذا نجا هذا الزانى المقدام بحياته ، وهو حظ أفضل مما أمل ، تخنقه العبرات وهو يبكى ظهره الأبيض الجميل الذى كان يوجعه بعد كل الذى مر به .

بعد ذلك بقليل طلق الخباز زوجته عن طريق وكيل . وكان طبيعياً أن تستثار هذه المرأة البالغة السوء بهذه الإهانة العلنية ، وتلجأ إلى الفن الأسود وهو ما تلوذ به النسوة من طرازها عادة . زارت ساحرةً عرفت عنها قدرتها

على فعل ما تريد بمساعدة الرقُى والعقاقير وقدمت لها الهدايا السنية وتضرعت إليها إما أن تلين قلب زوجها وتجعله يهفو إليها أو ... إن كان هذا مستحيلاً - تسلط عليه شبحاً أو قوة شيطانية مخيفة تخرج روحه من جسده ، فشرعت الساحرة فى العمل ، بدأت بتجارب خفيفة نوعاً من الفن الأسود محاولةً التأثير فى قلب الخباز الحزين وإعادته إلى مشاعره المحبة المعتادة نحو زوجته ، فلما ألفت نفسها غير قادرة على التأثير فيه غضبت من الأرباب. قالت إن عدم الاستجابة لتعاويذها يحرمها مما وعدت به إن وفقت. وهددت بقتل الخباز المسكين بأن تسلط عليه شبح امرأة قتلت غيلة .

(اسمع قارئاً أريباً يعترض : «انظر يا لوكيوس ! لقد كنت جحشاً موثقاً فى الطاحون ، فكيف بلغت من الذكاء حداً تعرف معه أسرار هاتين المرأتين ؟» امض يا سيدى فى قراءتك وسترى قريباً كيف عرفت كل شئ عن موت صاحبى . أوافق على أننى كنتُ جحشاً ، لكننى كنت محتفظاً بإدراكى الإنسانى) .

عند القيلولة دخلت الطاحون امرأة بشعة الهيئة . كانت ترتدى أسمالاً قذرة وتبدى حزناً عميقاً . حسبتها متهمة بجريمة خطيرة . كانت ملقاة على جسمها عباءة ندب فضفاضة ، حافية القدمين ، ووجهها النحيف فى لون خشب البقس تعلوهً طبقة من الأوساخ ، وقد تدلى من فوقه شعرها الأشيب الملطخ بالجير والرماد . جاءت إلى الخباز ، أخذته بلطف من يده وقادته إلى غرفة نومه وكأنها تريد أن تحدثه بأمر خاص ، ثم أقفلت الباب ولبث الاثنان معاً مؤتمرين مدة طويلة .

حين انتهى القمح الذى أعطاه للرجال ليطحنوه من الرحى ، واحتاجوا لغيره ، دقوا باب غرفة النوم ونادوا : «القمح ، أيها السيد ، نريد القمح» .

لا جواب ..

طرقوا الباب مرة أخرى طرقاً أشد صائحين بأعلى أصواتهم : «القمح أيها السيد ، القمح !» .

صمت

كان الباب محكم الأقفال من الداخل ، فارتابوا وقرروا فتحه عنوة ، واحد .. اثنان .. ثلاثة ! وباندفاعة شديدة أطاروا مفاصل الباب وتدحرجوا داخل الغرفة .

لم يُرَ للمرأة أثر فى أى مكان ، غير أن الخباز كان يتأرجح من السقف وحبل حول عنقه ، وحين قطعوا الحبل كان قد فارق الحياة .

ارتفعت صرخة الندب المألوفة وانهلّت العبرات حزناً ، وتمت مراسم الدفن فى مساء اليوم نفسه وقد تجمع حشد هائل عند القبر . وفى اليوم التالى جاءت ابنة الخباز ، وكانت تزوجت منذ عهد قريب رجلاً من القرية المجاورة ، تركض إلى الطاحون وقد تطاير شعرها وهى تنتحب وتدق صدرها ، وكان هذا عجيباً إذ لم يكن بلغها خبر طلاق زوجة أبيها وانتحار والدها . لكن شبح أبيها الطيب الذكر كان ظهر لها فى الليل ، والحبل حول عنقه ، وأخبرها بالضبط بكل ما حدث ، مبتدئاً بفحش زوجة الأب ومختتماً بلجوئها إلى السحر الأسود ، وكيف أن روحه سُحِرَت لتخرج من جسده وأُجبرت على الهبوط إلى عالم الظلال . وبعد فترة تمكن الخدم من تهدئتها ، فلما انقضت ثمانية أيام ، حين تم تقديم القرابين اللازمة عند القبر ، وضعت الطاحون وكل محتوياتها فى يد الدلال - إذ كانت الوارثة الوحيدة - بما فيها العبيد ونحن الحيوانات . فما أعجب كيف يتفكك عند البيع بيت على حين غرة وتتناثر مكوناته فى كل اتجاه شذر مذر ! ◆

مع الخضري والشاويش

كان من بين من عـرض ثمناً لشرائى خضـري ألْقيتُ اليه بمبلغ خـمسين درهمـاً بدا مبـلغاً من المال عظـيمـاً بالنسـبة لـلرجل الفقـيـر ، لكنه أمل أن يستعيده بالعمل الشاق وأن يجعلنى أجاريه فيه ، وعلى أن أصف حياتى فى خـدمتـه . كان من عـادته أن يقـودنى إلى أقرب سـوق كل يوم بحـمل من الخضراوات ، وبعد أن يبيعها لعملائه يمتطينى ويعود إلي مقره، ثم يشرع فى حرث أرضه أو رىّ مزروعاته أو الإنحناء عليها ، منشغلاً بعمل أو آخر ، إذ لم تكن يداه تكفـان عن الحركة ، بينمـا ارتاح أنا هانئاً طيلة الـيوم . لم تكن حياةً سيئة بأى حـال ، حتى مضت بنا دورة العام من موسم القطاف - وهو وقت لطيف دائماً - إلى عـلامات الشتاء المتـقلب بأمطاره المتدفقـة وجلبده الذى يغطى الأرض كل لـيلة . لم يكن لحظيـرتى باب ولا سـقف وكـدت أقضى من البـرد ، إذ لم يكن فى قدرة صاحبى أن يمدنى أو يمد نفـسه بالتبن أو بالغطاء ، وكان وقاؤه الوحـيد من الزمهرير سقـفاً من قش كالمظلة هو له بمثـابة البـيت . ولم يكن لى نعـال تحـمى حـوافـرى من جـوانب الأخـاديد المتـجمـدة أو قطع الجليـد المتناثرة ، ودونما إفطار دائمـاً . وكنت وصاحـبى نتـقاسم الطعـام، ويا له من طعام حـقـير ! هو فى أغلبـه من الخس العتـيق الصلب ظهرت بـذوره وبدا كالمقشـة وقد ضربه الصـقيع ، عـفن الرائحة ، ملئ بالعصارة المرة .

ذات ليلة حـالكة بالظلمـة ضل مـزارع من القـرية المجـاورة طريقـه فى

الظلام وبلله المطر حتى عظامه ، فأدار عنان جواده المرهق إلى مقرنا . استقبله صاحبي محتفياً وحاول أن يريحه بقدر الإمكان إذا ما أخذنا فى الحسبان سوء حالة الطقس والفقر الذى كنا نحياه ، حتى استطاع آخر الأمر أن ينال شيئاً من النوم كان فى أمس الحاجة إليه . وأبدى امتنانه فى اليوم التالى بأن دعا صاحبى لزيارته ووعده بهدية من الذرة والزيت ودنّين من النبيذ ، فوثب هذا إلى العرض ، وأخذ معه كيساً للذرة وبعض القرب الفارغة للزيت ، وامتطانى إلي المزرعة التى كانت تبعد عنا حوالى سبعة أميال .

كان المزارع قد سبقنا ، وعند وصولنا دعا صاحبى بكرم ليشاركه مائدة عامرة . وكانا منهمكين فى الشراب والحديث الرائق حين حدث شئ مفزع للغاية ، إذ جرت دجاجة تقيق فى ساحة المزرعة كما لو انها على وشك أن تبيض . رآها المزارع وقال : «أنت دجاجة طيبة تضعين بيضاً أكثر من أية دجاجة أخرى فى حوش الدجاج . بيضة كل يوم منك منذ شهور ، وأراك الآن متلهفة للإسهام بشئ لمائدتنا ... هيه ... يا ولد !» نادى أحد عبيده : «ضع السلة فى الركن حيث تبيض دائماً» .

جئ بالسلة غير أن الدجاجة أبت أن تدخلها ، بل جرت إلى سيدها ووضعت شيئاً عند قدميه . لم تكن بيضة بل نذير شؤم ، فرخاً مكتمل الريش ، مكتمل المخالب والعينين ، جرى من توه يصيص خلف أمه . وتبع هذا نذير شؤم آخر مفزع حتى ليجعل أشجع الرجال يتصبب عرقاً من الخوف . إذ انشقت الأرضية الحجرية تحت المائدة بغتةً وظهرت هوة فاغرة ملأى بدم يفور طشّت قطرات رذاذ منه وأصابت الأقداح والأطباق، وبينما جلس الجميع يحدق كل منهم مرتعباً مفزوعاً فى هذا الخيال الرهيب ويفكر فى ما يُنذر به ، اندفع عبد جاء من القبو ليعلن أن الخمر المخزون هناك منذ زمن ، عاد يختمر من جديد فى جراره ويسحّ على أرض القبو كما لو أن

ناراً عظيمة أوقدت من تحتـه . بعدها دنت ثلة جرذان من البيت وجرّت إلى داخلة أفعى ميتة . وأخيراً قفزت ضفدعة صغيرة خضراء اللون من فم كلب الرعى ، ووثب كـبش عـجوز كـان واقـفـاً بالقرب منـه على الكلب وقطع حلقومـه بعضة واحـدة ، وقد أذهلت هذه السلسلة المتلاحقـة من الغرائب المزارع وأهله حتى لم يعد لديهم فكر يتدبرون به ما يصنعون ، من الجلى أنه يجب تجنب غضب الأرباب بالقـرابين .. لكن أى ضرب من القرابين ؟ أى هذه النذر أخطرها شأناً ؟ أيها ينبغى الاهتـمام به أولاً وأيها يؤجل أمره إلى ما بعـد بأمان ؟ جلسوا مذهولين ، مـحملقين ، فاغرى الأفـواه ، ينظرون ما هو أسوأ .

أخيراً جاء عبـد يجرى بخبر دينونة مخوفة . فقـد كان المزارع أباً فخوراً لثلاثة أبناء على خير تعليم وأفضل الاحترام . كانوا أصدقاء منذ مدة طويلة لجار فقـير جاور كوخـه عقار شاب سرى ، استغل قوة ثرائه وما قـدمته له علائـق أسرته أبشع استـغـلال . كان يسـتخـدم جيشـاً من الأتبـاع والعبـيد ليتحكم فى شؤون المنطقـة كلها وشرع أخيراً يعامل جاره الفقـر باستعلاء ، يذبح أغنامه ويطرد ثيرانه ويطأ مزروعـاته ، ويحاول الآن انتزاع أرضه أيضاً بادعاء باطل انها تقع كلها داخل حدود عقاره .

لم يستـسـغ الفقيـر ، رغم طيبته ووداعـته ، أن يسلبه أرضـه جاره الغنى الجـشع ، وسـأل عـدداً من أصـدقـائه أن يعـينوه على تحـديد ملك عـائلتـه بالضبـط، وقال لهم إنه يأمل على الأقل فى الاحـتفـاظ بقطعة أرض يحـفر فيـها قـبره . ومن بين هؤلاء الأصـدقاء كـان الإخوة الثـلاثة الذين رأوه فى كـرب عظيم وعزمـوا على مسـاعدتـه بما استطاعـوا ، غيـر أن السرى كـان مصممـاً على سحق الفقير حتى أنه رفض الكفّ عن ادعـائه ، غير ملق بالاً أو مهتمٍّ بوصول هذا العـدد الكبيـر من أهل بلده ، بل إنه لم يحـفـظ لساناً مـهذباً فى فـمه . عـرضوا أنفسـهم حكّاماً موضـحين بأدب عدم صـواب

محاولته نيل ما لم يكن شرعياً له . غير انه مضى - رغم منطقهم المعقول اللطيف - فى عتوّه كما كان ، ثم أقسم أخيراً انه وعائلته مستعدون للموت دون الانصياع لمثل هذا التدخل - فليذهب كل حَكَم إلى الجحيم ومعهم شلة الفضوليين جميعاً ! وصاح : «هيه .. أيها العبيد خذوا هذا من أذنيه واطردوه من هنا ، وتأكدوا من أنه لن يرى فى هذه الأنحاء مرة ثانية» .

شعر الجميع بالعار ، وتكلم أحد الإخوة الثلاثة على الفور وقال للسرى إن وعيده لا يؤبه به رغم ثرائه ، وإنه أضاع كلماته ، فإن إنسانية القانون تسمح حتى للفقير أن ينال دائماً إنصافاً من عدوان الجار المعتدى . وجاءت هذه الإهانة كالزيت يسكب على الشعلة اللاهبة أو كالكبريت يوضع فى النار أو كالقطة (ذات الذيول التسعة) بالنسبة لربة الغضب ، إذ أثارته حين جنّ هياجاً ، فصرخ : «عليك وعلى القانون اللعنة !» وأمر رجاله أن يفكوا رباط جميع كلاب العقار ، كلاب الحراسة وكلاب الرعى أيضاً - وحوش متعطشة للدماء مدربة على التهام جيف الدواب النافقة فى الحقول وإنشاب أنيابها فى سيقان المذنبين فلا تنفك منها .

صاح الرعاة : «إليهم .. يا أولاد !» واندفعت الكلاب تنبح بضراوة نحو أعوان الفقير تنهشهم . حاولوا الفرار فلاحقتهم الكلاب وكلما أسرعوا فى الجرى زادت فى الهجوم الوحشى عليهم . واتفق أن عَثَر أصغر الإخوة الثلاثة فى أثناء جريه وكدم حجر قدمه ووقع على الأرض ، فوثبت الكلاب عليه تمزقه وتزيل قطع لحمه من فوق عظامه وتلتهمهما . سمع الآخرون صيحاته وعادوا لنجدته مخفين أذرعهم اليسرى فى عباءاتهم ملتقطين حجارة كبيرة لإبعاد الكلاب . لكن لم يكن هناك ما يمكن عمله ، فقد استطعمت الوحوش الدم ولم تتركه ، فمزق إرباً أمام أبصارهم ، وكانت آخر كلماته : «اثأروا لى .. ياإخوتى !» .

اندفعوا دون نظر إلى العواقب إلى السرى النذل ، وأمطروه بالحجارة،

بيد أنه كان قد مارس لعبة الحصار العنيف عدة مرات من قبل كما كان مجرباً لا يؤخذ على حين غرة . أسرع يرمى رمحاً نحو أحدهم فاخترق جسده ، غير أنه لم يقع رغم جرحه المميت ، إذ انغرس رأس الرمح فى الأرض على جانبه وظل الجزء الأكبر من مقبضه فى الجانب الآخر ، وتركه مطعوناً يتلوى وجسده لا يكاد يلامس الأرض ، ثم أطار أحد الأتباع القتلة، وهو رجل عريض طويل القامة ، حجراً نحو الأخ الباقى من مسافة بعيدة ليعوقه ، فكشط الحجر أصابعه وطاش ، ظن الجميع أنه جرحه جرحاً بليغاً ، وهذا ما أتاح للفتى الحاضر البديهة فرصة الثأر لإخوته . إذ صاح بالسرى متظاهراً بعجز يده : «حسن جداً .. إذن ، أفعم قلبك الحقود بدم أخويّ ! وأتم عملك الشرير الذى بدأت .. أنظر .. ها هو أحد مواطنيك ، أو أثنان ، ملقيان على الأرض دون حياة . لكن تذكر انك حين أخرجت صديقى الفقير من داره ومهما وسعت حدود عقارك فسيكون لك جيران . هنئ نفسك بحظك الآن إذ أعجز حجر ملعون يدى وتركها دون حول ولا قوة ، لو لم تكن عاجزة لاستخدمتها فى قطع رأسك» .

اجتذب السرى الحانق سيفه واندفع قدماً ينوى أن يقضى عليه بضربة واحدة ، وما تبع ذلك كان غير متوقع أبداً ، فقد اختار خصماً يبزه بكثير . إذ أمسكت بيده التى تحمل السيف قبضة قوية أسقطت منها السلاح ، وضرب بسيفه على رأسه مرة بعد مرة حتى فارقت روحه الشريرة جسده . وقد جاء الأتباع لنجدته ، غير أن المنتصر كان أسرع منهم ، إذ قطع عنقه بالسيف الذى كان لا يزال يقطر بدم السرى .

هذا كان خبر ما أنذرت به غرائب الأحداث ، أما المزارع ، الذى تحطم فؤاده بثقل نكباته ، فلم يستطع أن ينبس ببنت شفة أو يذرف دمعة واحدة . فعمد إلى سكين كان منذ قليل يقطع به الجبن لضيوفه وحز بها عنقه ، تماماً كما فعل ابنه بسيف السرى ، ووقع على وجهه فوق المائدة ليغسل جدول

النجيع من وريده المقطوع البقع الخيالية التى سقطت عليها من نبع الدم فى الأرض تحت المائدة .

شاطر صاحبى الحزن كلَّ من حضر على نهاية أسرة مضيفه الفاجعة ، وقد خاب رجاؤه لعودته بأكياسه وقربه فارغة ، وإن أبدى امتنانه لوجبة الطعام بذرف الدمع وفرك يديه الفارغتين ، ثم ركبنى وقصد بيته من حيث أتينا .

كانت رحلة مشؤومة ، إذ أوقفنا جندى رومانى طويل القامة كان برتبة شاويش سأل بلهجة متعالية : «إلى أين تركب جحش الحمل هذا ؟» وكان صاحبى لا يزال دائخاً ومضطرباً من أثر الأحداث التى شهدها منذ قليل ، ولم يكن يعرف اللاتينية ، فلم يعر السؤال اهتماماً ومضى فى سبيله . أغاظ صمته الشاويش الذى لم يمنع نفسه من ضربه على رأسه بعصاه ليطيحه من فوقى . عندها أجاب صاحبى بوداعة : «آسف يا سيدى ، أنا لا أفهم لغتك ، فلم أعرف ما قلت منذ قليل» ، تكلم الشاويش باليونانية هذه المرة : «إلى أين تركب هذا الجحش ؟» .

«إلى أقراب قرية.»

«حسنٌ .. أنا فى حاجة إليه . يجب نقل متاع القائد من القلعة وتنقصنا دواب الحمل» ، ثم أمسك بشكيمتى وبدأ يقودنى عائداً فى الطريق . مسح صاحبى الدم الذى سال على وجهه من جرح العصا ، وشرع يرجو الشاويش أن يعامله بطريقة أرفق وقال : «أنا واثق ، يا سيدى ، من انك لو فعلت هذا لنلت الحظ الحسن ، وهذا على كل حال ، جحش كسول جداً مصاب بذاك المرض اللعين المسمى الصرع . انه لا يستطيع أن يحمل أكثر من ربطات الخضر من مزرعتى الصغيرة إلى السوق ، إنه يكاد يموت ، حمّله بحمل حقيقى وستحطم قلبه» .

غير أن الجندى القاسى لم يصغ إلى كلمة من هذا كله . فلما أدرك صاحبى أنه عازم على أخذى غصباً وانه شدّد قبضته على عصاه وعلى وشك أن يكسر يافوخه بنهايتها ذات العقد ، اتخذ عملاً يائساً . تظاهر بالتشبث بركبتي الجندى مبتهلاً وشده إلى أسفل وجذب رجليه الاثنتين من تحته وأوقعه على الأرض لتصطدم بها مؤخرة رأسه . ثم وثب عليه وضربه أينما اتفق له – وجهه وذراعيه وأضلاعه ، بقبضتيه فى البداية ثم بمرفقيه ثم بحجر التقطه من الطريق بعد ذلك . ولم يستطع الشاويش ، حينما وقع ، أن يقاوم ، وكل ما استطاع عمله أنه تلفظ بكلمات الوعيد عن كيف سيعاقب صاحبى بمجرد أن يقف على قدميه ، وأقم انه سيفرمه بسيفه فرماً . وقد نبه هذا صاحبى فى الوقت المناسب فاختطف سيف الشاويش من غمده ورمى به أبعد ما يكون وطفق يدقه دقاً أعنف من ذى قبل فتمدد هذا على الأرض تعم جسده الكدمات والجروح حتى صار عاجزاً عن النهوض وأصبح أمله الوحيد فى إنقاذ حياته أن يتماوت . بعدها استرجع صاحبى السيف وامتطانى من جديد وأسرع بى عائداً مباشرة إلى القرية . لم يهتم بالعودة إلى مقره ، فى تلك اللحظة على الأقل ، بل ركبنى إلى بيت صديق حميم له تاجر حيث حديثه بكل ما فعل بالشاويش ورجاه الحماية : «خبئنى وجحشى فى مكان آمن لمدة يومين حتى ينتهى هذا المشكل ، لو أمسكوا بى لقتلونى» .

تكفل التاجر من فوره بحمايته من أجل الأيام الماضية ، وأوثقا أرجلى بعضها إلى بعض وجرانى إلى العُلِّيَّة ، وظل صاحبى فى الحانوت على الطابق الأرضى حيث دخل صندوق بضاعة كبيراً وأقفل عليه غطاءه .

فى تلك الأثناء .. كما سمعت فيما بعد ، ترنّح الشاويش فى القرية كالسكران ، دوخه ألم جراحه ، متوكئاً على عصاه ، وقد منعته كبرياؤه من أن ينبئ أحداً من أهل القرية بقصة هزيمته الشائنة على يدى صاحبى، فابتلع

خزيه فى صمت . وحين قابل بعض رفاقه نصحوه بأن يرقد فى المعسكر بضعة أيام ، لا لأنه سيفقد شرفه إذا ما عرف أن خضرياً أذاقه مثل هذه «الطريحة» ، بل لأن فقدان سيفه يعادل فى القانون العسكرى الفرار من الجيش ، وهو بمثابة نقض يمين الولاء التى أقسمها للامبراطور . وتعهدوا بالبحث عن سيدى وعنى لو أخبرهم بأوصافنا وأن يثأروا لشرف الفرقة .

وكما يمكن توقعه وشى بنا جار فظ ، فمضوا إلى القاضى المدنى وقالوا له إن قدحاً من الفضة قيماً من أملاك قائدهم وقع منهم فى الطريق ، وإن خضرياً وجده وأبى تسليمه وانه الآن مختبئ فى بيت أحد الجيران ، سجل القاضى اسم الضابط وبقية المعلومات الآخرى ، ثم جاء إلى باب الحانوت حيث أعلن بصوت عال بأن لديه سبباً قوياً يدفعه للاعتقاد بأننا مخفيان فى المحل ، وأن مالك المحلّ سيحكم عليه بالموت إذا لم يسلم صاحبى بتهمة إيواء مجرم .

كان التاجر رجلاً شجاعاً وصديقاً حقيقياً ، فأجاب بأنه لا يعرف عنا شيئاً البتة وأنه لم يرَ صاحبى منذ أيام ، غير أن الجنود أصروا ، وهم يقسمون باسم الامبراطور على أن الخضرى فى البيت وليس فى أى مكان آخر ، بعدها وافق القاضى على تفتيش المحل تفتيشاً دقيقاً ليرى مدى الصدق فى إنكار التاجر العنيد ، فأرسل الشرطة وبعض الموظفين المحليين بأمر تفتيش البيت من قمته إلى أسفله ، غير أنهم خرجوا يقولون إنهم لم يعثروا على جحش ولا رجل ، لا فى الطبقة العليا ولا فى السفلى . واحتدم الجدال بين الجانبين . الجنود يقسمون باسم الامبراطور انهم يعرفون واثقين أننا هناك ، والتاجر يقسم بجميع آلهة جبل الأولمب انهم كاذبون .

كنت ، كما تعرف ، جحشاً فضولياً لا يقر له قرار ، وحين سمعت الأصوات الغاضبة ترتفع خارج الدار مددت عنقى قليلاً خارج نافذة العُلِّيَّة لأعرف - إن استطعت - جلية الأمر . وقد اتفق أن كان أحد الجنود ينظر

إلى أعلى فى تلك اللحظة . لم يكن واقفاً حيث يمكنه رؤيتى بل لفت نظره رأسى وأذنى ملقىً على جدار البيت المجاور . «انظروا ! انظروا !» هكذا قال ، فصاح جميع الجند واندفعوا إلى المتجر ، ثم صعدوا الدرج إلى مخبأى وانزلونى ، ثم فتشوا المتجر ذاته تفتيشاً دقيقاً وحين فتحوا الصندوق وجدوا صاحبى فيه . جروه إلى تحقيق القاضى وأخذ إلي السجن بتهمة خطيرة وهى سلب ضابط رومانى .

وقد دغدغت فكرة إطلالى من الناقذة الجنود حتى صاروا يتندرون بها أياماً ، وألف شخص ما مثلين شهيرين عن وصلة الكلام : «كله بسبب جحش أطل !» وهومثل سائر فى كل البلاد ، ولست أدرى ما جرى لصاحبى فى اليوم التالى أو لصديقه التاجر ، لكن الشاويش الذى نال جزاءً وفاقاً لغطرسته قادنى من المعلف الذى ربطت اليه ، ولم يكن أحد ليمنعه ، وأخذنى إلى ما أحسبه سكنه حيث حّملنى وجعل منى شخصية عسكرية كاملة . فقد وضع على قمة كوم متاعه وأدواته الساحقة ، خوذة نحاسية ساطعة ، ودرعاً ملمعاً يكاد يغشى لمعانه الأبصار ، ورمحاً ذا مقبض طويل بشكل غريب . ولم يكن هذا الترتيب ، الذى جعلنا أشبه بنموذج مصغر لجيش يهبط الطريق ، لم يكن من ضمن أوامر الفرقة العسكرية بل قصد به إدخال الرعب فى قلوب المدنيّين . مضينا عبر سهل فى طريق جيدة ثم بلغنا آخر الأمر بلدة صغيرة حيث لم ننزل فى خان بل فى دار أحد المستشارين فى المجلس البلدى ، تركنى الشاويش هناك فى عهدة عبد ، ثم انطلق يقدم نفسه لقائده فى الحال ◆

الفصل الخامس عشر

فى بيت المستشار

لم يحدث لى شئ ذو بال فى الأيام القليلة التالية ، بيد أن على أن أسجل محاكمة قتل مثيرة جرت فى أثناء إقامتى هناك ، إذ أن شخصياتها الرئيسية كانت أصحاب مأواى : المستشار وزوجته وابنيه . وقد دارت أحداث الرواية من حولى . كان الابن تلميذاً نجيباً فى المدرسة وكان فى الحق مثال الكمال للفضائل كلها ، يفتخر به كل والد ، ماتت أمه منذ سنوات خلت واقترن والده بامرأة أخرى فكان له أخ غير شقيق يبلغ الثانية عشرة من عمره . وقد أطلق المستشار يد زوجته ، وكان حسنها يفوق أخلاقها ، فى شؤون البيت . ولست قادراً على القول ما إذا كانت هى فاسدة بطبيعتها أم أن الأمر كان قدراً مقدوراً لم تستطع شيئاً حياله ، غير أنها على كل حال ، شغفت حباً جنونياً بربيبها . ولينتبه القراء إلى أن ما يلى فاجعة وليس ملهاة ، وعليهم أن يقرأوه بذهن جادّ يناسب المقام .

طيب . لقد وجدت الرابّة (زوجة الأب) من اليسير عليها إخفاء مشاعرها الآثمة طالما ظل إله الحب الصغير طفلاً رضيعاً وأن تتكتم الأمر . فلما شب عن الطوق وشرع يلعب حيله موقداً اللهب الحارق بسهامه النارية فى فؤادها ادعت المرض سبيلاً وحيداً لإخفاء عذابها . والكل يعرف أن عوارض الحب الجسدية لا يمكن تمييزها من العلل المألوفة كالشحوب مثلاً ، أو العيون الكليلة ، أو وهن الركبتين ، أو الأرق ، وآهات تزداد لظىً بطول مدة الأزمة . وكان من الممكن حقاً أن تشخص شكواها بأنه برد

أصابها لولا مضاعفات بكائها المتواصل . ويقول فرجيل فى كتاب له : «واأسفاه .. حين يكون النطاسيّون بمثل هذا الغباء !» وقد حيّر الذين عادوها سرعة نبضها ، وتقلب مزاجها ، وصعوبة تنفسها وتقلبها على فراشها ، ولم يدروا ماذا يصفون دواءً لها . يا إلهى ! إن أى تلميذ ساذج فى مدرسة الغرام كان بمقدوره تشخيص الحمَّى من فوره !

ازدادت حالتها سوءاً يوماً بعد يوم حتى لم تعد تستطيع احتمال الألم ، فمزقت ستار الصمت بأن أرسلت فى طلب ابنها الأكبر ، ابنها ! أوه .. لو انها لم تكن ملزمة أبداً بأن تدعوه كذلك ، أو لو انها تمكنت من الامتناع عن استعمال الكلمة التى كانت وخزاً متصلاً لمشاعرها !

مضى الابن إلى مخدعها من توه والقلق يغضّن جبينه كشيخ عجوز . لم يكن يدرى ما تريده منه ، وإن شعر بواجب الذهاب إليها ما دامت زوجة أبيه وأم أخيه . وحين دخل الغرفة لم تستطع أن تقول ما تبغى ، رغم أن صمتها الطويل كاد يقتلها . فمشت على رمال الشك - إن صح التعبير - وغمرها الخجل الشديد من أن تفتح الحديث بما أعدته فى ذهنها من كلمات لهذه المواجهة الحرجة ، وعلى الفور سألها الربيب الذى لم يكن يساوره شك دون مهلة وبعطف بالغ : «أماه .. ماذا بك حقاً ؟»

انفجرت بالدمع ، وأخفت وجهها فى طرف منامتها ، واستطاعت أن تقول والعبرات تخنقها : «أنت ! أنت من أصابنى بالداء ، وزيادة على هذا فأنت الدواء الوحيد للحمى التى بى ، سوف أموت إن لم تشفنى»

فصرخ مشدوهاً : ««أنا ؟! ماذا فعلت لأصيبك بالعلة ؟»

«نظرت إليّ ! نظرت فى عينى وألهبت شيئاً فى داخلى ، إنى احترق ببطء حتى الموت . لا تسمح ببحيرة سخيفة عن حق أبيك يمنعك من الرأفة بى . إنها غلطتك أن أستلقى هنا فى مثل هذا العذاب ، وإن تفعل ما أطلب

منك تفعل ما ينفعه ، تنقذ زوجته من الموت . لا تلمنى إن أحببتك ، فأنت نسخة أصغر من أبيك العزيز . هيا يا حبيبى ، فلا أحد هنا ولا شئ تخشاه ، هذه فرصة رائعة لتمتع نفسك . قد تسمى هذا فحشاء ، غير أنه شئ يجب أن تؤديه ببساطة وأنت تعرف المثل القائل (لا جريمة اكتشفت فلا جريمة ارتكبت) .

أربكته مفاجأة الكشف المدمر ، غير انه فكر فى ألا يكدرها بالرفض الكامل ، رغم ارتجافه من مجرد فكرة الاستجابة لطلبها . أخذ جانب الأمان بأن سألها تنتظر قليلاً وهو يعدها بكل ما أرادت . قال لها : «والآن يا أماه اهتمى بصحتك واطمئنى بالاً سأجد فى القريب فرصة لأكون معك . لكن يجب علينا التريث حتى يسافر أبى !» ثم غادر الغرفة على عجل ، وصار الآن مجرد النظر إليها يصيبه بالإعياء . كان يعرف أن شمل الأسرة سيتمزق إلا إذا قام بالعمل الصائب ، فأسرع فى الحال إلى استاذه العجوز وأوضح له ما حدث .

فكر الشيخ مدة طويلة قبل أن ينبئه بأن خير نصيحة يقدمها له أن يفر قبل هبوب عاصفة القدر وأن يهجر البيت على الفور . لكنه بينما كان يأخذ أهبته وجدت رابته ، ولم تعد تطيق الانتظار يوماً أو يومين ، تكئة لترسل زوجها على عجل ليتفقد إحدى مزارعه البعيدة . وما أن خرج من بيته حتى أرسلت إلى ربيبها رقعة ، فى حالة من الشوق العارم، تستوفيه وعده.

كان مقته لها من القوة بحيث لم يستطع مواجهة لقاء جديد ، فأرسل لها يعتذر . ولما أعادت طلبها مرتين اختلق عذراً بعد آخر . فهمت فى النهاية أنه لا ينوى الحفاظ على وعده ، فتغير مزاجها على الفور وانقلب هواها الفاحش إلى كراهية شيطانية . دعت أحد عبيدها ، كان جزءاً من مهرها وله نظرة متحررة عن مقام الجريمة . وكشفت له عن كل أسرارها الآثمة ، تشاوروا معاً وقررا أن خير ما يعمل فى تلك الأحوال أن يُسمَّم الربيب ،

فأرسلت العبد الزنيم من توها ليبتاع حزمة من أقتل السم يمكن شراؤه ، وحين عاد به أذابته فى قدح نبيذ وضعته جانباً ليشربه الربيب البرئ .

عند منتصف النهار ، وهما منشغلان فى مناقشة أفضل الطرق لتقديم السم ، جاء ابن هذه المرأة الشريرة من المدرسة ، كان عطشاً فوجد قدح النبيذ المسموم ، وبالطبع تجرعه دفعةً واحدة دون أن يخالجة ريب فى انه يحتوى على سم أعد لأخيه الأكبر ، فسقط على الأرض لا حراك به . طغى الرعب من الكارثة على العبد الموكل إليه حمله إلى المدرسة ومنها، صرخ بأعلى صوته على الأم وعبيد المنزل ، وحين عُرف أن الصبى شرب كأس نبيذ اتفق الجميع على انه لابد أن يكون قد سُمَّ ، ولم يتفقوا على من وضع السم فيه .

لزوجات الآباء سمعة الخبث تبررها تماماً هذه الحادثة . لم يفزعها موت ابنها الفاجع بحال ، ولم يخفها الشعور بالذنب ، إذ هى قاتلته ، ولا ما ينتظر زوجها من أسىً حين يؤوب . كل ما خطر فى بالها أنها فرصة رائعة للانتقام ، فأرسلت فى الحال تستدعى زوجها بخبر الكارثة، وكان لها من القحة ، حين أسرع بالعودة ، أن تقول له إن ابنها سمَّه ربيبها . وهذا حقيقى مجازاً ، فقد كان سمّ أخيه الذى قتلته . بيد أن روايتها كانت أن ربيبها عرض أمراً فاحشاً عليها فلما أبت الإصغاء ثأر بتسميم ابنها ، وزخرفت هذه الاكذوبة الفظيعة بالقول أنه استلّ سيفه حين اتهمته بالقتل وتوعدها .

كان المستشار في حالة من اضطراب الذهن مفزعة ، فهذا ابن ينتظر الدفن ، ولابد للآخر أن يدان ليموت بتهمة الفحش وقتل الأخ ، ولم يعد يشعر نحوه بالإشفاق بل بالمقت ليس غير حين جاءته زوجته التى أحب ووثق بها تنتحب بهذه الرواية المفجعة . وبعد اتخذت الترتيبات لجنازة الصبى ، مضى الأب الشقى والدموع تجرى على خديه والرماد على شعره الأبيض الذى كان يقطعه بقبضتيه ، مضى من كوم الجنازة التى لم تشعل فيه

النار بعد إلى السوق رأساً . وهناك فعل كل ما فى وسعه فى خطاب عاطفى وجهه للقضاة ليدينوا ابنه الحى ويحكموا عليه الموت ، متوسلاً ، يسكب العبرات ، بل مضى إلى حد معانقة ركب زملائه المستشارين .

اهتز القضاة بالعطف المشحون سخطاً وكذلك أهل البلدة الذين رغبوا فى التخلى عن إجراءات المحاكمة الرسمية بنمط شهادات شهود الادعاء المملة وحجج الدفاع الطويلة ، وصاحوا : «ارجموه ! ارجموه !» و «جريمة فى حق الأخلاق العامة ينبغى أن ننتقم لها جهاراً !» ومهما يكن الأمر فقد خشى القضاة أن التجاوز فى عمل سريع من أعمال العدالة قد يضعف من احترام العامة للقانون والنظام ويشجع على التظاهرات الشعبية ، فسألوا المستشار عونه لقرارهم أن يعقدوا محكمة على النسق المرعى بشهود يدعوهم الجانبان يستجوبون بدقة وحكم يصدر له صفة الجزم وقالوا : «لا أحد يدان دون أن يسمع كما لو أن هذا مجتمعٌ بربرى أو طغيانى ، لا سيما فى مثل أيام الأمن هذه ، إن هذا سيكون سابقة مرعبة» .

قُبل قرارهم السليم بالإجماع وأُرْسل كاتب البلدة فى الحال ليدعو إلى اجتماع المجلس القضائى . وسرعان ما اجتمع الأعضاء فى القاعة وجلسوا حسب رتبهم وأقدميتهم ، ثم دعا كاتب البلدة المدعين ليقدموا قضيتهم وأمر بإحضار المتهم ، وأخيراً أعلن أنه على محامى الطرفين ، طبقاً للقانون الأتيكى Attic والإجراء الذي يتبعه الـ Areopagus ، أن يعرضوا القضية دون مقدمات أو لجوء إلى عواطف المحكمة لا ضرورة له . ولما لم أكن حاضراً فى أثناء المحاكمة أنا نفسى ، بل كنت مقيداً إلي معلفى ، فإن روايتى مستقاة بالضروة من مصدر ثان عن طريق الأحاديث العارضة لزوار الحظيرة المتنوعين ، بيد أنى سأحرص علّى تسجيل ما عرفت بعد التدقيق فى الروايات أنه الحقيقة التامة .

حين فرغ محامو الطرفين من القاء مرافعاتهم ، واكتفي محامى الدفاع

بإنكار شامل لكل التهم ، قررت المحكمة انه لا يمكن إصدار الحكم فى قضية بمثل هذه الأهمية لمجرد القرينة واستدعوا عبد زوجة الأب الذى قال الإدعاء إنه الوحيد العارف بوقائع القضية كلها . وحين نهض ذلك المجرم ليدلى بشهادته لم يبد عليه أى اضطراب ، ورغم خطورة القضية وامتلاء قاعة المحكمة لم يساوره شك فى الحكم كما لم يخزه ضميره مؤنباً . وقد أدلى ببيان طويل ، بعد أن أقسم اليمين ، وحسّن من رواية سيدته بمبدعات من عنده . وكانت روايته أن الربيب اشترى حزمة من السم ، بعد أن أذله ردُّ محاولته الفاحشة ، ثم أرسل يطلبه ورشاه بمبلغ كبير من المال ليقفل فاه وأمره أن يقدم السم للصبى .

«عندها - يا أصحاب الفضيلة - رغم أنى أؤكد للمتهم أننى لن أفعل مثل هذا الشئ الشرير أبداً وانه يستطيع الاحتفاظ بنقوده - المتهم يعطينى الكأس المسمومة - هو يخلطها أمام عينى - ويقول يجب أن أعطيها للسيد الصغير ليشرب ، ولو أنى لا أفعل - آه - هو سيقتلنى أنا بدل السيد الصغير - طيب . أنا آخذ الكأس منى لكن أنا لا أعطيها للسيد الصغير ، ثم المتهم يأتى ورائى ويشك أننى أحفظ الكأس لأريه لأبيه مثل دليل ضده . هو يأخذ الكأس منى ويعطيه للسيد الصغير نفسه ، والسيد يشربه كله» * .

كان الشاهد ممثلاً جيداً ، وحين اختتم كلامه ، بعرض مقنع وإثارة معتبرة، أُعلن قفل القضية ، دون أن يعطى محامى الدفاع فرصة سماع شهادة الأستاذ الذى اتصل به الربيب أو شهادة العبد الحاضر ، أخذ الصبى للقدح وشربه أو حتى المتهم البرئ نفسه . كان أعضاء المحكمة مقتنعين عدا مخالف واحد ، بأنه مذنب ، ولم يروا بديلاً للحكم عليه ، مهما بلغت طيبة قلوبهم ، كما نص القانون بأن يخاط عليه كيس من الجلد مع أربعة

* لاحظ هنا ركاكة الأسلوب باعتباره عبداً أمياً جاهلاً .

حيوانات : كلب وديك وأفعى وقـرد ، رموز الخطايا القاتلة الأربع ، ويلقى فى النهر . لم يبق الآن سوى الاقتراع فى الوعاء النحاسى .

فلو اقترع بالموت حكماً تمت الإجراءات وسلم المدان إلى الجلاد .

فى اللحظة الأخيرة تقدم المخالف الوحـيد - وهو طبيب شيخ موقر كل التوقير ومستقيم تمام الاستقامة - وخاطب المحكمة واضعاً إحدى يديه على فم الوعاء النحاسى ليمنع من قد يلقى بقرعته قبل الأوان .

«سادتى ورفاقى ! لى الفخر بأن أحسب أننى لم أخيب فى حياتى ظنكم الحسن وآمل آلاّ أفعل الـيوم برفض قبول قتل رجل برئ عـلى يد القضاء - رفض أن أدعكم تخـدعـون بأكاذيب عـبـد بليـغة وأن تحنثـوا باليـمين التى أقسمتموها جميعاً على أن تصدروا حكماً عادلاً غير منحاز . من اليسير لى أن أتظاهر بموافـقتكم ، غيـر أننى لن أخدع ضـميـرى ولن أكبت الاحـترام الواجب عليّ نحـو الأرباب بالتصـويت فى جانب الحكم بالموت ، اصـغوا جيداً وسأمدكم بحقائق القضية .

هذا المجرم الذى كان يدلى بشهادته منذ قليل جاءنى منذ يومين وقدم لى مائتى قطعـة ذهبية ثمناً لسم زعاف سـريع المفعول . قال إنه بحـاجة إليه من أجل صـديق يعـانى من مـرض عضـال أراد تحـرير نفـسه من بـؤس الحيـاة بالانتحار . كانت قصته ذلقة لكنها غير مقنعة ، وارتبت فى أن بالأمر خدعة ، ورغم أنى أعطيته حـزمة السم فقد حرصت عـلى ألا أكون شريكاً فى أية جريمة تعتمل فى ذهنه بقبولى المبلغ على الفـور . سألته أن يترك كيس النقود فى صيدليتى وأن يأتى معى إلى الصيرفى فى اليوم التالى ، وهو أمس ، ليزن قطع النقـود لئلا يكون أيُّهـا مزيفـاً أو ناقص الميزان ، وفى هذه الأثناء خـتم الخيط على عنق الكيس بخاتم ابهامه ، بناء على طلبى .

فلما لم يـأت كما اتفـقنا ، وسمعـت في المحكمة منذ قليل أنه سـيدعى

باعتباره شاهداً ، أرسلت عبداً على عجل إلى بيتى ليحضر الكيس ، وها هو، أروه طابع خاتمه واسألوه عما إذا كان يعرفه أم لا ؟ فإن ثبت أنه له لعجبتم كيف يجرؤ على اتهام السجين بشراء السم الذى اشتراه هو نفسه !»

بدأ العبد يرتعد بشدة ، وانقلب وجهه مغبراً وتصبب منه العرق البارد . كان يخفف من وطأة ثقله بأن يراوح بين قدميه ، وشرع يلهث ويحك رأسه وهو يتمتم بلغو لا معنى له ، فلا يصدقنّ ذو عقل براءته ، ثم استعاد رباطه جأشه وأنكر أنهّ زار الطبيب البته ورماه بالكذب . لم يعد الأمر قاصراً على أن الطبيب أقسم اليمين على أن يصدر حكماً عادلاً فى هذه القضية ، بل إن شرف مهنته صار الآن مطعوناً فيه ، فضاعفت من جهده فى مناقشة العبد الحساب . وأخيراً أمر القضاة كتاب المحكمة أن يمسكوا بيده ويقارنوا خاتمه بطابع الشمع على عنق الكيس ، فتطابقا تماماً .

طبقاً للعرف اليونانى بذلت محاولة لانتزاع اعتراف من العبد بأن عذب على (العذراء)* وأركب (الحصان الخشبى)* والأثقال معلقة فى قدميه وقرع قرعاً لاهباً . غير انه كان شديد الاحتمال ولم ينقص كلامه حتى عندما حرقوا قدميه بالجمر . وأخيراً قال الطبيب : «وشرفى ! لن أسمح أن يعاقب الشاب الموضوع فى قفص الاتهام بسببك لجريمة هو منها برئ ، ولن أدع هذا العبد يخدع المحكمة وينجو من العقاب على شره . اسمحوا لى أن أقدم لكم دليلاً بيّناً على صدق ما ذكرت . عندما جاءنى هذا الوغد عديم الحياء من أجل سم قاتل سريع تذكرت أن فن الطب ابتدع لإنقاذ الحياة الإنسانية وليس للقضاء عليها ، وقررت أنه من الخيانة لمبادئ مهنتى أن أبيع السم القاتل بالقوة** لكنى خشيت أن يقصد مكاناً آخر ، إن رفضت بيعه

---

* (العذراء) و (الحصان الخشبى) آلتان من آلات التعذيب .

** يتحول إلى قاتل بالفعل عند التنفيذ .

السم ، أو يرتكب جريمة القتل التى فى ذهنه بأداة أخرى - سيف مثلاً أو أقرب سلاح فى متناول اليد . وعليه فما أعطيته لم يكن فى الحقيقة سمّاً بل كان مخدراً يسمى (مندراغورا) وهو ذو مفعول شديد يسبب غيبوبة لا يميز فى الواقع بينها وبين الموت . فلا تندهشوا من استعداد هذا العبد فى قنوطه، لمواجهة العذاب المألوف الذى أمرتم به ، فإن هذا العذاب مهما يكن لا يقارن بما سوف يلحقه اعترافه الفورى بذنبه من عقاب . فإذا ما كان الصبى قد تناول العقار الذى أعددته فعلاً فإنه لابد أن يظل على قيد الحياة ، وإن كان فى حالة إغماء ، وما أن ينتهى مفعول العقار حتى يقوم وتأتى هذه المحاكمة آلياً خاتمتها . أما إذا كان مات حقيقة ، فلابد من بحث آخر للموضوع ، موته يرجع إلى أسباب لا علم لى بها».

كان هذا الكلام معقولاً ، فأجلت المحاكمة فى الحال ، واستبدت الإثارة بالجميع فتسابقوا نحو كوم خشب الجنازة ، القضاة وأعضاء المحكمة وكذلك بقية الجمهور . كان الأب هو السابق ، فرفع غطاء النعش لحظة أن كان الصبى يحاول الجلوس خارجاً من غيبوبته التى تشبه الموت . احتضنه إلى صدره ، ولم تواته الكلمات الرائعة المعبرة عن فرحته وبهجته ، فأنزله صامتاً ليراه الجميع ، وجاء به على الفور إلى قاعة المحكمة وهو لا يزال ملفوفاً فى أكفانه .

لم تعد حقائق القضية موضع جدال ، فقد كشف سوء العبد وشر الرابّة الأعظم . وحكم على المرأة بالنفى المؤبد ، أما العبد فصلب وأهدى كيس النقود ومحتوياته بإجماع الأصوات ، إلى الطبيب الشيخ الفاضل ثواباً على الغيبوبة التى سببها وأدت إلى هذه النتيجة السعيدة، وهكذا انتهت القصة نهاية روائية عجيبة ، كما لو أن أحد الآلهة هبط من مركبته السماوية ، أما المستشار الذى حسب نفسه منذ لحظات فاقد الولد ، فقد كان أباً لولدين مرة أخرى ◆

الفصل السادس عشر

عِند المدرّب

كان ينتظرنـي تبدل فى الحظ مفـاجئ ، إذ بعث الشاويش الذى استولى عليّ من الخضرى إلى روما محملاً من قـائد فرقته برسائل إلى الامبراطور ، فـباعنى بأحـد عـشر درهـماً إلى أخـوين عـبدى مطبخ لـوجيـه ثرى يدعى ثيـاسـوس كان يعـيش فى المنطقـة المجـاورة . كـان أحد الأخـوين حلوانيـاً والآخر طاهياً اشـتهر بأطباقه الشـهية ومرقه اللذيذ اشـترانى دابة حمل لنقل آنية المطبخ الكثـيرة التى يحتاج اليـها ثياسوس فى رحلاته . وقـبلت شريكاً ثالثاً فى شركـتهما ، ولم أنعم أبداً طيلة مدة تحـولى بوقت أطيب مما قضيت معهمـا . كان من عادة صاحبى أن يحـملا بقايا الطعام إلى غرفتنا الـصغيرة كل مسـاء بعد أن يتعشى ثيـاسوس - وكان عشـاؤه فاخراً دائماً ، أحـدهما يأتى بكمية هائلة من لحم الخنزير المشوى والدجاج والسمك وما شاكلها من الأطايب ، ويأتى الآخـر بالخبـز والفطائر والمطرّيات وجـدائل الجبن المطوية والفالوذج وضـروب من الكعك بالعسل . وتعـودت بعد أن يوصـدا الباب ويقصـدا الحمـام لينتعـشا ، أن أمـتع نفسى بالطعـام الفاخـر الذى وضعـته الأرباب تحت إمرتى بكرم زائد ، لا أن أكون غـبيّاً كالجحش حقيـقةً فأتركه مفضلاً عليه العشب الجاف الخشن فى معلفى !

وفقت فى اختلاسى توفيقاً رائعاً مدة طويلة من الزمان ، وكانت طريقتى أن أتناول قليـلاً من كل طبق من أطبـاق المائدة الكثـيـرة ، إذ كنت أدرك أن صاحبى لن يرتابا أبداً فى انه يمكن لجحش أن يقوم بمثل هذه الألاعيب . بيد

أن ثقتى فى نفسى زادت شيئاً فشيئاً وصرت آكل كل ما عَنَّ لي ، وكنت فى الواقع اتخيَّر أفضل الأطباق فآتى عليها حتى ألعقها تماماً . وقد أخذت الحيرة والعجب صاحبى اللذين بدآ يلحظان خسائرهما كل يوم ، ورغم انه لم يخطر ببالهما حتى تلك اللحظة أن يشكا فى أمرى فقد عزم كل منهما فى خاصة نفسه على معرفة اللص. ومن يومها شرعا يرقبان الأطباق مراقبة يقظة ويحصيان كل كعكة وشرحة لحم وكل منهما ينظر إلى الآخر شزراً كما لو أنه المختلس .

أخيراً تكلم الطاهى بصراحة فى صلب الموضوع : «حقيقة ، يا أخى ، هذا ما اسميه السلوك الخسيس للغاية ، إنك منذ زمن تسرق بقايا الطعام كل يوم ، بل أفضل ما فيه ، وتبيعها من وراء ظهرى ، ثم تنتظر منى أن أناصفك ما بقى ، إذا كنت مللت شركة عملنا فلنفصلها على الرحب والسعة ، على شرط أن نعيش معاً بمودة فى أخوّتنا ، وإلا فإن الشقة ستتسع ما بيننا كل يوم وتنتهى بخصام شديد» .

ردَّ الحلوانى على الإهانة قائلاً : «يعجبنى هذا ، وحق الآلهة يعجبنى هذا ! ها أنت أولاً تسرق الطعام ثم تسبقنى بالشكوى التى كبحتها بصبر طيلة هذا الزمن – لقد قررت الصبر عليها ما استطعت على أن أرمي أخي باللصوصية – ولك من الوقاحة أن تتهمنى أنا ! يسرنى على كل حال ، انه يظهر هذا الأمر ، فيمكننا تسويته بطريقة ما فى النهاية ، بدلاً من إخفاء مشاعرنا حتى تلتهب وتهلكنا ... أتذكر تلك المسرحية التى شاهدناها عن الأخوين إتيوكليس وبولينيكس اللذين قتل أحدهما الآخر من أجل نصيب عادل من المشاركة فى حكومة طيبة ؟».

ولم ينته تبادل الاتهامات إلا حين أقسم كل منهما يميناً غليظة انه لم يقترف أدنى خيانة أو أخذ أكثر من نصيبه من الطعام ، واتفقا على تكوين جبهة موحدة وأن يتخذا كل وسيلة ممكنة لاكتشاف من كان يسرقهم ، وقال

أحدهما : «من المستبعد تماماً بالطبع أن يكون هذا الجحش هو الجانى ، فالحمير لا تحب طعامنا !» .

«ومع هذا يختفى الطعام ليلة بعد ليلة ، وليس غير الجحش فى الدار !»

«لا يمكن أن يكون الذباب» .

«يجب إذن أن يكون ذباباً عملاقاً بأجنحة مبسوطة عريضة كأجنحة طيور العنقاء - تلك المخلوقات التى كانت تسرق الملك فينيوس عشاءه أيام بحارة الآرغو !» .

هذا التبدل المقبول فى قوتى من العلف إلى الطعام الإنسانى ، وهو طعام كثير ، كان له أثر فى تسمينى وتنعيم جلدى القاتم االمسفوع وكسائى وبراً حريرياً بديعاً ، وهذا ما وشى بى ، إذ أدرك صاحباى أن سمنتى تضاعفت عما كنت عليه يوم اشتريانى ، رغم تركى طعامى اليومى من العشب المجفف دون أن يمس ففكرا : «يكون الشاطر كما يفعل الشاطر !» وذات يوم تظاهرا بالذهاب إلى الحمام كالعادة وأوصدا الباب من خلفهما ، وظلا يبصّان خلال شق فيه وشاهدانى أعمل بهمة فى الأطايب التى تركاها .

نسيا كل شئ عن خسائرهما ، وانجرا ضاحكين ضحكة عالية من هذا المنظر العجيب - منظر الجحش ذواقة الطعام ! ناديا عدداً من العبيد الآخرين ليتبادلوا النظر من الشق وينظروا إليّ فى حفلتى . هل رأى أحد شيئاً مثل هذا فى حياته من قبل ؟! كان ضحكهم عالياً وقد طال حتى اتفق أن مر بهم سيدهم ثياسوس فرام أن يعرف ما الذى يضحكهم ، فسألوه أن ينظر من خلال الشق ليرى بنفسه .

ضحك حتى أوجعته بطنه ، ثم فتح الباب وظل يراقبنى عن كثب فلما أدركت أن حظى لم يظل فحسب بل تحسن مضيت آكل على راحتى، وكلما علا ضحكه زاد تملكى لنفسى . وفى النهاية سحرته غرابة المشهد

فأمر بأن اقتاد إلى غرفة العشاء - كلا بل قادنى هو نفسه إليها حين أذكر وكانت المائدة قد أعدت فأمر بكل صنف من الطعام أن يوضع أمامى ، بما فيها الأطباق التى لم أمسسها بعد . ورغم شعورى بالامتلاء تماماً فقد كنت متلهفاً على ارضائه ما استطعت وأكلت كل ما أعطانى كما لو أننى لا أزال مفتوح الشهية .

أحاط الفضول بثياسوس وصحابه أن يعرفوا بالضبط ما يمكن أن آكله . ففكروا فى كل شئ تكرهه فى الغالب الحمير وقدموه لي اختباراً لأدبى مثلاً لحم مطيب بالسلفيوم ، ودجاج متبّل وصنف من السمك المملح المجلوب من الخارج . وما أعلى ما اهتزت أخشاب السقف بالضحك وأنا أنظف كل طبق !

فى الختام سأل مهرج الحفلة : «والآن .. ماذا عن قليل من النبيذ لضيفنا.. هه؟!» فقال ثياسوس : «ليست فكرة سيئة على الاطلاق ، أيها الخبيث ! يمكننى القول بأنه لن يرفض قدحاً من النبيذ العسلى - هيا يا غلام ، أغسل ذلك القدح الذهبى غسلاً جيداً ، وقدمه لضيفى ! وقل له إننى أيضاً أشرب نخب صحته الطيبة !» .

ترقب الجميع النتيجة بتطلع متوتر ، وقدم لى القدح الضخم ، ودن أن أتوقف لأرى أمن الحكمة شربه زممت فمى كأننى أتلمظ انتظاراً وتجرعت القدح دفعةً واحدة وإن كان بطريقة شرب رقيقة لسكير خبير !

عاصفة من التصفيق ، وارتفعت الأنخاب فى صحتى . وأرسل مضيفى المغتبط فى طلب الأخوين وتعهد بأربعة أضعاف الثمن الذى دفعاه من أجلى . بعدها أودعنى عند أحد عتقائه الطيبين كان متعلقاً به أشد التعلق وطلب منه أن يعاملنى بأكبر الاهتمام . وقد أظهر العتيق رقةً وإنسانية نحوى وبذل كل ما وسعه ليثبت حسن ظن ثياسوس به بتعليمى بعض الألعاب .

فعلمنى فى البداية كيف أتكئ على المائدة معتمداً على أحد مرفقى . ثم كيف أصارع ، بل حتى كيف أرقص على قدمى الخلفيتين . وأخيراً - وهذا ما أكسبنى إعجاباً خاصاً - كيف استخدم لغة الإشارات فتعلمت أن أطرق برأسى علامة الموافقة واهزه إلي الوراء علامة الرفض . وكذلك كيف انقلب إلى الساقى حين أكون ظمئاً وأبين عن حاجتى للشراب بأن أغمز بعين أتبعها بالأخرى . كنت تلميذاً ذكياً نجيباً ولا غرابة فى هذا فى الواقع ، إذ كان يمكننى القيام بهذه الألعاب كلها دون تدريب على الإطلاق ، لكننى خشيت أن أسلك سلوكاً إنسانياً دون توجيه سابق ، إذ سيعتبر أغلب الناس هذا نذير سوء ، وقد أجد نفسى مصلوباً باعتبارى شيطاناً ، وقد يقطعون رأسى ويلقون بجيفتى السمينة إلي الطيور الجارحة .

انتشرت قصة مواهبى الفذة فى كل صوب ، وصار صاحبى لهذا ذائع الصيت بسببى . وكان الناس يقولون : «فكر فى هذا ! إن عنده جحشاً يعامله معاملة الصديق ويدعوه إلي المائدة معه ، صدق أو لا تصدق إن ذلك الجحش يستطيع المصارعة ، بل إن يرقص بالفعل ، ويفهم ما يقوله الناس له، ويستخدم لغة الإشارات !»

هنا يجب عليّ أن أنبئكم ، رغم تأخر الوقت ، من كان ثياسوس أصله من كورنثه عاصمة أكايا ، ولما كانت رتبته رفعته بنجاح إلى جميع المناصب الصغرى التى خولته إياها مكانته ومقامه ، فقد صار الآن قاضى كورنثة للسنوات الخمس القادمة . ولما كان العرف يتطلب منه أن يحيا حياة ترقى إلى مستوى شرف منصبه يقدم عرض تسلية للجمهور ، فقد أخذ على عاتقه أن يقدم عرض مصارعة يدوم ثلاثة أيام دليلاً على سخائه . وهذا ما أدى إلى وجوده فى شمال البلاد ، إذ كان يحاول إرضاء مواطنيه بشراء أشد الحيوانات ضراوة واستئجار أشهر المصارعين من ثساليا بأجمعها . أما وقد حصل الآن على حاجته كلها فقد أصبح على وشك العودة إلي كورنثة

راضياً بما اشتراه . غير أنه بدلاً من أن يركب إحدى عرباته الفاخرة – ما كان منها مغطى وما كان بغير غطاء تأتى فى مؤخرة رتل حشمه الطويل ، أو يعلو صهوة أحد خيول الصيد الشالية الثمينة أو الصافنات الغالّية الجياد ، فضل أن يمتطى ظهرى بحب قائلاً إنه صار يحتقر كل أشكال النقل الآخرى. وقد صرت الآن استمتع بعدّة مذهبة ، من سرج جلدى أحمر ، ووقاء ظهر أرجوانى ، وشكيمة من الفضة وأجراس صغيرة كانت تصلصل فى أثناء سيرى . وكان يكلمنى بألطف أسلوب ينبئنى مثلاً عن مدى حبوره أن يملك جواداً يمكنه أن يعده صديقاً له . فلما بلغنا مرفأ يولكوس صعدنا السفينة بمعرض وحوشنا وأكملنا رحلتنا بطريق البحر ، مبحرين على ساحل بويتيا وأتيكا حتى وصلنا كورنثة حيث تدفق حشد هائل لتحيتنا ، وظنى أن أكثر الناس كانوا هناك ليرونى أكثر ممن كانوا للترحيب بثياسوس .

كان كثير من الزوار يبغى مشاهدة ما أقوم به حتى أن مدربى قرر كسب بعض المال عن سبيلى . فأقفل أبواب الاسطبل وصار يتقاضى ثمناً عالياً لدخول شخص واحد فى كل مرة . وكان ما يكسبه كل يوم مبلغاً كبيراً . وكان من بين الزوار امرأة سرية غنيّة ، فتنتها ألعابى المتنوعة ، وقررت فى النهاية أن تتعرف عليّ عن كثب ......

فلما مضى مدربى إلى ثياسوس بتفصيل الخبر كافأه بقدر كبير من المال ، وصاح : «رائع ! رائع ! هذا ما نحتاج إليه بالضبط ليكون عرضنا حيّاً ، لكن يا للأسف ! إن حبيبته امرأة سرية ولن يسمح لها أهلها أبداً» .

أخفقت الإعلانات التى وزعت فى مواخير كورنثة فى أن تجد متطوعة تحل محلها ، فمن الجلى انه ما من امرأة كانت منبوذة إلى حد أن تبيع ما تبقى من سمعتها ولو بالمبلغ السخى المعروض . وأخيراً لم يكن على ثياسوس أن يدفع شيئاً ، فقد حصل على امرأة حكم عليها بأن تطرح للوحوش ، ففكر أن يجعل منها خدينةً ليّ ، وكان علينا أن نحبس معاً فى

قفص واحد وسط ساحة المسرح الحاشد .

كنت سمعت قصة هذه المرأة من قبل ، فمنذ سنوات قبل ذلك اليوم خرج والد الصبى الذى صار زوجها فى ما بعد فى سفر طويل ، وأمر زوجته ، التى كانت تنتظر طفلاً آخر، أن تئده إذا ما جاء بنتاً . وولدت بنتاً ولم يطاوعها قلبها على تنفيذ الأمر فسألت جارة لها أن تربى الطفلة نيابةً عنها ، وحين عاد زوجها أنبأته بأن الطفلة ماتت . فلما شبت الطفلة وبلغت سن الزواج لم يكن فى قدرة الأم أن تقدم لها مهراً يخوله إياها مولدها أو أن تزوجها دن علم أبيها . فقررت أن تطلع ابنها على السر. وكان لها سبب آخر يدفعها لهذا العمل ، إذ لم تكن الفتاة تعرف ابنة مَن فى الحق كانت - ثم ما العمل لو أن سوء الحظ أوقع أخاها فى حبها وحاول إغوائها؟

أحسّ الأخ ذو الخلق الطيب بضرورة إطاعة أمه وسلك مسلك الأخ الحنون . صان سر العائلة وبدا كل ما فعله لأخته مجرد عمل من أعمال البرّ. آواها فى بيته وجعل الناس يحسبون أنها يتيمة بدون راعٍ شرعى لها يرعاها ، عزم على تزويجها من أفضل أصدقائه ، وأخذ على عاتقه أن يقدم هو مهرها .

أثار هذا الترتيب البرئ المعجب إلهة الحظ لتكيد كيداً أكبر مما ألفت. كان الأخ متزوجاً من المرأة التى أحكى قصتها ، وقد قادتها غيرتها المرة من اليتيمة المفترضة فى النهاية إلى ارتكاب سلسلة من الجرائم حكم عليها من أجلها بأن تطرح للوحوش . ارتابت فى أن زوجها اتخذ الفتاة خليلة له وأنه ينوى أن يتخذها زوجاً ، فلما صارت الريبة مقتاً دبرت خطة قاسية للغاية للتخلص من غريمتها .

سرقت خاتم زوجها وذهبت لتزور بيتهما الريفى ، ومن هناك أرسلت عبداً يقول للفتاة إن الزوج يريدها أن تزوره بأسرع ما يمكن دونما رفيق ،

وأرى العبد الموالى سيدته ، البالغ اللؤم ، الفتاة الخاتم برهاناً على أن الرسالة عاجلة وصحيحة .

كانت الفتاة تتلهف على إطاعة أخيها - إذ كانت عرفت وحدها دون غيرها انه أخوها - وكان للخاتم الأثر المطلوب ، أسرعت بمفردها إلى البيت الريفى حيث وقعت فى الفخ المنصوب لها ، هُجِمَ عليها بغيظ رهيب ، وجُرِّت من ثيابها وضُرِبت حتى كاد يقضى عليها ، وقد أجبرها الألم أن تبوح بالسر، فصاحت من بين عبراتها : «إنه أخى! إنه أخى !» بيد أن كلماتها ذهبت هباءً ، إذ لم تلق السّلفة بالاً إليها ورفضت قولها باعتباره محض اختلاق ، ثم أخذت شعلة ملتهبة دفعتها فى بطنها فماتت الفتاة عذاباً.

سمع الأخ وصديقه الذى كانت ستتزوجه الفتاة بخبر موتها المفجع وجاءا بجثمانها إلى البيت ليدفناها ، وكل منهما يندبها . وكان الخبر أقسى وقعاً على الأخ ، إذ كانت زوجته آخر من يودّ فى الدنيا أن يكون القاتل ، أخذ إلي فراشه وذهنه يديره الغمّ حتى أصابته حمّى المخ وارتفعت حرارته ارتفاعاً أيأس الجميع من شفائه إلا بعون عقار قوى المفعول للغاية .

بعد هذا مضت زوجته التى أسقطت حقها فى أن تسمى كذلك ، إلى طبيب عرف عنه فقدانه مبادئ المهنة فقداناً كبيراً - وكان قتل جملة من المرضى بناءً على طلب أقاربهم وهو يتباهى بهذا النجاح فى جلساته الخاصة - وعرضت عليه ستمائة قطعة ذهبية نظير سم زعاف ، فلما وافق عادت إلى زوجها وقالت له إنّ عليه شراب دواء يعرف عن النطاسين المشهورين باسم (الجرعة المقدسة) له أثر إزالة آلام المعدة وإفرازاتها ، والحق طبعاً أن الجرعة الممزوجة له لم تكن مقدسة بالنسبة لأبوللو ، إله الشفاء ، بل لبروسربين ، ربة الموت .

كان أعضاء الأسرة كلها حاضرين ، وكذلك عدة أصدقاء وأقارب ،

عندما دخل الطبيب بالجرعة ، حركها جيداً فى قدحها وقدمها للمريض . لكن القاتلة عقدت العزم بجسارة على أن تتخلص من شريكها في هذه الجريمة الجديدة وتوفر على نفسها دفع المال فى الوقت ذاته . فلما أشرف المريض على أخذ القدح منعته قائلة : «أيها الطبيب ! أشعر من واجبى باعتبارى زوجة آن آصر على تذوقك هذا الدواء آنت نفسك قبل اعطائه لزوجى العزيز ، أريد الاستيثاق من انه لا يحوى سماً ، وإنى لواثقة من أن رجلاً متعلماً وحريصاً مثلك لن يحرج بطلبى ، إنه مجرد طلب صورى» .

أُخذ الطبيب بثقة هذه المرأة ذات العقلية الدموية فى نفسها حتى انه لم يستطع التفكير تلك الآونة ، فى عذر يرفض به طلبها . لو انه أبدى أقل خوف أو تردد لشك كل الحاضرين فى انه دس السم فى القدح ، فأجبر على أن يرشف منه رشفة كبيرة ، واحتذى الزوج حذوه واثقاً وشرب ما تبقى .

كان هذا كل ما هناك إبانها ، وقد أراد الطبيب الإسراع إلى بيته حتى لا يفوت وقت أخذ ترياق يبطل أثر السم الذى شرب . بيد انها كانت ماضية فى إتمام عملها الجهنمى ولم تدعه يغيب عن ناظريها . قالت له : «يجب أن تمكث هنا حتى تبدأ الجرعة عملها ويمكننا الحكم على أثرها فى صحة زوجى» رجا أن يؤذن له بالخروج واعترض على حبسه دون ترخيص ، فلما أذنت له بالذهاب كان السم يمزق أمعاءه . استطاع أن يبلغ بيته بعد عناء من ألم مبرح ولم يكن له سوى ساعة قبل أن يموت ليخبر زوجته بما حدث ويطلب منها أن تأخذ على الأقل المبلغ المشروط نظير السم ، وكانت هذه نهاية هذا الطبيب المشهور .

أسلم مريضه الروح بعدئذ بقليل ، وبكت القاتلة طويلاً بخداع على جثمانه . بعد أيام ، وقد انتهت شعائر الجنازة عند قبره ، جاءت أرملة الطبيب وطلبت مبلغها مشيرة إلى أن جرعتى قتل تمتا بثمن جريمة واحدة. وظلت القاتلة وفيّة لطبيعتها ، فأجابتها بأكثر الكلمات مودة وإظهار لحسن

النية مقنع بأنها ستدفع لها المال بالطبع - لو حصلت على قليل من نفس المزيج لتكمل العمل الذى بدأته .

خدعت أرملة الطبيب وأعلنت أنه يسرها إرضاءها ، وحاولت مدركة أن القاتلة امرأة غنية ، أن تحصل منها على شئ بأن أسرعت إلى بيتها فى الحال وجاءت بصندوق السموم كلها تلك التى كانت لزوجها الطبيب المرحوم . وبسلاح الجريمة الكامل هذا فى يدها كانت على أهبة المضى فى القتل على نطاق واسع . كان لديها ابنة صغيرة من زوجها الذى قتلته لتوها، وساءها أن الطفلة ، باعتبارها أقرب الأقرباء إلى أبيها ، سترث ثروته كلها ،

كانت تريد لنفسها عن آخرها ، وكانت طلبت المشورة القانونية فاكتشفت أن للأمهات ، مهما كانت صفاتهن الخلقية ، أن يدركن دائماً رجعة ما أورث أطفالهن . وهى فى الواقع أبانت عن نفسها أمّاً سيئة كما كانت زوجة سيئة . فلما دعت أرملة الطبيب إلى الإفطار ودست السم فى طعامها فعلت الشئ نفسه لابنتها الصغيرة . اختنقت الطفلة ثم ماتت فى الحال تقريباً ، أما أرملة الطبيب فقد أدركت ما حدث حين أحست بالسم الزعاف يعمل فى أحشائها وبدأت تتنفس بصعوبة ، فاندفعت إلى بيت الحاكم وهى تصرخ فى طلب العدالة قائلة انها على علم بجرائم بشعة لتكشف عنها . أيدها حشد كبير وأذن لها الحاكم بمقابلته فى الحال ، وأخبرته القصة برمتها من البداية حتى النهاية ، ثم لف رأسها الدوار وانقفل فمها متشنجاً ، وصكت أسنانها الأرض ووقعت جثة هامدة عند قدميه .

كان الحاكم قادراً مجرباً وقرر ألا يبطئ فى تقديم هذه المرأة الكريهة المتهمة بقتل خمسة أشخاص إلى قصاص عاجل . أرسل يستحضر جواريها من فوره ، وعذبهن حتى بُحْنَ بالحقيقة ، وحكم عليها بالموت على أساس إقرارهن . ولا ريب انها تستحق مصيراً أفظع من مجرد طرحها للسباع ، لكن هذا كان أنسب حكم خطر على بال الحاكم آنذاك ♦

الفصل السابع عشر

الربّة إيزيس تتدخل

هذه هى المرأة التى قضى بأن أعاشرها علناً ، وهو فعل يكاد يرقي إلى مرتبة الزواج الشرعى ، فكنت أترقب يوم العرض يلفّنى الغمّ الشديد ، تراودنى فكرة الانتحار لكيلا أدنس نفسي ويلحق بى العار الأبدى بمضاجعة هذه المخلوقة الخبيثة أمام أنظار مدرّج المسرح بأجمعه .

واأسفاه ! لم يكن لى أصابع ولا راحة يد ، فكيف لى بأن أستل سيفاً بقرمة حافرى المستديرة ؟ لم يبق لى سوى أمل ضئيل واحد يعزينى فى محنتى وهو أن العام الجديد جاء أخيراً وستنبت الأزهار على طول الأرض وعرضها تنشر بهاء ألوانها الساطع عبر المراعى ، وتنبثق براعم الورد السجينة فى الجنائن من سيقانها ذات الأشواك وتتفتح ويضوع أريجها الفوّاح . مرة واحدة أذوق فيها أوراق الورد وأعود لوكيوس من جديد .

جاء اليوم الموعود أخيراً وحملت إلى المسرح وسط الجموع المبتهجة فى بداية حفل طويل . وفى أثناء القسم الأول من العرض الذى خصص للرقص التمثيلى الصامت وضعت عند مدخل المدرج حيث أسعدنى أن أرعى شيئاً من العشب الطرى وجدته نامياً هناك ، وأنا أرفع رأسى بفضول بين الفينة والفينة لأشهد العرض من خلال البوابة المشرعة .

استهل الحفل بعدد من الصبيان والصبايا الملاح فى ثياب فاخرة يخطون باعتزاز فى تيه من الرقص الإغريقى الپوري البديع . تندمج أحياناً مجموعات مختلفة من الراقصين فى الحلقة ثم تخرج منها ، وأحياناً تشتبك

أيديهم جميعاً ويرقصون جنباً إلى جنب عبر المسرح ، ثم ينقسمون إلى أربع مجموعـات تنغلق لتكوّن نهاياتها المتكسرة مربّعـات من الراقصين ، وأحياناً أخرى يـنفصل الجنسـان بغتـةً ، ويفتـرق الصبـيان والصـبايا عن بعـضهـما البعض، ثم نفخ فى البوق إذاناً بالانسحاب وعـلامة انتهاء حركات الرقص المعقدة هذه . ورفعت الستائر الخلفية لتكشف عن عرض آكثر اتقاناً.

كان المنظر عبارة عن نموذج جبل من الخشب ، قـصد به جبل إيدا الشهير الذى ذكره هوميروس ، قطعة جليلة من معمار المسرح ، شاهق العلوّ ، تعمّه الخضرة وتملأه عشرات الأشجار وقد دبر مـصمم المنظر حيلة ليتفجر جدول من قمة الجـبل ويسيل على جانبه ، وكـان قطيع من الماعز يرعى الكلأ وراعٍ شاب يتمـشى حولها ، مرتدياً ثياباً آسيوية فضفـاضة . وعلى رأسه تاج من الذهـب . كـان يمثل باريس الراعى الفـروجى . ثم تقـدم غلام مليح عـارٍ لا تكسـوه سوى عبـاءة فاخـرة على كـتفـه ، ومن بين خـصل شعـره الطويل الأصفر يمـكن للمرء أن يرى جناحين ذهبيين صغـيرين ، وقد أظهر قـضيب الأفعى وصولجـان البشير اللذين حـملهما ، انه الإله ميـركورى . تقدم وهو يرقص إلى باريس ثم قـدم له تفاحة ذهبـية ، وأفـصح له عن رسالة جـوبتر بلغة الإشارات ، ثم رجع بمهـابة . بعدها ظهرت الشخصيـة التالية ، وكانت يونو ، تلعب دورها صـبية بديعـة الحسن ، على رأسهـا إكليل أبيض ، وفى يدها سيف ، ثم دخـلت منيرا تعـدو . يمكن التعرف علـيها بيـسر عن طريق خوذتها الساطعة بوشاحها من أوراق الزيـتون كما لو انها على أهبة القتال . تبعتـها صبية أخـرى ذات حسن باهر وبشرة إلهيـة فلا يمكن أن تكون سوى فينوس - قـبل زواجها ،ولكى تـبرز جمال جـسدها إلى أبعـد مدى لم ترتدِ شـيئـاً على الإطلاق عـدا ميـدعـة رقيـقـة من الشَّفِّ كانت هـبات النسـيم الفضولية تطيـرها جانباً لتتيح نظرة غرام مختلسـة .... وكان جسدها أبيض بياضاً يبـهر العين لترى أنها هبطت من السمـاء ، وكانت ميدعتهـا الشفوف

زرقاء لتبين انها ستعود بعد قليل إلى مقرها فى البحر .

كان يرافق كل صبية من الصبايا اللاتى أدين أدوار الربات أتباعها . كان ليونو ممثلان يشخصان كـاستور وبللوكس ، وقد حزرت من هما عن طريق خوذتيهما بشكل نصـفى البيضة التى ولدا فيها لأمهمـا ليدا وقد رسم عليها النجوم المدببـة - برج الجوزاء . تقدمت يونو نحـو پاريس بهدوء تصاحبـها موسـيقى لطيفـة تنبعث من مـزمار بنغم أيونى . وكانـت إيماءاتها القصـيرة الواثقة تأكـيداً لپاريس انهـا سوف تجعله امـبراطوراً على آسيـا بأجمعـها لو حكم بأنها أجمل الثلاث .

وكان تابعا منيرڤا شابين يمثلان الرعب والخوف ، يرقصان بتهكم أمامها بسفين مسلولين ، وورائهما زمّـار يعزف لحن الحرب بنغم دورى ، وقابلت الدقات العنيفـة تلك الصرخات الحارة التى هيّـجت الراقصين إلى حالة من الوجد كأنهـا نداء النفير إلى المعركـة . وقد شاركت منيرڤـا ذاتها فى الرقص وهى تهز رأسـها يمنةً ويسـرة وعيناها تلمعـان كأنهمـا خنجران والتـواءاتها السريعة المسـتثارة تعد پاريس أنها سـتعينه ، لو أصدر حكمه فى صـالحها ، على أن يصبح أشجع محارب شهدته الدنيا وأكثره توفيقاً .

ثم جاءت ڤـينوس ، حلوة البـسمات ، فـحياهـا الجمهـور بعاصـفة من الترحـيب . تقدمـت إلى وسط المسرح ، ومـعها مـدرسة كـاملة من الأولاد الصغار الباسمين ، محتشدين حولها ، تحسبهم لأجسامهم البضّة وبشراتهم البيضاء ، كيوبيدات حقيقية هبطت من السماء أو خرجت من البحر . وكان لكل منهم جناحـان صغـيران وجعـبة سـهام (وهذه لمسـة لطيفة) يحـملون مشـاعل مضـاءة كمـا لو انهم يرافقـون مولاتهم إلى صبـحيّـة زفافـها . ثم دخلت مـجمـوعة كـبـيرة من الصـبايا الفـاتنات ، أحلى الحـسان وأجـمل حوريات الفـصول ، ينثرن على طريق ڤينوس باقات الزهر استرضـاءً لها ، باعتبارها مليكة الملذات كلها ، بقطوف زهر الربيع .

وفى الحال انطلقت المزامير بالأنغام الليدية العاطفية ، وقد فتن الجمهور حين شرعت اينوس ترقص على الموسيقى بخطوات بطيئة متهادية وهزات خفيفة من ردفيها ورأسها ، وحركات لا تكاد تدرك من ذراعيها ، لتناغم ألحان عازف المزمار الرقيقة . وكانت ترف أهدابها بشكل شهواني ، أو تفتح عينيها على سعتها لتنبعث منها نظرات هوىً ، حتى بدت أحياناً وكأنها ترقص بعينيها وحدهما ! وما أن جاءت أمام القاضى حتى وعدت بإيماءات ثابتة أنها لو فضلت على منافستيها لزوّجته بأجمل امرأة فى الدنيا - صورتها الإنسانية ، فأسلمها پاريس الشاب التفاحة الذهبية علامة فوزها .

حسن .. أنتم يا أدنى الأدنياء ! نعم .. أنا أشير إلى مهنة القانون كلها جميعكم يا كتبة القانون أشباه الأنعام ، ويا أيها المحامون أشباه الجوارح - أمندهشون أنتم حقاً من فساد القضاة المحدثين ، ولديكم الدليل هنا على انه من أقدم عصور الإنسانية ، فى هذه المحكمة التى تعقد لأول مرة ، نرى ذلك الراعى البسيط ، الذى عينه جوبتر ذاته ليحكم فى قضية كانت ترجّ السماء والأرض ، يستسلم لرشوة جنسية مفضوحة ، مما أدى إلى هلاك أسرته عن آخرها ، ويبيع حكمه فى المحكمة المفتوحة ؟ كلا .. أيها السادة ! وأنتم تذكرون سابقة بعدها حين حكم أغاممنون ، قائد عام الجيوش اليونانية الأشهر ضد طروادة ، حكم على بالاميديس العالم الحكيم بالموت ، على أساس أنه خائن ، وهو يعلم تمام العلم أن التهم الموجهة إليه باطلة ، وتذكرون أيضاً قضاءه فى النزاع بين أوديسوس وأجاكس فى أى منهما كان الأشجع قلباً . كان يعلم انه لا يمكن الاعتماد دائماً على شجاعة أوديسوس وأن أجاكس يفضله كثيراً ، ومع هذا قضى لمصلحة أوديسوس ، أما عن أولئك واضعى القانون الذائعى الصيت ، أولئك المثقفين اللامعين ، أولئك العلماء المشهورين ، أهل آثينا فى الزمن القديم ، فما هو الحكم الذى أصدروه فى قضية سقراط ذاك الذى أشاد بحكمته هيكل دلفى فوق حكمة

البشر أجمعين ؟ ألست محقاً فى قولى أنه بغدر وغيرة عصبة خبيثة ذُنِّب بإفساد الشباب - والحقيقة أن فلسفته كانت موجهة نحو كبح جماح عواطف الشباب وليس إثارتها - وحكم عليه بالموت بأن يشرب قدح الشوكران المسموم ؟ لقد ترك هذا لطخة لا يزول أثرها على سمعة العدالة الأثينية ، إذ حتى يومنا هذا يرى الفلاسفة ، أولئك المتطلعون إلى صورة من صور السعادة الإنسانية ، مذهبه أصدق المذاهب الدينية ويقسمون باسمه.

اغفروا لى هذا الاستطراد ! أسمع قرائى يعترضون : «هيه .. ما هذا كله؟ هل سندع جحشاً يحاضرنا فى الفلسفة ؟» نعم .. لعل الأفضل أن أرجع إلى قصتى !

وكما كنت أقول ، أصدر باريس حكمه . انسحبت بعدها يونو ومنيرا من المشهد ، يغمر يونو الأسى ويهز منيرا الغضب ، وكل منهما تعبر فى عرض صامت عن شعورها بالمهانة لعدم فوزها بالجائزة . أما ينوس فقد رقصت جذلاً هى وأتباعها . ثم تفجرت نافورة من الخمر ممزوجة بالزعفران من أنبوب مخفى على قمة الجبل ورشت رخاتها العنزات الراعية الكلأ بشؤبوب معطّر فتحول شعرها الأبيض إلى اللون الأصفر الفاقع عرفت به فى العادة قطعان الماعز على جبل إيدا ، وعبق مدرج المسرح كله بالعطر . بعيدها حركت آلات المسرح وانشقت الأرض ليختفى الجبل عن الأنظار .

بعد هذا جرى أحد الجنود على طول ممشى المسرح الرئيسى ، حتى خرج منه ، ليأتى بالقاتلة التى رغم الحكم عليها (كما أوضحت من قبل) بأن تلتهما السباع ، قضى أولاً بأن تكون عروسى المجيدة . كان فراشنا الذى رُكِّبت عليه دَرَقَة سلحفاة هندية ، فى موضعه وقد مدت من فوقه حشية فاخرة من الريش وغطاء سرير صينى مطرز . لم أكن مفزعاً من الدور المهين الذى كان على القيام به فحسب ، بل مرتعباً من الموت . خطر لى أنه إذا ما أقفل علينا القفص وجاء الوحش ، ودوره فى المسرحية أن يأكلها ،

واثباً يدخل قفص زواجنا ، فلا يمكن الاعتماد على حكمته الطبيعية أو تدريبه تدريباً جيداً أو عفته البالغة ، فيمزقها إرباً إذا ما التصقت بى تاركاً إياى دون أن يمسنى بأذى !

وبينما كان ثياسوس منشغلاً داخل القفص يضع اللمسات الأخيرة على السرير ، وبقية حشم بيته يظهرون إعجابهم بفخامة المنظر أو يهيئون لعرض الصيد الذى كان سيلى استراحتنا ، فكرت فى الفرار . وكان لى من سمعة الوداعة واللطف ما صرف أنظار الجميع عن مراقبتى فلم تكن ثَّم عين تلاحقنى . فدنوت من بوابة المسرح الخارجية ، وكانت قريبة غاية القرب ، ووليت الأدبار بأقصى سرعة وقطعت ستة أميال فى شوط واحد حتى وجدتنى فى سنكرياي ، أشهر مقاطعات كورنثة ، تلك التى يغسلها بحر إيجة من جانب وتغسلها مياه خليج كورنثة من الجانب الآخر .

لسنكرياي مرفأ أمين مكتظ دائماً بالزائرين ، لكننى كنت أبغى الابتعاد عن الناس ، فمضيت إلى شاطئ مهجور ومددت جسدى المنهك فى غور من الرمل قريب من حيث تكسرت الأمواج . كان الوقت مساءً وعربة الشمس على وشك إنهاء رحلة يومها عبر السماء ، فأسلمت أنا أيضاً نفسى إلى الراحة ، وغلبنى فى الحال سبات حلو عميق .

***

لم يمض وقت طويل حتى صحوت فى ذعر مباغت . كان القمر بدراً باهر الضوء يرتفع من البحر ، ففى ساعة السر هذه تمتلك ربة القمر ، مليكة بني الإنسان الوحيدة ، أكبر سلطانها وجلالها ، إنها الربة المشعة التى لا ينتعش بأثرها المقدس الحيوانات وحشيُّها وداجنها فحسب بل كذلك الجمادات .

تلك الربة التى يسيطر مدُّها وجزرها على إيقاع كل جسم مهما كان ، فى الجو والبر وأعماق البحار . كنت مدركاً هذا تمام الإدراك ، فعقدت

العزم على مخاطبة صورة الربة المرئية طالباً عونها ، فقد بدا أن ربة الحظ قررت أخيراً أننى عانيت ما فيه الكفاية وأن تعرض عليّ أملاً فى الخلاص .

وثبت أهز رأسى أطرد النعاس ، وقصدت البحر لأتطهر بمائه ، غطّست رأسى تحت الأمواج سبع مرات - الرقم سبعة ، طبقاً لتعاليم الفيلسوف فيثاغوراس ، رقم يوافق كل المناسبات الدينية - وبشوق جذل تلوت هذه الصلاة الصامتة إلى الربة العلة والدموع تسحّ على وجهى المشعر :

«يا مليكة السماء المباركة ! ما إذا كنت تفضلين أن تعرفى باسم سيريس أم الحصاد الأصلية التى حرمت ، فرحة بعثورك على ابنتك المفقودة بروسربين ، أن يتخذ أجدادنا ثمر شجرة البلوط قوتاً لهم وأعطتهم الخبز المأخوذ من تربة إليوس الخصيبة - أو باسم ينوس السماوية التى تعبد الآن فى يافوس التى يكتنفها البحر ، من قرنت فى زمن الخلق الأول بين الجنسين بحب متبادل وأوجدت بهذا وسيلة يواصل بها الإنسان توالد نوعه إلى الأبد - أو باسم أرتميس أخت فويبوس أبوللو الطبيبة ، ميسرة آلام المخاض عن النساء ، والتى تعبد فى حرم إفسوس العتيق - أو باسم بروسربين المرعبة من يزعق لها البوم فى الليل ، وبوجهها المثلوث الفعّال ضد حقد الأرواح الشريرة تبقيها سجينة تحت الأرض . أنت يا من تجوسين خلال كثير من الغياض المقدسة ويتقرب إليك بطقوس كثيرة مختلفة . أنت يا من يضئ نورها النسوى جدران كل مدينة ، وينمّى شعاعها الضبابى البذور السعيدة فى التربة ، أنت يا من تتحكمين فى مدار الشمس وقوة أشعتها ذاتها - أدعوك بأى اسم من الأسماء وأى مظهر من المظاهر وأى شعيرة من الشعائر ، تُفضلين أن تُذكرى بها ، ارحمينى من كربتى الشديدة ، أرجعى حظى المبعثر ، امنحينى الطمأنينة والسكينة ، بعد طويل هذه الآلام المتوالية ، أنهى عنائى وعذابى ، خلصينى من هذا الاستخفاء الكريه فى ثوب ذوات الأربع ، أعيدينى إلى أهلى ، إجعلينى لوكيوس مرة أخرى ، وإن كنت

أسـأت لبعض القسـاة قـسوة لا يمكن التـخفـيف منهـا ، عزم على تنغـيص حياتى، فامنحينى على الأقل هبة مؤكدة ، امنحينى الموت !» .

فلما أتممت صلاتى وأخرجت مرارة قـلبى المقهور عدت إلى غور الرمل حيث غلبنى النوم ثـانية ، لـم أكد أغمض عـينى حتى شرع طيف امـرأة يبرز من وسط البحـر بوجه بالغ البـهاء حتى لتـخرُّ الأرباب ذاتها على وجـوهها تتعـبَّده . ظهر الرأس أولاً ثم تبـعته بقـية الجسد الـساطع كله شيئـاً فشيـئاً ، ووقف أمامى متوازناً على سطح الأمواج نعم .. سأحاول وصف هذه الرؤيا المتعاليـة ، رغم فقر الكلام البشـرى ومحدوديته . ولعل الربة ذاتهـا تلهمنى خيالاً شعرياً ، يكفى لنقل بعض من إشارة صغيرة عما رأيت .

كان شعرها الكث ينحدر جدائل مستـدقة الأطراف على عنقها البديع ، متـوجة بإكليل معقـود نيط به كل نوع من أنواع الأزاهير وعلى جبـينها شعّ قـرص مدوّر ، كـالمرآه أو كـوجـه القـمر الـسـاطع أنبـأنى من تكون .. وقـد انتصبت أفاع عن يمين مفرق شعـرها ويساره ، تسند هذا القرص ، وبجانبها سنابل القمح . وكان ثوبها المتعدد الألوان من أفـخر القماش ، كان جزء منه أبيض ناصعاً وآخر أصفر فاقعـاً وثالث أحمر قانياً ، طراز على حوافه الزهر والثمار يؤرجحها النسيم . لكن ما شدّ عينى أكثر مما عداه كان رونق السواد الفاحم فى وشاحها الذى تدلى من كتفها الأيسر إلى ردفها الأيمن ، مثبتاً إلى كتـفها بعقـدة تشبه ترصيـعة الدرع ، وعلق جزء منه فى طيـات لا تحصى ، يرتعش خَـرجُه ذو العـذبات . كان مطرزاً بأنجم لامـعة على حـاشيـته وكل مكان آخر ، وفى وسطه شعَّ قمر مكتمل يتقد .

فى يدها اليمنى أمـسكت بجلجلة نحاسـية من ذلك الصنف المسـتعمل فى طرد أله الريح الجنوبـية ، نقش طرفـه الدقـيق على مـثال حـزام السـيف تتخلله أفقياً ثلاثة قضبـان صغيرة ، ترسل صليلها كلما هزت المقبض وعلى ناحيتـه اليمنى عُلق طبق ذهبى على هيئة سفـينة ، وعلى طول سطح المقبض

تلوّت أفعي منتفخة الرقبة ، ارتفع رأسها على أهبة غرز أنيابها ، وفى قدميها المقدَّسين خفان من سعف النخيل ، رمزاً للنصر .

تسربت إلى منخرى عطور بلاد العرب كلها ، حين تفضلت الربة بمخاطبتى : «ها أنت ذا ترانى هنا يا لوكيوس - استجابة لصلواتك ، أنا الطبيعة ، الأم الكونية ، سيدة العناصر كلها ، ابنة الزمن الأولى ، مولاة الروحيات جميعها ، مليكة الأموات ، ملكة الخالدين كذلك ، مظهر الأرباب والربات أجمعين ، إيماءتى تحكم السماوات العُلى الشاهقة، ونسائم البحر المعافية ، وصمت العالم السفلى الفاجع . ورغم أنى أُعبد بمظاهر كثيرة وأُعرف بأسماء لا تحصى ، ويتقرب إليّ بكل شكل من الشعائر المختلفة ، فإن الكرة الأرضية عن آخرها تبجلنى . الفروجيون القدماء يسموننى بسينونتكا أم الأرباب ، ويدعونى الآثينيون ، الذين ظهرت فى أرضهم ، أرتميس ، وعند أهل جزيرة قبرص أنا أفروديت اليافيّة، ولدى رماة السهام في كريت أنا ديكتونا ، وعند الصقليين ذوى اللغات الثلاث ، أنا بروسربين الستوجية ، وعند الإليوسيين أنا أم القمح العتيقة .

يعرفنى بعض الناس باسم يونو وبعضهم باسم بللونا المواقع الحربية ، وآخرون باسم هيكاتى ، وغيرهم باسم رهامنوبيا ، أما جنس الآثيوبيين من على أرضهم أولاً تشرق شمس الصباح والمصريون المتفوقون فى العلم القديم ومن يعبدوننى بطقوس تناسب ألوهيتى ، فيدعوننى باسمى الحقيقى، وهو على التخصيص : الملكة إيزيس . لقد جئت شفقة عليك من محنتك ، جئت لأمنحك فضلاً وأعينك ، لا تبكِ بعد الآن ، ولا تنتحب فقد حانت ساعة الخلاص مشرقة بنورى الحارس .

اصغ جيداً لأوامرى ..

لقد كرست نواميس الدين الأزلية اليوم المولود هذه الليلة لعبادتى ،

وغداً يقدم لى كهنتى بواكير ثمار موسم الإبحار الجديد بتدشين سفينة لى ، إذ فى هذا الموسم تفقد عواصف الشتاء قواها وتسكن الأمواج الثائرة ، ويصبح البحر ممكن الإبحار فيه مرة أخرى . عليك أن تنتظر هذا الحفل المقدس بعقل لا يقلقه التفكير فى المستقبل ولا تظلله الأفكار الدنسة ، سوف آمر الكاهن الأكبر بأن يحمل إكليلاً من الورد فى احتفالى مربوطاً فى الصولجان الذى يُحمل فى يده اليمنى . لا تَتردد ، إدفع الجمع الحاشد جانباً والحق بالاحتفال واثقاً فى فضلى . ثم اقترب من الكاهن الأكبر كما لو أنك تبغى تقبيل يده ، والتهم الورود بفمك وستنسلخ فى الحال من جلد الحيوان الذى كان بالنسبة لى دائماً أشد الحيوانات مقتاً في الوجود .

وليعمر الإيمان قلبك ، فوق كل شئ ، لا تظنّن من العسير إطاعة أوامرى، ففى هذه اللحظة نفسها ، وأنا أخاطبك هنا ، أوجه تعليماتى المكملة لكاهنى الأكبر فى نومه ، ونزولاً على أوامرى سوف تفسح لك جموع الناس غداً الطريق . ثق بأنه ما من أحد سينظر إلى شكلك القبيح مستفظعاً ، فى غمرة فرحة وضحك الاحتفال ، أو يجرؤ على تفسير عودتك المفاجئة إلى هيئة الإنسان تفسيراً شريراً . عليك فقط أن تتذكر، ولتحفظ كلماتى هذه سراً مكنوناً فى فؤادك . إنك الآن وإلى آخر يوم فى حياتك مكرس لخدمتى . من الصواب أن تنذر حياتك كلها للربة التى تعيدك إنساناً . وفى حمايتى سوف تسعد وتشتهر ، وحين تهبط إلى أرض الأرواح فى نهاية عمرك المقدور ، ستجد مناسبات متتابعة تتعبد لى فيها فى نصف الأرض السفلى سوف ترانى من حقول إلوسيوس ملكة العالم الستوجى العميق مشعة من ظلمة أكيرون بنور لطيف هادئ مثلما أريك الآن . فإذا ما وُجدْتَ أهلاً لحمايتى المقدسة بالطاعة التامة لفروض دينى وبالعفة الكاملة ، فستدرك هذا ، وأنا وحدى لى القوة على أن أمدّ فى عمرك أكثر مما مدده القدر» .

ومع هذه الكلمات تلاشى طيف الربة التى لا تقهر ، واختفى .. ◆

الجحش يتحوّل

نهضت من فورى صاحياً تمام الصحو ، يعمني عرق الحبور ، والخشية غمرت نفسى فى ماء البحر ، دهشاً فوق ما تعبر عنه الكلمات، وأنا أسترجع أوامر الربة وفى نيتى أن أطيعها حرفاً بحرف . وبعد قليل أشرقت الشمس الذهبية لتبدد ظلمة عتمة الليل ، وفى الحال غصت الطرقات بالبشر، يمشون عبرها ، كما لو أنهم فى مسيرة انتصار دينية. وبدا العالم كله، وليس أنا وحدى ، تملأه البهجة ، وعكست الحيوانات والبيوت ، بل حتى الطقس نفسه ، الجذل والصفاء الكونيّين . إذ تبع صقيع الأمس صباحٌ مشمس رائق ، وكانت الأطياء تشدو بألحانها ، واثقة من قدوم الربيع ، ترحب بملكه النجوم ، أم الفصول ، سيدة الوجود ، وقد أيقظت الأشجار كلها كذلك ، لا أشجار ظل الجنائن فحسب ، نسماتُ الجنوب الدافئة من نومة الشتاء ، توشيها الأوراق الخضر ، وتهز أغصانها بحفيفها العذب . وسكن هدير أمواج الشواطئ الصخرية وصخبها ، إذ همدت الزوابع ، واختفت كتل السحب الدكناء ، وشعت السماء الصافية بزرقة ضوئها العميقة .

عند ذلك ظهرت طليعة الموكب العظيم للعيان . كانت مكونة من عدد من الرجال يلبسون ثياباً مبهرجة اختاروها ، رجل يتقلد سيفاً ، وآخر فى ثياب صيّاد وقد شُدَّت وسطَه عباءةُ ثقيلة مع سكين صيد ورمح، وثالث تنكر فى شكل امرأة ، يرتدى خفين مذهبين ، وشعراً مستعاراً ، وثوباً من

حرير وجواهر ثمينة . ثم جاء رجل فى قدميه حذاء عال يبلغ منتصف ساقه وقد تدرع ، ووضع على رأسه خوذة وفى يده سيفاً ، وكأنه خرج لتوه من مدرسة المصارعين . تلاه آخر فى ثياب قاض بقبائه الأرجوانى وصولجانه . تبعه فيلسوف بعباءته وعكازه وقبقابه ولحيته التى تشبه لحية التيس . ثم صياد سمك بعصا طويلة وسنارة . آه .. نعم . جاءت بعده دبّة مروضة ترتدى ثياب امرأة محمولة فيودج ، وقرد على رأسه قبعة من القش ، يلبس عباءة فروجية معصفرة ، وقبض فى مخلبيه على قدح من الذهب - نموذجاً ساخراً لغانوميد ساقى جوبتر الوسيم . وأخيراً مرّ حمار أُلصق إلى كتفيه جناحان وقعد على على كفله شيخ طاعن فى السن يرتجف ، فلو رأيت هذا الثنائى لضحكت كما لم تضحك أبداً - إذ قصد بهما بيغاسوس وبيلليروفون .

وكان هؤلاء المهرجون ، مرتدو الثياب الخيالية ، يتجارون بين الجمع الحاشد - ثم جاء من بعدهم الموكب الحقيقى المهيب .

مشت فى المقدمة نسوة يتوج هاماتهن الزهر ، يخرجن زهراً آخر من طيات ثيابهن الجميلة البيضاء ، وينثرنه على طول الطريق ، وفى كل إيماءة منهن تبدو الفرحة «بالمنقذة» . عقب هذا جاءت نسوة أخريات شُدّت إلى مؤخرات رؤوسهن المرايا ، توهم من تبعهن أنهن قادمات للقاء الربة وليس المسير أمامها . ثم تقدمت أخريات ، يحملن فى أيديهن أمشاطاً من العاج ، قمن بحركات تمثيلية يمشطن شعر الربة الملكى . وفريق آخر يحملن قوارير العطر ، يرششن الطريق بالبلسم وعطور فاخرة غيره ، ومن ورائهن مزيج من النساء والرجال يغنون للربة «ابنة النجوم» . يتقربون إليها بكل نوع من أنواع الضياء - المصابيح والمشاعل وقناديل الشمع وما إليها بسبيل .

بعدها جاء عازفو الموسيقى بالمزامير والنايات ، اتبعوا بفريق من مغنى الجوقة الصبيان أُحسن اختيارهم ، ينشدون ترنيمة بيّن فيها شاعر ملهم منشأ

الاحتفال . وكان هناك أيضاً زمارو معبد الإله سيرابيس العظيم ، يعزفون نشيدهم الدينى بالمزامير ، وقد انحرفت أفواهها وتقوست أنابيبها حول آذانهم اليمنى . ثم عدد من حاملى الصولجان والألعبانات وهم يصيحون : «أفسحوا الطريق .. طريق الربة !» ثم لحق بهم جمع كبير من مريدى الربة ، رجالاً ونساءً من كل الطبقات والأعمار، تستطع ثيابهم الكتانية النقية البيضاء . وقد عقصت النساء شعورهن فى ثنايا لامعة تحت أغطية رؤوسهن الشفوفة ، وحلق الرجال رؤسهم تماماً - يمثلون نجوم الربة الأرضية الساطعة - يحملون مجلجلات من النحاس والفضة والذهب لا تتوقف صلصلتها الحادة عن الرنين .

ثم جاء من بعد ذلك الكهنة ، يرتدون أيضاً ثياباً بيضاء من الكتان، شُدَّت على صدورهم وانحدرت طويلة حتى أقدامهم ، يحملون رموز الديانة الكهنوتية ، وقد أمسك الكاهن الأكبر بسراج وهاج لا يشبه البتة تلك السرج التى نستعملها على الموائد ، كان سراجاً من الذهب ، صنع على هيئة قارب ، ينبعث من فتحة وسطه لسان من اللهب . أما الكاهن الثانى فأمسك فى كلتا يديه بوعاء القربان - أو : الماعون - ويشير الاسم إلى عناية الربة بمعونة عبَّادها . وحمل الكاهن الثالث نموذجاً مصغراً لنخلة سعفها من الذهب ، وكذلك قضيب ميركورى على هيئة الحية . وحمل الرابع نموذج ليد يسرى مبسوطة الأنامل ، رمز العدل ، إذ تبدو اليد اليسرى ببطئها الطبيعىً وافتقارها إلى الخفة والحذق أكثر إنصافاً من اليد اليمنى . كما حمل أيضاً إناءً من الذهب مدوراً على شكل ثدى امرأة يسيل من حلمته على الأرض مجرى من اللبن . وحمل الخامس منْسَفَةَ نُسِجت بقضبان الذهب لا من القش، ثم جاء رجل، غير الخمسة، يحمل جرة نبيذ .

تلا في الموكب بعد ذلك تلك المعبودات التى تنازلت بأن تسعى على الأقدام البشرية . ها هنا كان رسول آلهة السماء وأرباب الأموات المرعب ،

أنوبيس ، بوجه نصفه أسود ونصفه الاخر ذهبى اللون ، يمشى منتصباً قابضاً على عود المنادى فى يد وفى يده الأخرى جريدة من نخيل خضراء . وبعده جاء رجل يرقص حاملاً على كتفيه تمثالاً لبقرة قائمة تمثل الربة باعتبارها أمنا المخصبة . ثم جاء كاهن بصندوق يحوي الرموز السرية لديانتها الرائعة. وكاهن آخر محظوظ برمز قديم من رموز أقداسها مخبأ فى ثنايا ردائه . ولم يكن هذا قد صنع على هيئة أى حيوان ، وحشياً كان أو داجناً ، أو أى طير أو إنسان ، بيد أن جمال صنعته الفائق ، إلى جانب أصالة تصميمه ، يبعث على الإعجاب والخشية . لقد كان رمزاً لأسرار الربة العلية التى تفوق الوصف ولا يجوز أبداً إفشاؤها . كان عبارة عن إناء صغير من الذهب المصقول تزاحمت فوقه الحروف الهيروغليفية المصرية ، بقاع مدوّر ومئزاب طويل ومقبض فاخر النقوش تمددت عليه أفعى رافعة رأسها ، كاشفة عن عنقها الأحرش المغضن المنفوش .

وأخيراً جاءت اللحظة لتنزل علىَّ البركة التى وعدت بها الربة العلية . اقترب الكاهن الأكبر ، مناط رجائى فى الخلاص ، ورأيته يحمل المجلجلة والإكليل فى يده اليمنى تماماً كما وُعدت - لكن .. أوه .. لقد كان أكثر من إكليل بالنسبة لى . كان تاج النصر على ربة الحظ القاسية أنعمت به على إيزيس بعد أن احتملت كثير الشقاء ومررت بعظيم الأخطار !

عمتنى الفرحة المفاجئة ، بيد أنى أمسكت عن أن أركض فى الحال وأفسد موكب المهرجان الهادئ بسلوك حيوانى . بل تسللت بلطف وأدب فى سبيلى بين الجموع التى أفسحت لى الطريق ، بتدخل من الربة دون شك، حتى خرجت فى النهاية من الجانب الآخر . رأيت على الفور أن الكاهن قد نُبّه بما ينتظر فى رؤياه الليلة الماضية ، وإن كان يغمره الذهول من تحقيق الرؤيا بهذا الرفق . وقف ثابتاً مكانه ومدّ إكليل الورد إلى مستوى فمى . ارتجفت وارتفعت دقات قلبى وأنا آكل تلك الورود بلذة المحب . وما

أن ابتلعتها حتى وجدت أن الوعد كان حقاً وصدقاً . تلاشت ملامحى الحيوانية ، تساقط الشعر الخشن من فوق بدنى ، واشتد كرشى المرتخى ،وانفصل حافراى الخلفيان ليصيرا قدمين وأصابع ، ولم يعد حافرى الأماميان يستخدمان فى المشى عليهما وحده بل أعيدا يدين للاستعمال البشرى . ثم تقلص عنقى ، واستدار وجهى ورأسى ، وصغرت أسنانى الكبيرة الصلبة إلى حجمها الطبيعى ، وقصرت أذناى الطويلتان ، واختفى ذيلى - الذى كان أكبر خزى لى - اختفاءً كاملاً .

ارتفعت شهقة من التعجب ، ورفع الكهنة أيديهم إلى السماء ، وقد أدركوا تطابق المعجزة مع رؤيا الكاهن الأكبر للربة العظيمة ، يهللون لما وهبتنى الربة من نعمة - هذا التحول السريع إلى هيئتى الحقيقية .

عندما رأيت ما حدث لى ، تسمرت على الأرض ذاهلاً ، ولم أستطع أن أنطق بكلمة مدة طويلة وقد عجز عقلى عن متابعة مثل هذه الفرحة العظيمة المباغتة . لم تواتنى الكلمات المناسبة لشكر الربة على لطفها الغامر الخارق ، بيد أن الكاهن الأكبر - وقد أخبرته الربة بكل شقائى وكان مأخوذاً بالمنظر الغريب - أمر بإشارة منه أن أُعطَى كساءً يسترنى. إذ فعلت بالطبع بمجرد أن استعدت هيئتى البشرية ما يفعله أى امرئ عريان - ضممت ركبتى بعضهما إلى بعض ووضعت كلتا يدى لأستر عورتى، فخلع أحدهم ثوبه الخارجى وغطانى به . بعدها حدّق فيّ الكاهن الأكبر برفق وهو لا يزال فى دهشته من مظهرى البشرى الكامل ، ثم قال :

«لوكيوس .. أيها الصَّدِّيق ! لقد تحملت وقمت بأعمال كثيرة وصبرت على لفحات ريح الحظ العاثر كلها ، وها أنت أخيراً تصل مرفأ الأمان وتقف أمام هيكل اللطف الودود، لم يكف أصلك النبيل ولا رتبتك ولا عملك، لمنعك من الوقوع عبداً للذة، مأخوذاً بطيش الشباب . وقد أكسبك فضولك عديم الحظ عقاباً مشؤوماً ، غير أن ربة الحظ أسلمتك هنا ، بعد أن

قذفت بك بخبث من خطر إلى خطر ، دون أن تفكر فى ما كانت تفعله ، إلى السعادة الدينية . دعها تغرب الآن وتتقد غيظاً حيثما طاب لها ، ولتجد لعبة أخرى ليديها القاسيتين. فلا سلطان لها على أولئك المنذرين حياتهم لعزة وخدمة جلال إلهتنا ياللشمطاء ! ما الذى أفادته بإيقاعك فى يد اللصوص والكلاب المتوحشة والأسياد الغلاظ الأكباد ؟ ما الذى أفادته بوضع قدميك على الطرق الحجرية الخطرة ، ووضعك أنت فى رعب من الموت كل يوم ؟ استرح واثقاً من انك الآن آمن فى حماية ربة الحظ الحقيقية «العناية» التى ترى كل شئ، من يسطع نورها الجلى لجميع الأرباب . ابتهج الآن كما يبتهج مرتدى الكتان الأبيض ، اتبع منتصراً حاشية الربة التى أنقذتك ، دع الكفرة يروك ، وليشهدوا حين يرونك ، بخطأ طريقهم . فليصيحوا : «انظروا .. ها هو لوكيوس .. أنقذته الربة إيزيس من مصير رهيب ، شاهدوه مجداً فى هزيمته لحظه العاثر» لكن عليك لكى تحفظ مكاسب اليوم أن تسلك نفسك فى هذه الطريقة المقدسة كما تعهدت البارحة أن تفعل ، وتأخذ طوعاً على عاتقك ما تلزمك به إيمانك . فإن خدمتها هى الحرية الكاملة»

فلما أنهى الكاهن الأكبر خطابه الذى أُلهم ، انضممت إلى حشد النسّاك ، ومضيت مع الموكب قدماً وجميع أهل كورنثة ينظرون إليّ بفضول. كان القوم يشيرون إليّ أو يومئون برؤوسهم نحوي قائلين : «انظروا ! ها هو لوكيوس أعيد إلى هيئة الإنسان بقوة الربة القديرة ! يا له من رجل محظوظ أن يكسب حبها بفضل طهره وسلوكه الحسن السابقين ! وها هو يولد من جديد ويقبل فى التوّ ضمن عبادها الواصلين !» . وقد علت أصواتهم لي بالتهانى لا تنتهى عند حد .

فى هذه الأثناء كان الموكب يمضى على مهل واقتربنا من شاطئ البحر حتى بلغنا أخيراً نفس المكان الذى اضطجعت فيه الليلة الماضية على هيئة

جحش ، وهناك رُتبت الرموز المقدسة بنظام معين، وهناك أوْقَفَ الكاهن النقى الشفتين وكرّس للربة سفينةً رائعة الصناعة ، نقُش على كامل هيكلها كتابات هيروغليفية مصرية ، وقد بدأ بأن طَّهرها بعناية بشعلة موقدة وبيضة وشئ من الكبريت .

كان الشراع من الكتّان الأبيض الناصع ، كُتبت عليه بحروف ضخمة دعوات تطلب حماية الربة للسفن في موسم الإبحار الجديد . وارتفعت السارية المصنوعة من خشب شجر الشربين بقمتها المشعة ، ونحن نعجب بمقدمة السفينة المموهة بالذهب والمشكلة على هيئة عنق إوزة . إيزيس المقدسة وبُهرابها الطويل المصقول الذى قدَّ من خشب شجر الليمون الصلب . ثم شرع الحاضرون جميعهم ، كهنةً وعامة الناس ، ينضدون المناسف بحماسة على ظهر السفينة مشحونة بأنواع البخور وقرابين للشكر غيرها ، ويسكبون قدراً هائلاً من اللبن قرباناً فى البحر . فلما حُملَّت السفينة بالتقدمات والنذور من أجل الحظ الحسن قطعوا حبال مراسيها ، وانزلقت عبر الخليج ، تدفعها نسمة هادئة من خلفها ، بدا انها هبت لها وحدها . فلما غابت فى البحر عن الأنظار ، حمل الكهنة الرموز مرة أخرى، ورجعنا تغمرنا السعادة فى طريقنا إلى المعبد بنفس تنظيم الموكب الذى سبق .

عند وصولنا أُدْخل الكاهن الأكبر والكهنة حاملو الرموز الهيكلية إلى حرم الربة ، واتباع آَخرون ، ووضعوها فى أماكنها المعينة لها ، ثم رأس أحدهم ، ويعرف باسم (أستاذ اللاهوت) ، عند باب الحرم ، اجتماعاً لحملة الهيكل ، كما تدعى أعلى طبقة من كهنة إيزيس . ارتقى منبراً عالياً يحمل كتاباً وقرأ يبارك «مولانا الامبراطور ، ومجلس الشيوخ ، وطائفة الفرسان ، وعموم أهل روما ، وجميع البحارة والسفن المدينة بالطاعة للسلطات المذكورة» ، ثم نطق بالصيغة اليونانية التقليدية :«پلويافيسيا» – ومعناها أن

السفن مأذون لها الآن بالإقلاع، فردت الجماهير بهناف عظيم ، وتوزع الناس عائدين سعداء إلى بيوتهم ، وقد أخذوا معهم كل ضروب الزينات ، مثل أغصان الزيتون والشجيرات المعطرة وأكاليل الزهر ، بعد أن قبلوا قدمى تمثال فضى للربة ، كان منصوباً على درج المعبد . أما أنا فلم أشعر بالرغبة فى أن أتحرك قيد أنملة من المكان ، بل وقفت وعيناي مثبتتان بانتباه على التمثال ، أستعيد فى ذاكرتى كل ما مر بى من نكبات .

في تلك الأثناء ، كان خبر ما مرّ بى من تجارب ، والخير الفياض الذى تفضلت به عليّ الربة ، قد عم الآفاق حتى بلغ أخيراً مدينتى (مدورة) حيث بُكيت باعتبارى قد متُّ . وعلى الفور نسى عبدانى وخدمى وأقاربى الأقربون أحزانهم وهرعوا على عجل إلى كورنثة ، يملأهم السرور ، ليرحبوا بعودتى من العالم السفلى ، كما هو الحال ، وجاءونى بكل ضروب الهدايا . كنت مبتهجاً برؤيتى إياهم كما ابتهجوا برؤيتهم إياى - وقد قنطت قبلُ من أن نفعل - وشكرتهم مرة بعد مرة على ما جاءونى به ، وكنت ممتناً لخدمى خاصةً إذ أتوا إليّ بكل ما احتجت من مال وثياب .

تحدثت إليهم واحداً بعد آخر ، ولا يزيد هذا عن واجبى ، أخبرهم بما انقضى من بلايا وبما ينتظرنى من سعادة مرجوّة . ثم رجعت إلى ماصار أكبر متعة لى فى الحياة ، التفكير فى الربة . واستطعت نوال الإذن باستعمال غرفة فى المعبد والمشاركة فى شعائر عبادتها التى حرمت منها قبلئذ ، وقبلنى الإخوان كفرد منهم تقريباً ، ناسكاً مخلصاً للربة العظيمة .

لم أقضِ ليلة واحدة ، أو ألّم بى الكرى ، دون رؤيا جديدة منها ، وكانت تأمرنى دائماً بأن أنخرط فى سلك أسرارها المقدسة التى قُدِّرْتُ لها منذ زمن بعيد . كنت شديد اللهفة على إطاعتها ، غير أن الخشية الدينية منعتنى ، إذ وجدت - بعد السؤال والبحث الجادين - أن الانخراط فى سلك الطائفة يلزمنى بحياة صعبة للغاية ، وخاصة فيما يتعلق بمسألة العفّة ،

وأن على السالك أن يكون على حذر دائم من أى رجس حادث . ورغم أن القضية كانت تشغلنى ، فقد أجلت اتخاذ القرار بطريقة أو أخرى ، ذلك القرار الذى كنت أعرف أن عليَّ اتخاذه عاجلاً أم آجلاً.

ذات ليلة حلمت بأن الكاهن الأكبر جاءنى ، وحجره مملوء بالهدايا ، فلما سأله : «ماذا لديك؟» أجاب : «شئ من ثساليا ، لقد وصل عبدك كانديدوس لتوّه» فلما استيقظت من نومى ظللت متحيراً من الحلم مدة طويلة وأنا أتساءل عن مغزاه ، لا سيما أننى لم أملك أبداً عبداً بهذا الاسم، بيد أنى كنت على اقتناع بأن ما عرضه الكاهن الأكبر عليّ أمرٌ طيب مهما كان ، وحين اقترب الفجر ، صرت أترقب فتح باب المعبد فى حالة من التوّقع القلق . شُدَّت ستائر الحرم البيضاء بعدئذ وصلينا لوجه الربة الجليل، ثم مضى كاهن يطوف بالمذبح يؤدى شعائر الصباح بابتهال موقر ، ومن قدح فى يده سكب ماء القربان الذى جئ به من نبع داخل أسوار الحرم . فلما انتهى القدَّاس حيَّت جوقة اليوم الجديد بترنيمة عالية كانوا ينشدونها دائماً فى أولى ساعات الصباح .

فُتحت الأبواب ، ودخل لدهشتى ، عبداي اللذان تركتهما ورائى فى هوباتا عندما وضعت فوتيس ، بخطأها النحس ، حول عنقى رسناً . وكانا سمعا بقصة ما جرى لي وأحضرا لي كل أمتعتى ، بل تمكنا أيضاً من استرجاع جوادى الأبيض ، بعد أن تداولته الأيدى ، بأن عرفا ميسمي على كفله . فهمت الآن مغزى حلمى ، لم يأتيا لى بشئ من ثساليا فحسب ، بل استعدت حصانى كذلك ، وهو ما أشير إليه بجلاء فى الحلم باعتباره «عبدك كانديدوس» - إذ أن «كانديدوس» تعنى : الأبيض .

ومن بعد نذرت وقتى للقيام بخدمة الربة ، مدفوعاً بهذه الأمارات لكى أرجو إشارات من فضلها أكبر ، وازدادت رغبتى فى تقبل الأوامر القدسية عما قبل . وكثيراً ما حدثت الكاهن الأكبر عن هذه الرغبة راجياً إياه أن

يعلمنى أسرار الليلة المقدسة . كان رجلاً رزيناً ملحوظ الرعاية التامة لواجباته الدينية ، فكبح جماح قلقى كما يهدئ الآباء أطفالهم حين يطلبون طلباً غير معقول ، بلطف وعطف لم أشعر معهما بشبوط الهمة ، أوضح لي أن اليوم الذى قد يسلك فيه المريد يشار إليه دائماً بعلامات من الربة نفسها وأنها هى من يختار الكاهن الذى يقوم بالخدمة وتعلن كيف تدفع نفقات الحفل الطارئة . وكان من رأيه أن عليّ الانتظار بصبر جميل ، وتجنب لشديد الشوق ومفرط العناد ، فلا أكون إذا ما دعيت غير مجيب ولا ملحاحاً لجوحاً في انتظار النداء . وقال لى : «لم يكن واحد من الإخوان أبداً ليسئ أو يدنس حرم المعبد ، أومبالاً لإهلاك نفسه ، حتى يشارك فى السر دون أوامر مباشرة من الربة فيقع فى الخطيئة القاتلة . إن أبواب العالم السفلى وحفظ الحياة في يديها ، وشعائر التنسيب تقارب الموت طواعية ، ليس فيه أمل فى البعث غير محقق . إنها تتخير فى العادة شيوخاً يحسون بدنّو آجالهم وإن لم يبلغوا من العمر أرذله فلا يقدرون على حفظ السر . وبفضلها يولدون من جديد وتعود حياتهم جديدة مليئة بالعافية» .

والحق أنه قال إن عليَّ الرضا بانتظار أوامر محددة وإن وافق على انه قُدِّرَ لى خدمة الربة بعلامات جلية من فضلها ، وإن علي اجتناب الطعام المحرَّم كما يفعل الكهنة ، حتى يمكننى إذا آن أوان مشاركتى إياهم أقدس أسرارهم ، أن أدخل الحرم بخطوات ثابتة .

تقبلت نصيحته وتعلمت الصبر ، أشارك فى قداس المعبد كل يوم ، هادئاً ساكناً ، بقدر ما استطعت ، وفى نيتى إرضاء الربة . ومرت فترة تجربتى دون كدر أو خيبة أمل . وبعد هذا بقليل قدمت لى برهاناً على فضلها برؤيا فى منتصف الليل أُعلمت فيها بوضوح أن اليوم الذى طالما اشتقت إليه ، اليوم الذى تُحقق فيه أمنيتى الكبرى ، جاء أخيراً . وفهمت انها أمرت الكاهن الأكبر مثراس وهو من ربط قدره بقدرى لاشتراك قران

نجمينا ، بأن يقوم بالخدمة عند تنسيبي .

أبهجتني هذه الأوامر ، وغيرها صدرت لي في الوقت ذاته ، فنهضت قبل انبلاج الفجر لأنبئ الكاهن الأكبر بنبأها فبلغت بابه بينما كان هو خارجاً منها . حييته ، وكنت على وشك رجائه رجاءً تفوق حرارته ما سبق، أن يأذن لي بالانتساب ، باعتباره ميزة هي حقي الآن ، حين تكلم هو قائلاً : «لوكيوس .. أيها العزيز ! ما أكبر حظك ! وما أعظم البركة التى حلت فيك .. إذ تعطفت الربة العظمى بإكرامك فى هذا الطريق ! لا وقت نضيعه، فقد أشرق اليوم الذى طالما صليت له بحماسة غامرة . وها هى الربة المتعددة الأسماء تأمرنى بأن أطلعك على أقدس أسرارها».

أخذنى من يدى ، وقادنى بلطف إلى أبواب المعبد الواسع ، ولما فتحها بنفس الطريقة الخاشعة المألوفة وأدى طقوس الصباح ، مضى إلى المحراب ، وأخذ كتابين أو ثلاثة كتبت بحروف مجهولة عندى ، بعضها نقوش حيوان هيروغليفية وبعضها ، وقيَتْ من أن يدنسها أحد بأن جُدلت أعاليها وأسافلها عُقداً أو دُوِّرت كالدواليب أو شبك بعضها فى بعض فى شكل لولبى يشبه محاليق العنب . وقرأ لي من هذه الكتب إرشادات التزود بالملابس اللازمة والمكملات الضرورية لتنسيبي .

انطلقت من فورى إلى صحابى الكهنة ، وسألتهم أن يشتروا قسماً مما احتجت إليه ، دون أن يوفروا نفقة ، ومضيت لأشترى أنا الباقى .

وحين آن الأوان ، دعانى الكاهن الأكبر ، وأخذنى إلى أقرب حمام ، يرافقنى جمع من الكهنة ، فلما تمتعت بحمامى المألوف هناك ، غسلنى هو نفسه ، ورشنى بالماء المقدس ، وهو يتلو صلوات طلب الرحمة السماوية . وبعدها أعادنى إلي المعبد ووضعنى عند قدمى الربة .

كان الوقت أوائل العشية فأصدر لي جملة وصايا أقدس من أن ينَطق

بـهـا فــوق الهــمس . ثم أمرنى على مســمع من الجميــع بأن أمتنع عن كل شئ سـوى أبسط الطعـام طيلة الأيام العـشرة التـاليـة ، أولا آكل لحمـاً ولا أشرب خمراً .

أطعت أوامره بكل احترام ، ثم أخيراً جـاء اليوم الذى أقسم فيه اليمين ، وما أن اقترب المساء حتـى توافد حشد من الكهنة إليّ من كل صوب ، وكل منهم يقدم لي هدية الـتهنئة ، كمـا جرت العادة فى القـديم ، ثم أمر الكاهن الأكـبر كل من لم يكن منسّباً بمغـادرة المكان ، وخلع عليّ ثوباً جـديداً من الكتان وقادنى من يدى إلى خلوة المحراب ذاتها . وما من شك عندى ، أيها الفضولى ، فى أنك مـشوق إلى معرفة مـا حدث عندما دخلت الخلوة ، فلو كان مأذوناً لي بأن أنبئك ، أو كان مـأذوناً لك بأن تُنْبَأ ، لسمعت في التو كل شئ . لكن لسانى فى واقع الحـال ، سيشقى بسـبب طيشه كمـا تشقى أذناك بسبب فضولهما .

مهمـا يكن الأمر ، ولا رغبة لي فى أن أتركك فى عـذاب البلبال ، إذا ما كنت ذا ميـول دينية ، فلسوف أسجل قـدر ما يمكننى تسجيله دون الخروج عن الحد لغير المنسَّبين ، ولكن على شرط أن تصدقه .

(لقد دنوت من أبواب الموت ذاتها، ووضعت قدماً على عتبة بروسربين، ومع هذا ، أُذن لي فى الرجوع ، مستغـرقاً فى العناصر كلها، رأيت الشمس فى منتـصف الليل تسطع كـأنهـا فى رائعـة النهار . دخلـت حضـرة أرباب العالـم السفلى ، وأرباب العالم العلوى . وقفت بالقرب وتعبدت) .

حسن . ها أنت سمعت ما حدث ، لكننى أخشى أنك لـم تزدد حكمة.

انتهت الشـعائر الجليلة عند الفجر ، وخـرجت من المحراب ارتدى اثنتى عشـرة حلة مختـلفة ، وهى بالتأكـيد أقدس الحلـل ، لك لا بأس من ذكرى واحدةً منهـا . فقد رآنى كـثير من غـير المنسبين أرتديهـا حين أمرنى الكاهن

الأكبر بارتقاء المنبر الخشبى الذى كان منصوباً فى سط المعبد أمام تمثال الربة مباشرة . كنت ارتدى ثوباً خارجياً من الكتان الفاخر ، مطرزاً بالأزهار ، ووشاحاً ثميناً علق من كتفى إلى عقبى ، وقد نُقش على كل جزء منه الحيوانات المقدسة ، من مثل الأفاعى الهندية وحيوانات الرخم التى تقطن أقصى الشمال ، وهى أسود مجنحة تولدت فى أقصى بقاع الأرض . ويدعو الكهنة هذا الوشاح : الحُلة الأولمبية . أمسكت في يدى اليمنى بشعلة موقدة ، وعلى هامتى إكليل أبيض على هيئة نخلة ، يبرز سعفها ، يحيط برأسى كله كأنه أشعة النور .

فتحت السُتُر وكشفتُ فجأة لنظرات الجمع الحاشد ، كما يكشف عن التمثال الستار ، أسطع فى زينتى كالشمس . وكان ذلك اليوم أسعد أيام سلوكى الطريق ، احتفلت به كأنه عيد ميلادى بوليمة بهيجة ، حضرها أصدقائى جميعاً . وفى اليوم الثالث أديت شعائر وطقوس أخرى ، من جملتها إفطار مقدس ، وبها ختمت مراسم التنسيب . وقد لبثت أياماً أخرى فى المعبد أتمتع بلذة التأمل فى تمثال الربة متعةً لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ، إذ شددت إليها بدَيْن كبير من الامتنان لا أقدر على الرجاء فى رده أبداً ♦

الفصل التاسع عشر

في المحفل

بعد مدة أشارت عليّ الربة أن أعود إلى وطني . حمدتها قدر ما استطعت ، لا قدر ما تستحق ، وأخرت من رحيلي ، إذ وجدت من العسير عليّ أن أشد نفسي من مكان أحببته كل هذا الحب .

خررت ساجداً عند قدمي الربة ، وغسلتهما بدموعي ، وأنا أصلّي لها بصوت تخنقه العبرات : «يا قدس الأقداس ! يا راحة البشر الأبدية ! أنت يا من يُقيتُ فضلها الغزير العالَمَ ، من يتجه فؤادها نحو الحزانى والمنكوبين كما يلتفت قلب الأم إلى أولادها . أنت يا من لا ترتاح آناء الليل وأطراف النهار ، بل تستجيب لاستغاثة المكروبين في البر والبحر ، تبدّد ما يغشاهم من أعاصير ! يدك وحدها قادرة على فك أحابيل القدر المعقودة ، وأن تنهي كل دورة من دورات الطقس المكفهرّ ، وتكبح النجوم عن قران ضار ! تهيم بك الأرباب في العلا ، ويدين لك الأرباب على الأرض بالطاعة ! تضعين مدار الأجرام السماوية لتدور حول أقطابها ، وتمنحين الشمس الضياء ، وتحكمين الكون ،

وتطأين قوى الجحيم . تتحرك الأنجم لصوتك ، وتتوالى الفصول ، وتبتهج أرواح الأرض ، وتناقد العناصر . وبإيماءتك تهب الرياح ، وتنزل المزن غزير الغيث على الأرض ، وتنمو البذور ، وتزدهر البراعم . ترتعد الطيور المحلقة في السماء ، وكل حيوان يجوس خلال الجبال ، والثعابين الكامنة في التراب ، جميعها رهبةً منك . فصاحتي دون حمدك بما أنت أهل

له ، ومالى دون تقديم مالك علي فى عنقى من قـرابين ، وصوتى دون الجهر بكل ما أفكر فيه من جلالك - كـلا .. حتى وإن كان لي ألف لسان فى ألف فم ولا أصـمت أبداً . سـأبذل ، أنا المسكين ، كل مـا لى من جـهـد لأفـراغ لعبـادتك . سأجعل محـياك الأقدس دائماً نصب عـينى وأحفظ معرفـة سر قدسيتك مكنونة فى أعماق فؤادى !» .

ثم مضيت إلى الكاهن الأكبر مثراس ، وقد صار أبي الروحى ، وتعلقت بعنقه أقـبله مرة بعد مـرة ، وأرجوه أن يغفر لي عـجزى عن ردّ ألطافه كـما تستحق . وقد استغرق مني هذا الوداع وقتاً طويلاً خشى معه لابد ، أننى لن أتوقف أبداً عن قولى : «أشكرك ، أشكرك ... أوه ... أشكرك !»

عزمت على المضى رأساً إلى بلدى (مَدَورة) بعد غيبتى الطويلة ، غير أن الربة طلبت مني بعـد بضعة أيام أن أحزم مـتاعى على عجل وأركب سـفينة إلى روما . وكـما يمكن توقعـه هبت الريح رخاءً طيلة رحلتى ، وسرعـان ما كنت فى مرفـأ أوستا ، حـيث اكتريت زورقـاً سريعاً وبلغت المدينة المقـدسة مسـاء اليوم الثـالث عشـر من شهر ديسـمبـر . وكان أول عمـل قمت به أن زرت معبد الـربة فى حقل مارس وهو ما أسبغ عليهـا اللقب المحلى «سيدة الحقل» ، وهناك حضرت قـداساتها اليومية. ورغم كونى أجنبـيّاً فقد منحنى الكهنة حريتى فى معبدها بسبب تنسيبي إلى أسرارها فى كورنثة .

كانت الشمس قد أتمت دورتها حول برجها ، حين زارتنى الربة الودودة، وكانت لا تزال ترعـانى فى حلم وأمرتنى بالاسـتعداد لتنسـيب جديد ويمين جديد . لم أعـرف المطلوب منى أو ما هو المفـروض أن يحدث . ألم أنسب للطريقة من قـبل ؟ فكرت فى الأمر ملياً واستنصحت الكاهن الأكـبر ، ثم خطر لى بقوة المباغتـة أننى حتى الآن أطلعت على أسرار إيزيس ، ولم أطلع بعد على أسرار أبى الأرباب العـلى - أوزوريس الذى لا يقهر . إذ رغم أن طبيعتهما القدسية مرتبطتـان ، بل موّحدتان بمعنى متعالٍ ، فإن هناك بالتأكيد

فرقاً كبيراً بين شعائر التنسيب فى ديانتيهما المنفصلتين . حدست أن الرب العظيم أرادنى خادماً له ، وصدق حدسى الليلة التالية . حلمت أن كاهن أوزوريس دخل غرفتى بكتان أبيض وقُضُب من شجر الشربين وأكاليل من العاج وأشياء مقدسة أخرى ، غير مأذون لىَ بذكرها ، ووضعها بين أصنام البيت ، ثم جلس فى كرسيَّ وطلب مني أن أولم وليمة دينية . وقد لاحظت أنه يمشى مشية عرجاء وعقب قدمه الأيسر قد التوى قليلاً ، واعتبرت هذا علامة يمكننى من التعرف عليه ثانية إذا ما رأيته بشراً سوياً ، وها قد بيَّنت إرادة الأرباب تمام التبيان . انطلقت إلى المعبد لأصلى للربة صلاتى اليومية ، وما أن ختمت صلاتى حتى نظرت عن كثب إلى الكهنة لأرى إذا كان أحدهم يشبه من رأيت فى الحلم .

عرفت الرجل من توى . كان أحد حملة الهيكل ، ولم يكن عقبه ملتوياً فحسب بل إن طوله ومظهره العام تطابقا كل التطابق مع رؤياي . وظهر أن اسمه كان أسينيوس مارسيللوس ، وبدا أن اسم أسينيوس * يشير إلى تحولى إلى جحش . مضيت رأساً إليه فأدركت انه كان يعرف بالضبط ما سأقول ، إذ وُجَّه بمثل ما وُجِّهت به ، وبدا أنه سمع فى الليلة الماضية ، وهو يضع الأكاليل على تمثال أوزوريس ، وحياً يخرج من فمه المقدس معناه بالتحديد أن رجلاً من (مَدَوْره) أُرسل إليه ، عليه أن يعلمه ، رغم فقره ، أسراره المقدسة على الفور . وأضاف الرب أن هذا الرجل سينال ، تحت رعايته ، شهرة فى حرفة من حرف المعرفة ، وأن أسينيوس ذاته سيجازى خير الجزاء على ما يتجشم من عناء .

هكذا نُذرْتُ لغوامض الأسرار ، غير أن انتسابى لسوء الحظ ولخيبة أملى الكبيرة ، لَم يكن ميسراً بعد ، إذ لم يكن لدي مال يكفى لدفع تكاليف الشعائر ، فقد التهمت نفقات رحلتى ما كان معى من مال يسير عند رحيلى

* Asinius باللاتينية تعنى : جحش .

من كورنـثة . ولقد وجـدت العيش فى رومـا أبهظ كثـيراً منه فى الأقـاليم . أغمّنى أن يُخيب الفقـر أمانيَّ ، وأحسست ، كما يقـول المثل ، بأننى ضحية وقعت «بين المطرقة والسندان» ومما زاد الأمر سوءاً، أن الرب طفق يظهر بين الحين والآخر فى رؤى ليلية يذكّرنى بأوامره ، وأخيراً أمرنى بأن أخلع القباء عن ظهرى وأبيعه ، وقد فعلت دون تردّد ، واستطعت رغم أن القباء لم يكن فاخـراً ، أن أحصل بـه على مبلغ من المال كـاف لدفع رسم التنسيـب . وقد قال الرب : «إن كنت تبغى شراء شئ يمنحك الرضا الحقيقى فهل تراك تتردد لحظة فى التـخلى عن ثيـابك؟ إذن ما بالك وأنـت على وشك المشاركـة فى سرى المقدس ، تتردد فى تسليم نفسك لفقرٍ لن تندم عليه أبداً ؟!»

هيـأت كل شئ . أمـضـيـت عـشـرة أيام أخـرى دون أن أطعم لحـمـاً ، واستـسلمت لحلاقـة رأسى تماماً ، أُدخلت بعـدها إلى قصـوف الرب الليلة وصرت من المسـتنيرين بنوره . شـاركت فى قداسه وقـرابينه بثقـة ، منحتنى إياها معرفـتى لطقوس إيزيس المشابهة ، وقد عـزانى هذا التنسيب عن بقائى مجبراً فى بلدٍ ليس بلدى ومكّننى فى الوقت ذاته مـن العيش أقل تقتيراً ، إذ سّهل أوزوريس ، رب الحظ الحسن ، طريـقى وعشت عيشة راضـية بالعمل محامياً ، رغـم انه كان عليّ الترافع باللاتينية وليس باللسان اليونانى .

بعد هذا بمدة قـصيرة ، هل تـصدق .. أُمرت فى رؤيا أخـرى بأن أمضى فى تنسيب ثالث ، دهشت وتحـيرت عجزاً عن معـرفة رأس الأمر من ذيلة . لقد نسـبت مرتين من قـبل ، فما الـسر الغامض الذى لم يكـشف لى بعد ؟ وتفكرت : «لابد أن الكهنة خـدعونى . إمـا انهم قدموا لي كـشفـاً زائفاً أو انهم أخفوا عني شيئاً» وأشهد اننى شرعت أيضاً أرتاب فى انهم يغشوننى . وبينمـا كنت مـحتـاراً في الأمـر ، أكـاد أجن من شـدة القلق ، بيّن لي رب ودود، لم أعرف اسمـه ، القضية لي فى الحلم ، وقـال : «ما من سبب لديك لتنزعج من أمـرك ، بمعاناة تنسـيب آخر ، أو أن ترتاب فى أن شـيئـاً حجب

عنك فى الشعائر الماضية . على العكس ... يجب أن تُسرَّ بإشارات الفضل الإلهى المكررة هذه التى أُظهرت لك ، وتبتهج إذ وُهبت ثلاث مرات فضلاً يناله القليلون مرةً واحدة . ثق ، مطمئن البال ، أن قدسية الرقم (ثلاثة) تلقى عليك بركة أبدية وأن من اللازم لك أن تمضى فى تنسيب ثالث . تذكر فقط أن رداء الربة الذى كُسيته فى كورنثة لا يزال مُدَّخراً فى المعبد هناك ، وحتى لو كنت جئت به معك فما من أمر يصدر إليك لترتديه هنا حتى فى شعيرة الابتهال . انه رداءٌ يونانى لا يمكن الاعتراف به مسبغاً عليك جلالَ كاهنٍ من كهنة (سيدة الحقل) فإن رغبت إذن فى متعة الصحة والسعادة والتوفيق ، وجب عليك معاملة الأرباب العظام باعتبارهم ناصحين لك ، والخضوع للتنسيب ، فرحاً كذى قبل» .

أقنعتنى هذه الرؤيا القدسية بأنه خيرٌ لي أن أطيع ، فمضيت مباشرةً إلى الكاهن الأكبر ، دون إهمال أو تأجيل ما فى يدى من عمل ، وأخبرته برؤياي . ثم صُمْتُ مرة أخرى ، طواعية هذه المرة ، مطيلاً مدة امتناعى عن اللحم ، ودفعت النفقات عن آخرها من جيبى ، تُمْلي المبلغ حماستى الدينية أكثر مما تمليه حاجات المعبد .

وما من سبب كان يدفعنى للندم على ما تجشمت من عناء ، أو دفعت من مال ، إذ بفضل الآلهة سرعان ما عوضتنى الرسوم التى كنت أتقاضاها فى قاعات المحاكم عن كل شئ . وأخيراً ، بعد بضعة أيام ، ظهر لي الرب أوزوريس أعظم الإرباب و «الأسمى من كل عظيم ، والأعظم من كل سامٍ، وسيد العظماء» نفسه فى حلم . وقد تخفى فى الحلم السابق ، أما هذه المرة فقد تنازل ليخاطبنى بشخصه هو نفسه ، بفمه الأقدس ذاته . أكد لي أننى سأصبح فى القريب العاجل محامياً شهيراً ، وأن عليّ ألاّ أخشى الكاشحين ذوي الغلّ من سيعرضنى لهم العلم الذى نلته بعناء الدرس ، وانه يرغب مني العون فى شعائره المقدسة رفقة كهنته الآخرين ، وانه لذا

اختارنى ليس عضواً فى طبقة سدنة الهيكل فحسب ، بل مستشاراً للمعبد مدة الخمس سنوات القادمة .

ومرة أخرى حلقت رأسى ، وتركته هذه المرة محلوقاً ، وقمت سعيداً بواجبات هذه الكلية العتيقة التى أنشئت أيام الجبار سولا . ولم أحاول أبداً أن أخفى صلعى بوضع شعر مستعار أو غطاء على رأسى ، بل عرضته للأنظار ، دونما خجل ، فى جميع المناسبات ! ♦

تمت

المحتويَــــاتْ

المؤلف
د . علي فهمي خشيم

- أمين عام مجمع اللغة العربية . طرابلس . الجماهيرية .
- أمين عام رابطة الأدباء والكتاب . طرابلس . الجماهيرية

مؤلفاته

- النزعة العقلية في تفكير المعتزلة :
دراسة في قضايا العقل والحرية عند أهل العدل والتوحيد .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٦
الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٥

- الجبائيان .. أبو علي وأبو هاشم :
بحث في مواطن القوة والضعف عند المعتزلة في قمة ازدهارهم وبداية انهيارهم .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٨

- أحمد زروق والزروقية :
دراسة عن أحد أعلام التصوف الإسلامي في شمال افريقيا. حياته وعصره ومذهبه وطريقته ..
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٥
الطبعة الثانية – المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠

- الكناش :
صور من ذكريات الحياة الأولى لأحمد زروق .. بقلمه . مع مقدمة وتحقيق .
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠

- كتاب الإعانة : لأحمد زروق : تحقيق وتعليق .
الطبعة الأولى - الدار العربية للكتاب ١٩٧٩

- نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى :
ترجمة كتاب (وليام سذرن) : W. Southen, Western Views of Islam in the Middle Ages) مع التعليق عليه ، ومقدمة ، بالاشتراك مع د .. صلاح الدين حسن
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٦

- حديث الأحاديث :
مناقشة صريحة لآراء وأفكار الشيخ محمد متولي الشعراوي .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٨

- نصوص ليبية :
ترجمة لكتابات مشاهير المؤرخين والجغرافيين اليونان واللاتين عن ليبيا القديمة مع مقدمات وتعليقات وشروح .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٨
الطبعة الثانية - دار مكتبة الفكر ١٩٧٥

- قراءات ليبية :
مقالات مركزة عن الحياة والناس والأرض والتاريخ والأسطورة في ليبيا حتى الفتح الإسلامي .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٩

- الحاجية :
من ثلاث رحلات في البلاد الليبية . رحلات الناصري والمنالي والفاسي في ليبيا محققة ومشروحة ..
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٤

- دفاع صبراتة Apologia :
النص الكامل لدفاع (أبوليوس المداوري) في محاكمته بمدينة صبراتة مع مقدمة تحليلية وتعليقات .
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٥

- الأزاهير Florides :
نماذج من كتابات وخطب (أبوليوس المداوري) .
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٩

- تحولات الجحش الذهبي :
رواية أبوليوس المداوري الشهيرMetamorphoses مترجمة إلى العربية مع مقدمة تحليلية
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠
الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٤
الطبعة الثالثة - مركز الحضارة العربية ١٩٩٩

- حسناء قورينا :
مسرحية (بلاوتوس) Plautus باسم Rudens .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٧

-حسان :
مسرحية (جيمس فلكر)J . flecker. Hassan
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٧

- الحركة والسكون :
مجموعة مقالات وبحوث نقدية في مختلف الموضوعات التي اهتم بها الكاتب ..
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٣

- أيام الشوق للكلمة :
مقالات وبحوث ودراسات .
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٧

- مر السحاب :
مقالات قصيرة في السياسة والأدب والاجتماع .
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٤

- بحثاً عن فرعون العربي :
دراسات وبحوث في اللغة والتاريخ العربي والليبي - بنظرة جديدة للتراث الحضاري .
الطبعة الأولى - الدار العربية للكتاب ١٩٨٥
الطبعة الثانية - مركز الحضارة العربية ١٩٩٩

- آلهة مصر العربية (في مجلدين) :
دراسة موسعة للدين واللغة في مصر القديمة لإثبات عروبتهما ، ثلاثة أجزاء في مجلدين
الطبعة الأولى - نشر مشترك - الدار الجماهيرية (ليبيا) ودار الآفاق الجديدة (المغرب) ١٩٩٠
الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨

- سفر العرب الأمازيغ :
بحث مفصل في عروبة اللغة الأمازيغية (البربرية) ملحق به :
- لسان العرب الأمازيغ : معجم عربي - بربري مقارن .
الطبعة الأولى - دار نـــــون ١٩٩٦

- هل في القرآن أعجمي ؟
نظرة جديدة إلى موضـوع قديم . بحث يصحح ما شاع من وجـود مفردات أعجمـية في القرآن الكريم ،
يؤصل هذه المفردات ويبين عروبيتها مع مقارنات باللغات العروبية الأخرى .
الطبعة الأولى - دار الشرق الأوسط ، بيروت ١٩٩٧

- في المسألة الأمازيغية :
سلسلة "الدفاتر القومية"
الطبعة الأولى - المجلس القومي للثقافة العربية - الرباط ١٩٩٦

- إينـــارو :
رواية تاريخية مستوحاة من وحدة عرب مصر وعرب ليبيا في مقاومة الاحتلال الفارسي لوادي النيل في القرن الخامس ق.م.
الطبعة الأولى - المؤسسة العربية للنشر والإبداع . الدار البيضاء . المغرب . ١٩٩٥
الطبعة الثانية - مركز الحضارة العربية ١٩٩٩

- التواصل .. دون انقطاع :
دراسات في تاريخ وتراث الوطن العربي القديم .
الطبعة الأولى - الـدار الجماهـيريـة ١٩٩٨

- الكلام على مائدة الطعام :
مقالات في ما يتعلق بأسماء الأطعمة وما يتصل بها أو يدخل في تركيبها من مواد وأدوات .
الطبعة الأولى - الـدار الجماهـيريـة ١٩٩٨

- رحلة الكلمات :
مـقارنات بين العـربية واللغـات الأوروبيـة لبيـان الصلة الوثيقـة بين العـربية وهذه اللغـات في أسلوب عرض مبسط .
الطبعة الأولى - دار اقرأ - مالطا / روما ١٩٨٦
الطبعة الثانية - مركـز الحضارة العربـية ١٩٩٨

- رحلة الكلمات الثانية :
الطبعة الأولى - الـدار الجماهـيريـة ١٩٩٨

بالإنكليزية :
- Zarruq the Sufi (زروق الصوفي) :
مؤسسة (موريس الدولية) Morris International - لندن
المنشـأة العامـة - طرابلس ١٩٧٤

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع فى الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيرى عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبى فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدى صَح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخرابة 2000	محمد الشرقاوى
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
إلحاح	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيـــا تنادينا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة فى خيمة الليل	على قريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسينى
ليالى العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحرالتحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	چورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

تحولات

الجحش الذهبي

كلما ذكر اسم "أبوليوس" في مصدر من المصادر، أو مجلس من المجالس، قفزت إلى الأذهان مباشرة صورة ذلك "الجحش الذهبي" العجيب وهو يمرح هنا وهناك، يمر بمغامرة ليدخل أخرى ويتنقل من مكان إلى آخر، يختزن في ذاكرته المدهشة ما صادفه من قصص وأحداث، ليرويها فيما بعد للأجيال ويسجلها أثراً من أخلد الآثار الأدبية في العالم. وتنفرج الشفاه عن ابتسامة، وترتفع الأكف لتخفي ضحكة تغالب صاحبها حين يذكر فقرات هذه الرواية.

في الأصل اللاتيني تميزت هذه الرواية بثلاثة أشياء: لغتها، وأحداثها، وأفكارها. وهي نقلت إلى أغلب اللغات الحية، ومن أهمها الإنكليزية التي نقلت عنها إلى العربية.

